لن يبتعد

الدكتور ثروت عكاشة
وزير الثقافة

ومضى القائد العظيم ...

مضى بعد وقفة قصيرة بيننا لكنها خلاقة ، أخذنا فيها من ركود ماضينا الى وثبات مستقبلنا ، دون أن ينسى أن نحمل فى أيدينا تراثنا الحضارى زاداً فى رحلة التحدى الطويلة . واضعا فى أيدينا « ميثاقه » الملهم ومضات نور نسترشد بها فى متاهات الطريق ..

ومن ثنايا ميثاقه يتالق « حق الفرد فى ثقافة وطنية حرة تفجر ينابيع الاحساس بالجمال فى حياة الانسان الحر » ، « حق الطفل فى الحصول على حياة تجعل من نشاته طفرة لتقدم الانسان المصرى المعاصر » مرشدا للعمل فى الحقل الثقافى الفسيح ...

ولم يكن حديث عبد الناصر عن الثقافة الا تعبيرا عن ايمان عميق بقدرتها على التغيير والتطوير فى بناء شخصية الانسان ، هو ذلك الايمان الذى جعله يتخذ من الثقافة احدى ركائزه فى تغيير المجتمع المصرى ..

كانت التفاتة عبد الناصر الى وضع الثقافة فى العهود السابقة على الثورة ودراسته العميقة لأسلوب عملها هى التى شكلت فلسفته الجديدة القائمة على تحويل الانسان المعاصر الى انسان مثقف يتنسم منذ ميلاده أنسام الثقافة فى مجتمعه كله ..

ولم تكن الدولة قد منحت مجال الخدمة الثقافى قبل ثورة يوليه الا ادارة صغيرة ملحقة بوزارة التربية والتعليم ، محصورة فى نطاق ضيق لا تنفذ عبره الجماهير . وكان النتاج الثقافى خليطا غريبا من ثقافة عربية عريقة غير ميسرة الفهم ولا التداول ، وثقافة غريبة مغرقة فى البعد عن مفهوماتنا غير مطوعة لمشاكلنا . ولم يكن المجال فسيحا أمام عملية الاحتكاك الخلاقة ، ولا مفتوحا أمام المواهب الجديدة ..

ومنذ فجر الثورة وعيونه على الثقافة بوصفها عاملا فعالا ورئيسيا فى تكوين السياسة الشاملة للتنمية . ذلك أن التنمية هى عطاء الانسان تتزايد قدراته وتفوقه ونموه العقلى والعاطفى ، وتتزايد معها قدرات المجتمع الاقتصادية ، التى تتيح له امكانيات ثقافية أوسع ، بقدر ما تضاعف احتياجه اليها ..



هكذا شكل القائد العبقرى خطته فى اطار هذا المثلث ذى الأضلاع الثلاثة التى تم التعارف عليها عالميا ، وهى السياسة والاقتصاد والثقافة• وكان ايمانه بخطورة هذا الضلع الثالث فى عملية التطوير الاجتماعى هو الذى حدا به الى صياغة قراره الثورى الحكيم الذى أنشأ به وزارة الثقافة عام ١٩٥٨ وحملها به مسئولية الانطلاق الى جماهير الشعب ، تهدى اليهم باقة نضرة من ثمار الفكر الحر وروائع الفنون الجميلة التعبيرية والتشكيلية تطور مفهوماتهم ، وتتفاعل معهم ، تعطيهم وتأخذ منهم ليكتمل لهم فى النهاية طابع النضج والوضوح ••

وبدأت وزارة الثقافة العمل على هدى فكره :

أطلقت الفكر المحصور بين دفتى كتاب من عقاله فاذا به يتألق فوق مسرح ترتكز عمده على ثقافة عالمية لا تصد وافدا جديدا ، بل تفتح الأبواب على مصاريعها لثقـافة وطنية أصيلة ولابداع قومى طموح فى التمثيل والرقص والموسيقى والغناء على السواء بعد دراسة واحتضان ورعاية وانتقاء ، وفتحت أمام الفن السينمائى عالم التكنولوجيا العلمية الحديثة ، لتسلم أبناء الوطن أداة متطورة يصوغون من خلالها ما يعتمل فى ذوات نفوسهم من ابتكار وتجديد وسط التغيرات اليومية فى المجتمع المندفع الى الأمام•

وحينما بدأ يرتفع السد العالى ذلك الانجاز الهندسى العملاق الذى أراد به القائد أن يحقق مزيدا من الرخاء للشـعب ، وأخذت مياه بحيرته الفسيحة تزحف نحو آثار النوبة مهددة بفناء عدد من أروع الانجازات الفنية لرواد النهضة الانسانية من أجدادنا الخالدين وقصرت امكانياتنـا القومية عن حمايتهـا ، وجه الرئيس عبد الناصر النداء الدولى لجميع حكومات العالم وشعوبها بلا تفرقة لتساهم فى انقاذ كنوز يجب أن تبقى بين المعالم الخالدة فى تاريخ الانسان ، فكان بصوته وفكره سندا لمعالمنا الثقافية القيمة، وبقيت لمصر كنوز النوبة التى ستبقى مصر بها دائما محط أنظار العالم من أقصاه الى أقصاه ••

ولم تكن التفاتة عبد الناصر الى العالم محض صدفة ، بل كانت سياسة متصلة • وكانت توجيهاته أن تكون علاقاتنا الثقافية الدولية فسيحة لاتعرف انجازا لغير خير



الشعب . وكان ذلك منطلق الوزارة فى استقدام خبراء من شرق العالم وغربه فى السيرك والرقص الشعبى ومسرح العرائس ، والباليه والموسيقى والتنقيب عن الآثار واللوحات الفنية وترميمها ، وفى الأفلام التسجيلية وأفلام الكرتون ، وفى جميع مجالات العمل الثقافى ..

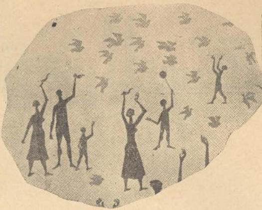
ومع ذلك كان عبد الناصر يؤمن أن استقدام الخبراء من العالم لا ينبغى أن يمثل غير مرحلة واحدة من مراحل الطريق الذى يجب أن يمتلء بمواهبنا الوطنية . ومن هنا فقد رحب الرائد والمعلم بقيام المعاهد الفنية لتكون حجر الزاوية فى تخريج الفنان المثقف فأصدر القرار الجمهورى عام ١٩٥٩ بانشاء المعاهد الفنية العليا التى تحولت منذ عامين الى أكاديمية للفنون ضمانا لغرس الثقافة الحقيقية على أسس علمية متطورة ..

كان خير الشعب هو نقطة البدء فى كل خطوات عبد الناصر .. ومن أجل جماهيره كانت حركة وزارة الثقافة نحو الهدف الذى رسمه فى كلماته الواعية « أن الثقافة هى وجه الأمة المشرق ، وهى أن لم تتطور ستستمر نقطة ضعف سيئة فى سجل الحياة المصرية ، ان الصيغة هى ما نرجو أن نطوره ، أما المضمون فهو من عندنا ومن تقاليدنا ومن قيمنا ، ومن رجائنا فى مستقبل ناهض متطور » ..

ومضى القائد العظيم ..

فى لحظة أذهلتنى ، عقدت لسانى ، وغاص الأسى العميق فى جوانحى ، تاهت أفكارى شاحبة تبحث عن مرفأ ، وتدفق الى قلبى نغم حزين ، انساب اليه من عالم التجريد ، حيث تهيم الأرواح النقية ، وحيث يبكى الوتر ، ينعى الانسان بايحاء من النغم لا تدركه الكلمة . ورحت فى غيبوبة مع نسيج « مرثية الأرض » التى صاغها الموسيقى العبقرى جوستاف ، بالمرقمة فى عالم الفن وليتنى كنت قادرا على نقل أنغامها الى الورق تحية للراحل العظيم ، غير أننى أستعيض عن اللحن بأبيات من القصيدة التى أوحت به :

الشمس تنتحى خلف الجبال غاربة ..
ويهبط المساء



وتشحب الزهور فى انتفاضة الشفق
صديقى الذى رحل
أنتظره كي أودعه
وداعى الأخير
وكم أتوق يا صديقى أن أكون جانبك
نرى معاً جمال ذلك المساء
تراك أين
طال انتظارى وحيدا
أهيم فى الدروب
وجاءنى صوت الصديق
من خلف نقاب يقول لى :
وسط الجبال سوف أبقى هائماً
أنشد راحة قلبى المكدود
أحوم حول دارى ومأواى
لن أبتعـد
فان قلبى هادىء يرقب ساعته
فى كل بقعة بها يولد الربيع
وتونع الأرض الحبيبة
وتورق الغصون
ويكتسى الأفق بزرقة متألقة
لن أبتعد
الى الأبد .... الى الأبد .

ثروت عكاشة

كلمة عن المستقبل

د. فؤاد زكريا

عن المستقبل وحده أود أن يكون حديثى . ذلك لأن المفكر ، حين يخوض غمار المشكلات المصيرية التى تتوقف عليها اقدار أمته ، ينبغى عليه أن يكون متطلعا الى الأمام ، وأن يلقى الضوء على ما بقى من الطريق ، لا على ما فات منه . ولكن ، لعل السبب الأهم هو ان المستقبل ، فى موقفنا الراهن ، هو الذى يشغل بال الناس بلا انقطاع ، وهو الذى ينصب عليه اهتمامهم ، وانشغالهم : وقلقهم . ولو استطاع المفكر أن يسهم فى تحويل هذا الانشغال والقلق الى ادراك واع لطريق محدد المعالم ، لكان بذلك قد أدى واجبه المقدس نحو أمته ، وقدم تبريرا كافيا لوجوده كمفكر .

لقد أراد اعداؤنا أن يستغلوا أحزان امتنا على رحيل زعيمنا ، فحاولوا أن يتحكموا فى تشكيل المستقبل بأن يوحوا الينا بفكرة « الفراغ » . والايحاء بفكرة الفراغ يعنى اننا لن نستطيع أن ندبر أمورنا ، أو نوجه أنفسنا بعد ان غاب ذلك الذى كان يدبر لنا كل شيء ، ويوجه كل شيء . هكذا أراد الأعداء ان يوهمونا ، وفى ظنهم أن تصديق هذا الزعم لابد أن يوقع الناس فى الاضطراب والخلط فى كل ما يفعلون .

كان التدبير المقصود من نشر فكرة ((الفراغ)) نفسيا قبل كل شيء . ذلك لأن الفراغ بطبيعته مخيف : انه هوة تهدد بابتلاع من يقترب منها ، وظلام يكتنفه من كل جانب . وهو عجز عن الاهتداء الى الطريق ، وتخبط فى الاتجاه ، وفقدان للغاية من المسار . وفضلا عن ذلك فان هذا الفراغ — الذى يزعمون وجوده — ليس فراغا دائما ، كان هناك على الدوام ، وانما هو فراغ مفاجيء ، طاريء ، داهمنا فجأة فى أحلك الظروف وأصعب المواقف . انه فى حقيقة الأمر ((تفريغ)) امتص الهواء الذى كنا نستنشقه ، وتركنا ونحن نفتقر الى أسباب الحياة .

من فكرة « الفراغ » التى يريد أعداؤنا أن يشيعوها بيننا ينبغى أن تكون نقطة انطلاقنا . فهل نحن حقا فى فراغ ؟ وهل المشكلة الحقيقية التى يعانيها شعبنا ، بعد غياب القائد ، هى أن كل شيء يحيط به ظلام ، وأن الطريق قد انقطع فجأة ، أو انتهى الى هوة سحيقة توشك على التهام كل من يحاول مواصلة السير فيه ؟

ان الفكر الواعى ، والتحليل الأمين للموقف ، كفيل بأن يؤدى بنا الى الوصول الى نتيجة هى عكس النتيجة السابقة على خط مستقيم . **فاذا نظرنا الى الحاضر والمستقبل بعين فاحصة ، تبين لنا أن أول ما يتسمان**



به ، **بالقياس الى الماضي، هو «الامتلاء» ، لا الفراغ** . وحسبنا أن نعقد مقارنة بسيطة بين اتجاهات عقولنا قبل عام ١٩٥٢ وبين اتجاهاتها الراهنة ، لندرك مدى الامتلاء الذى أصبحت حياتنا تتسم به .

فقبل عام ١٩٥٢ كان التفكير فى العدالة الاجتماعية يتخفى ويتسرب تحت الارض ، وكانت الاشتراكية معنى محرما ، تعاقب عليه قوانين الدولة الرسمية ، وكانت الملكية الخاصة ـ سواء منها الزراعية والصناعية ـ حقا مقدسا لا يمس ، مهما بلغ مقدار استغلالها أو وقوفها فى وجه النمو المنطلق للمجتمع ، وكانت أبواب البلاد مفتوحة على مصراعيها أمام الاستثمارات الأجنبية دون ان يتساءل أحد عن مدى التعارض بين هذه الاستثمارات وبين رغبتنا فى تنمية اقتصادنا على نحو مستقل . اما اليوم ، فان الاشتراكية والعدالة الاجتماعية هى السياسة الرسمية للدولة ، والاقتصاد الوطنى يعرف كيف يميز بين المساعدة الآتية من الأصدقاء وبين الاستغلال الذى يعوق نموه ، والملكية الخاصة قد تكشفت وظيفتها الاجتماعية ، ولم تعد تحاط بهالة القداسة التى كانت تمنع المجتمع حتى من تقليم أظافرها .

وقبل عام ١٩٥٢ كان التفكير فى الحياد ـ حتى لو كان سلبيا ـ يعد ضربا من المغامرة ، وكان فكر المعسكر الاشتراكى من الممنوعات أو المحرمات ، وكانت حركات التحرر الوطنى بعيدة عن فكرنا لأن اهتمامنا كله كان منصبا على الاحتلال المباشر الذى يجثم فى قلب أراضينا ، بل كانت مجرد الدعوة الى « السلام » تعد ـ بطريقة يأباها المنطق، ويستنكرها مجرد الاستخدام السليم للألفاظ ـ دعوة « هدامة » . واليوم ، أصبح للحياد الايجابى معسكر كامل نقف نحن على رأسه ، وتحولت هذه الايجابية ـ نتيجة لسلسلة متلاحقة من الظروف الضاغطة ـ الى فهم وادراك للطابع العدوانى للراسمالية العالمية ، وتفاهم متزايد مع المعسكر الاشتراكى ، وتضامن وثيق مع الحركات التحررية فى العالم الثالث .

هذه هى الوقائع الموضوعية . وبناء على هذه الوقائع تغير تفكيرنا وأصبحت له أسس ومحاور جديدة . ولما كانت هذه الأسس تستجيب لرغبات شعبية طاغية ، فقد أصبح الجميع يتبنون شعاراتها . ويجهرون بالدفاع عنها ، ويتقربون الى الناس عن طريقها . **ومع ذلك فان افكار الناس لم يكن من الممكن أن تتغير بنفس السرعة التى تغيرت بها الوقائع** ، ولذلك ظلت كثير من العقول



في حالة باطنها الجمود وظاهرها الثورية . ومن جهة أخرى فان المعاني والقيم الجديدة فاجأت عقولا أخرى لم تكن متأهبة لها ، أو لم تكن قد نضجت الى الحد الذى يسمح لها باستيعاب الأفكار الجديدة ، فتخبطت هذه العقول فى فهمها ، وحاول كل منها أن يفسر تلك الأفكار على طريقته الخاصة ، وعلى النحو الذى يكفل له أدنى حد ممكن من التغيير فى مفاهيمه القديمة التى لم يتعلم بعد كيف يتخلص منها .

ونستطيع أن نجد لهذا كله مثلا بالغ الدلالة ، يعبر عما نود أن نقول بوضوح كامل ، هو تفسير معني الاشتراكية فى كتب المواد القومية بالجامعات والمعاهد التعليمية المختلفة . فقد تباينت هذه التفسيرات الى أقصى حد ، وكان واضحا أن عددا غير قليل من الأذهان التى قامت بها لم تكن قد تأهبت بعد — من حيث وعيها ونضوجها الفكرى — لاستيعاب الأفكار والقيم الجديدة المرتبطة بمعنى الاشتراكية ، هذا فضلا عن قلة من الأذهان كانت تتعمد جذب الاشتراكية الى الوراء ، ووضعها قسرا فى اطار من الأفكار المتخلفة .

ولكن ، على الرغم من هذه الانحرافات الفكرية ، فقد كانت هناك حقيقة واحدة واضحة : هى ان الجميع ينادون — ولو بأطراف اللسان عند البعض — بالشعارات الاشتراكية . **وهذا يعد فى ذاته تقدما هائلا ، لأن هذا الاجماع يعكس تعلقا شديدا ، وشاملا ، من الشعب بالمعانى التى تعبر عنها هذه الشعارات ، بحيث يكون التراجع عنها فى المستقبل ضربا من المستحيلات . وفى هذا التعلق الشعبى الكامل بمبدأ الاشتراكية ، واضطرار القلة التى لا تؤمن بها ، أو لا تفهمها ، الى صياغة أفكارها فى اطار ظاهرى من هذا المبدأ ذاته — فى هذا ما يؤكد أن الوصف الصحيح لموقفنا الفكرى بعد غياب القائد هو الامتلاء ، لا الفراغ .**

ومن المؤكد أن للامتلاء مشكلاته ، ولكنها — أيا كان تعقيدها — ليست مشكلات ولدها الهزال والعقم ، كما يتصور أصحاب نظرية « الفراغ » ، وانما هى مشكلات تولدت عن الخصوبة والثراء والتنوع الفكرى ، الذى لابد ان يتميز به العصر الذى نجد أنفسنا الآن على أبوابه .

ولكن ، ما هى مشكلات هذا الامتلاء ؟ وكيف يسهم الفكر فى حلها ؟

أولى هذه المشكلات هى ، بطبيعة الحال ،مشكلة التنوع والتعدد ، التى هى جزء من تعريف « الامتلاء » ذاته . وهذه المشكلة لها ،بطبيعتها ، وجهان ، أحدهما ايجابى والآخر سلبى . أما الوجه الايجابى فهو أن التعدد والتنوع الفكرى هو فى ذاته دليل على الحيوية والخصب . ومن المؤكد أن الجو الذى تتصارع فيه الآراء وتتبارى فيما بينها ، هو نفسه الجو الذى يبلغ فيه الفكر أوج ازدهاره . ولكن هذا التعدد والتنوع لا ينبغى أن يمتد الى الأسس والمبادىء الأولى للطريق الاشتراكى ، لأن المجتمع الذى يخوض معركة البناء فى الداخل فضلا عن معاركه المصيريه ضد قوى عالميه عاتية ، لا يملك أن يستمتع بمثل هذا الترف . قد يكون التعدد الفكرى الذى يصل الى حد الاختلاف على الأسس الأولى أمرا مستحبا فى مجتمعات مستقرة بلغت من التقدم شوطا بعيدا ولكنه شىء لا يمكن تصوره فى مجتمع يتعين عليه أن يكافح ــ بامكانات محدودة ــ ضد مظاهر التخلف فى الداخل ، وضد قوى التعصب والسيطرة فى الخارج .

والمهمة الاولى ، والدقيقة ، التى تواجه الفكر فى مرحلة كهذه هى : كيف يمكن ضمان الحريه التى تكفل للآراء المنوعة المتعددة حرية التعبير عن نفسها ، دون عدوان على المبادىء الرئيسيه الاشتراكية أو ارتداد عنها ؟ او بعبارة أخرى : كيف يمكن التوفيق بين مطلبى الحرية الفكرية والالتزام الحيوى بالاشتراكية؟ ان البحث عن الصيغة التى تفى بهذين المطلبين معا ، ووضعها موضع التنفيذ ، هو فى رأيى التحدى الكبير الذى يواجه المفكر فى الفترة التى تقف بلادنا على مشارفها .

***

والمشكلة الثانية ، التى أشرنا اليها ضمنا من قبل ، هى **ان الفكر ــ فى عهد التغير الاجتماعى السريع ، ما بين ١٩٥٢ حتى وقتنا الحاضر ــ لم يكن هو الذى يصنع الحوادث ، بل كانت الحوادث هى التى تصنعه .**

وكثيرا ما كان المفكرون ، وهم يلهثون وراء الأحداث السريعة ، يكتفون بتقديم عرض أو تبرير نظرى لها « بعد » ان تكون قد حدثت . ولما كان الواقع لا يعبأ كثيرا بالتنظير الذى يحدث لاحقا ومبررا له فحسب ، فان مجرى الواقع كثيرا ما كان يفاجىء هذا النوع من التنظير بتطورات غير متوقعة تدفعه الى مراجعة مواقفه السابقة بصورة قد تصل الى حد التناقض الصريح معها .

مثل هذا التغير السريع للأحداث ، الذى يأخذ الفكر على غرة ولا يدع له أية فرصة الا لملاحقته فحسب ، لا ينتظر أن يكون طابع المرحلة القادمة . **ذلك لأن التحدى الذى يفوق كل ما عداه أهمية ، فى هذه المرحلة ، هو مواجهة مؤامرات دعاة الارتداد والتراجع أولا ، ثم الانتقال بالمبادىء الجديدة من مرحلة الدعوة النظرية الى مرحلة التطبيق العملى .**

ان أحدا لن ينكر أن تلاحق الأحداث ، فى الفترة السابقة ، لم يدع لمجتمعنا فرصة كبيرة لتطبيق المبادىء التى اهتدى اليها حديثا . وكانت المؤامرات والمعارك الخارجية هى العامل الأول الذى أدى بنا الى تكريس القدر الأكبر من جهودنا من أجل طرح المبادىء نفسها ، ووضع أسس التغيير الذى تستلزمه ، أما اخراج هذه المبادىء الى حيز التنفيذ الكامل فلم يكن الوقت يتسع له ، ولم تكن الظروف تسمح به . **ولا جدال فى أن العبء الأكبر على عاتق الفكر ، فى المرحلة القادمة ، سيكون تطبيقا أكثر منه نظريا .** صحيح ان الدفاع النظرى عن المبادىء الجديدة ، وعلى رأسها الاشتراكية ، ضد محاولات الارتداد سوف يقتضى جهدا غير قليل ، ولكن **المهمة الكبرى ستكون تحويل هذه المبادىء من شعارات** نظرية الى تغييرات عملية تدخل كل بيت ، وتؤثر **فى كل انسان .**

وستظهر عندئذ مشكلات جديدة تتعلق بكيفية ستكون لها أهمية عظمى فى تحديد الطابع الذى تتخذه حياة الناس .



على ان انعبء الأكبر الذى يقع على عاتق الفكر فى المرحلة القادمة هو — فى رأيى — أن يسهم بكل ما أوتى من قوة فى تحديد الهدف الذى ينبغى أن نتجه الى تحقيقه فى هذه المرحلة . **ذلك لأن قدرا كبيرا من نجاحنا او اخفاقنا يتوقف على قدرتنا على تكييف وسائلنا وفقا لأهدافنا وترتيب هذه الاهداف ذاتها بحيث لا يطغى هـــدف ثانوى الأهمية على الأهداف الرئيسية .**

ولقد انعقد الاجتماع فى بلادنا — عن حق — على أن هدف المعركة ، وما تقتضيه من متطلبات هو الغاية الكبرى التى ينبغى أن تتجه كل وسائلنا وامكاناتنا الى تحقيقها منذ يونية ١٩٦٧ . ومن المؤكد ان للفكر دورا لا يستهان به فى تحـديد أبعاد هذه المعركة وطبيعتها ، وفى تعبئة الأذهان — عن اقتناع ، لا بدافع العاطفة الفوارة — من أجل فهم الطابع المصيرى لهذه المعركة ، والنتـــائج القريبة والبعيدة التى لا بد أن تترتب عليها .

ومع ذلك ففى اعتقادى أن الفكر لن يكون قد أدى رسالته كاملة ، فى المرحلة العصيبة التى تنتظرنا ، الا اذا أكد أن تحقيق متطلبات المعركة ينبغى أن تسير جنبــا الى جنب مع ضرورات النمو التى تلح على كل مجتمعات العالم ، وعلى مجتمعنا بوجه خاص .

ذلك لأن من أغراض العدو الرئيسية من عدوانه الأخير على بلادنا ، أن يعوق نمونا حضاريا وعلميا واقتصاديا . بل انى لأعتقد أن ايقاف نمونا فى هذه المجالات هو غرضه الأول والأهم ، وأن كل المظاهر السياسية والعسكرية للصراع الحـالى بيننا وبين الصهيونية والامبريالية انمـــا هى وسائل لتحقيق هذه الغاية الكبرى . فالهـدف النهائى للامبرياليه هو أن يظل العرب فى حـالة من التخلف لا تسمح لهم فى يوم من الأيام ، أن يستثمروا مواردهم بأنفسهم ، والهدف النهائى الصهيونية هو أن تعيش اسرائيل — كما يزعمون — جزيرة من التقدم وسط بحـر من التخلف . وربما كان الهدف من اطالة امد المعركة ، وتركها معلقة دون نتيجة حاسمة ، هو أن تستمر الى أطول مدى ممكن تلك الأوضاع التى تعمل على ايقاف نمو البلاد العربية ، فى الوقت الذى تعتقد فيه اسرائيل انها تمضى ، بفضل مساعدة القوى الامبريالية ، فى ملاحقة ركب التقدم العالمى . هذا هو الحلم الأكبر لاسرائيل ، الذى يتضـاءل الى جواره أى حلم آخر ، وفى سـبيل تحقيق هذا الحلم تعمل اسرائيل ، والقـــوى التى تساندها ، على استنزاف مواردنا الى أقصى حد ممكن ، حتى لا نتفرغ لمطالب النمو والتقدم .

ولو تأملنا الأهداف البعيدة التى ترمى اليها اسرائيل ومؤيدوها ، من وجودها فى المنطقـة ،

لتبين لنا أن الهدف الحضارى والاقتصادى هو الهدف الأبعد مدى ، بل هو الذى تخدمه كل أهدافها الاخرى . فالتوسع بقوة السلاح لا يهدف آخر الأمر الا الى تمهيد الطريق امام اسرائيل ، كيما تصبح - كما يحلم قادتها الحاليون ، وكما كان يحلم مؤسسوها الأوائل - « منارة » للحضارة فى المنطقة كلها ، وكيما تغمر منتجاتها أسواق هذه المنطقة دون أن يتمكن أى بلد آخر من منافستها . هذا هو الهدف النهائى ، البعيد المدى ، الذى تخدمه كل الأهداف القريبة ، كالتفوق العسكرى ، والانتصار السياسى ، والحصول قسرا على اعتراف العرب بها .

ذلك لأن هذه الأهداف الأخيرة كلها لن يكون لها جدوى ، ولا تستحق العناء الذى يبذل فى سبيل بلوغها ، ما لم تكن تمهد فى الوقت ذاته لبلوغ تلك الغاية الكبرى .

على أن هذه الغاية البعيدة المدى تفترض توقف نمو البلاد العربية . **وفى مقابل ذلك فان السعى الجاد الى مواصلة هذا النمو والارتفاع بمعدله ، برغم كل العوائق والصعوبات ، كفيل بأن يفوت على اسرائيل وأنصارها كل ما يقومون من اجله بمؤامراتهم ومغامراتهم .**

ومن هنا فان الاهتمام بأهداف التقدم الاجتماعى والثقافى والاقتصادى ينبغى أن يشغل ، فى أذهاننا ، مكانة لا تقل عن اهتمامنا بالمتطلبات المباشرة للمعركة . **بل ان بين الاثنين ارتباطا وثيقا ، وربما كانا معا وجهين لصراع واحد ، بحيث يستحيل الانتصار فى هذا الصراع اذا تركزت جهودنا على أحد هذين الوجهين وتجاهلت الآخر .**

على أن القول أيسر كثيرا من العمل . وهناك بالفعل صعوبات حقيقية تفرضها علينا طبيعة المعركة الطويلة التى يتعين علينا أن نخوضها ، وتجعل المضى فى طريق النمو دون توقف هدفا بالغ التعقيد . **ومع ذلك فان أقدس واجبات الفكر فى المرحلة القادمة هو ، أولا ، ان يقنع الاذهان بالتداخل الوثيق بين هدف الانتصار فى المعركة وهدف مواصلة النمو فى المجالات الحيوية دون توقف ، وأن يعمل ، بعد ذلك ، على البحث عن أفضل صيغة ممكنة لحل هذه المعادلة البالغة الصعوبة : الا وهى حشد الجهود من أجل معركة المصير من جهة ، وعدم أعطاء العدو فرصته الذهبية التى يحلم فيها بتوقف نمونا من جهة أخرى .**

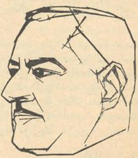
فؤاد زكريا

مفهوم الثورة فى « فكر »
عبد الناصر

لعل من أعمق « معانى » الموت – والموت لايكتسب كل « دلالته » الا على أيدى الأبطال معنى « التحقق » او « الاكتمال » • والواقع ان حياه البطل – مثلها فى ذلك كمثل العمل الفنى – حياة تاريخية فردية ، ارتبطت بزمان معين ، أو حقبة محددة ، فهى لابد من أن تكتمل فى تاريخ معين ، أو لحظة محددة • « وحينما يموت الفنان، فان عمله الفنى لا يلبث أن يكتمل ، لأنه عندئذ – وعندئذ فقط – يكتسب قيمته ، ويتخذ موضعه فى صميم التاريخ • وما أشبه حياتنا باناء مرن غير مكتمل ، نظل نحوره ، ونعدله ، ونشكله ، حتى آخر لحظة من لحظات حياتنا • فاذا ما دهمنا الموت ، أصبح فى وسع الآخرين أن يتحدثوا عن « صورة » ذلك الاناء ، أو « قيمة » تلك الحياة ، أو « معنى » ذلك الوجود • »



ولقد قضى عبد الناصر – بعد أن ظل يحاول قرابة عشرين عاما تحقيق رسالته الفكرية فى مجتمعنا العربى المعاصر – فأصبح فى وسعنا اليوم أن نتبين معالم « الصورة » التى أراد رسمها لهذا الوطن العربى الكبير • واذا كان **عبد الناصر** قد أصبح الآن فى ذمة التاريخ، فلعل ذلك مما يجعلنا أقدر – اليوم – على النفاذ الى صميم فكره ، والتعرف على جوهر « أيديولوجيته » • ونحن لاننكر أن **عبد الناصر** لم يكن فيلسوفا أو صاحب مذهب ، ولكننا نعتقد أنه كان مفكرا أو صاحب مبدأ • وما كان فى استطاعة **جمال** أن يعبىء كل طاقات هذا المجتمع الكبير لمواجهة قوى الاستعمار



إن العبء الأكبر الذى يقع على عاتق الفكر فى المرحلة القادمة هو - فى رأيى أن يسهم بكل ما أوتى من قوة فى تحديد الهدف الذى ينبغى أن نتجه إلى تحقيقه فى هذه المرحلة .

د . زكريا ابراهيم

والامبريالية، أو لمقاومة عوامل التخلف والرجعية، لو لم يكن لديه « اطار فكرى » صدر عنه ، واستند اليه ، فى كل تحركاته السياسية والقيادية . وقد أظهرتنا التجربة على أن هذا الاطار الفكرى لم يكن - عند عبد الناصر - اطارا مذهبيا جامدا ، بل كان « خطة عمل » اتسمت بالمرونة والدينامية . صحيح أن هذا « الاطار » قد انطوى على مجموعة من «الثوابت والمتغيرات» ، وصحيح أيضا أن ثمة « أفكارا موجهة » قد بقيت فى العقيدة الناصرية مبادىء أساسية لاتقبل التغيير ، ولكن من المؤكد أن الاطار الفكرى **لعبد الناصر** لم يكن فى يوم من الأيام مجرد عقيدة مذهبية جامدة ، أو مجرد نسق فلسفى صارم . ولعل هذا هو السبب فى أن **عبد الناصر** لم يجد أدنى حرج - فى مناسبات متعددة - من تطوير شعاراته ، وتكييف تصوراته السياسية ، على ضوء ما كان يستجد من خبرات ، وما كان يصل اليه من نتائج . وليس يعيب المفكر السياسى أن يتخذ من « التجربة » محكا للتثبت من صحة أفكاره ، أو التحقق من صحة مبادئه : فان كبار المفكرين السياسيين كانوا على استعداد دائما لتصحيح النظر بالعمل ، وتنقيح « المبدأ » على ضوء الواقع التطبيقى . وقد شهد مجتمعنا العربى المعاصر - فى عهد **جمال عبد الناصر** - سلسلة متعاقبة من الشعارات ، ولكنها لم تكن مجرد لافتات ترتفع الواحدة منها مكان الأخرى ، وانما كانت نتائج ومحصلات ، ترتبت كل منها على

مقدمات ومحاولات ! وقد يتمكن مؤرخو الفكر العربى المعاصر - فى مستقبل قريب أو بعيد - من تحديد الخطوات المتعاقبة التى مر بها تاريخ الفكر السياسى لدى **جمال عبد الناصر** ، وحصر مجموعة « المتغيرات » التى انطوى عليها هذا الفكر فى تطوره الدينامى المستمر ، ولكننا قد لا نجد صعوبة كبرى - نحن الذين عاصرنا هذا الفكر - فى رسم الخطوط العامة لهذا الفكر ، وحصر « الثوابت » الأساسية التى قام عليها . ومن هنا فاننا قد لانغامر بمخاطرة فكرية كبرى ، لو أننا حاولنا الاهتداء الى السمات العامة لمفهوم «الثورة» فى فكر **الزعيم جمال عبد الناصر**.

« الثورة » - أولا - « فلسفة رفض » ...

وهنا نجد أن السمة الأولى التى اتسمت بها فلسفة الثورة - عند جمال عبد الناصر - أنها كانت منذ البداية (وحتى فى صورها المتطورة) « **فلسفة رفض** » . ولم يكن « **الرفض** » فى هذه الفلسفة مجرد « سلب » أو « انكار » ، وانما كان فى الوقت نفسه دعوة الى « الانتفاض » و « الفعل الايجابى » . وقد كان من الضرورى لحركة « الرفض » أن تتجه - بادىء ذى بدء - نحو « الماضى » الأليم ، بكل ما كان يزخر به من مظاهر الفساد والاستعباد والاستغلال . ولا شك أن العفن السياسى الذى وصلت اليه الأحزاب السياسية فى عهد ما قبل الثورة قد عمل على



تنشيط حركة «الرفض» فى أذهان الشباب الثائر المتمرد . ولم يكن « الرفض » الذى نادى به جمال عبد الناصر تعبيرا انفعاليا عن سخط شاب متحمس ، بل كان تصورا عقليا حاول أن يصوغه على شكل مبدأ سياسى . وأنت حين « ترفض » تركة ماضية مثقلة بأحمال العبودية والرجعية والانحطاط ، فانك لا تواجه « الماضى » كله بكلمة « **لا** » فحسب ، بل انك تريد فى الوقت ذاته أن تعلن انفصالك عن ذلك « **العهد اللا ـ انسانى** » الذى طالما رزح تحته مجتمعك دون أن يجد الفرصة للتعبير عن سخطه أو تمرده . فالرفض هنا هو الخطوة الأولى على درب التحرر : لأنه اعلان عن استحالة السكوت على جرائم الماضى ، وضرورة شن حرب شاملة على شتى مظاهر الفساد الاجتماعى والسياسى . والمفكر الذى ينادى بالرفض ـ فيما يرى صاحب فلسفة الثورة ـ انسان واع يدرك أن المجتمع الحالى ملىء بالمتناقضات ، وأنه لابد من القضاء على تلك المتناقضات ، عن طريق العمل السياسى والجماعى والتاريخى ، حتى يكون فى الامكان هدم المجتمع القديم ، واقامة مجتمع آخر جديد على أنقاضه . ولعل هذا هو السبب فى أن « فلسفة الثورة » عند عبد الناصر ـ قد اتخذت منذ البداية طابع « فلسفة انسانية ايجابية » لاتقف عند نقد الماضى والتمرد عليه ، بل تحاول الامتداد نحو المستقبل من أجل تغيير المجتمع الفاسد الحافل بشتى مظاهر « اللا ـ انسانية » .

وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول ان « الرفض » الذى أعلنه عبد الناصر قد اتجه أولا وبالذات نحو الأوضاع السياسية والحزبية التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى ابان عهد الملكية الفاسدة ، ولكنه لم يلبث أن تحول نحو الاوضاع الاجتماعية والطبقية التى كانت تكمن وراء كل ذلك التنظيم السياسى . والمتتبع لحركة الثورة الناصرية فى مصر يعرف كيف ظهرت ـ فى المرحلة الأولى من مراحل هذه الثورة ـ محاولات عديدة للابقاء على نظام الأحزاب ، أو التهادن مع القوى الرجعية ، ولكن عبد الناصر كان « يرفض » كل هذه المحاولات ، لأنه لم يكن يؤمن بامكان تحقيق أية صورة من صور « التصالح » بين « الثورة » و « قوى الرجعية » (أو القوى المضادة للثورة) . وقد عادت هذه المحاولات الى الظهور ـ أكثر من مرة ـ فى عهد زعيمنا الراحل ، ولكنه

كان يواجهها دائما بكلمة « لا » ، دون أدنى رحمة أو هوادة • ولم يقتصر « الرفض » عند جمال عبد الناصر على اعلان استحالة التهادن مع الأحزاب الرجعية والقوى المناوئة للثورة ، بل هو قد امتد أيضا الى الحملة على دعاة السلبية ، والانهزامية ، وشتى أصحاب الدعوات اليائسة المثبطة للهمم • وكثيرا ما كانت تلوح فى الأفق عروض مغرية تحمل معانى الرفاهية والرغد والرخاء ، ولكن على حساب الشرف والكرامة والحرية ، فلم تكن تلقى من جمال عبد الناصر سوى الرفض الحاسم الحازم ! وهكذا كانت « فلسفة الثورة » - فى كل مراحل تطورها - « **فلسفة رفض** » لاتعرف المهادنة أو التذبذب ،ولا تقبل التوسط أو أنصاف الحلول !

والثورة - ثانيا - « فلسفة حرية » ••

وأما السمة الثانية التى اتسمت بها « فلسفة الثورة » - عند عبد الناصر - فهى « الحرية » أو « التحرر » • وقد ربط الفكر الناصرى مفهوم « الحرية » بمفهوم « الرفض » ، فرأى فى عملية « الرفض » الخطوة الأولى على درب التحرر ، وذهب الى أن العبد الحقيقى هو ذلك الانسان الذى لا يرى قيوده، أو هو - على الأصح - ذلك المخلوق الذليل الذى لا يفكر حتى ولا فى التمرد على عبوديته ! ولسنا نجد فى « فلسفة الثورة » تحديدا دقيقا لمفهوم « الحرية » ، ولكننا نجد ميلا واضحا نحو ربط الحرية بالمعرفة من جهة ، وربطها بالفعل أو العمل من جهة أخرى • فالحرية الحقيقية - أولا - حرية عارفة تهتم بالوقوف على طبائع الأشياء ، ثم هى - ثانيا - حرية عاملة تحرص على تغيير العالم • وليس الفعل الحر تصرفا أعمى يصدر عن تعسف أو اندفاع أو هوى أو ارادة هوجاء ، بل هو نشاط واع ينبعث عن فهم ، وتدبر ، وحكم عقلى ، وتعقل للأمور • ومعنى هذا أن « الحرية » تعبير عن السيادة الانسانية : لأنها مظهر من مظاهر سيطرة الانسان على نفسه ، وتحكمه فى العالم الخارجى •

بيد أن الفكر الناصرى يربط الحرية بالسياق التاريخى والاجتماعى ، فيؤكد أنه لا قيام للحرية الا فى مجتمع اشتراكى تسوده المساواة والعدالة وتكافؤ الفرص • وليس المجتمع الحر مجتمعا بلا قوانين - كما وقع فى ظن بعض الحالمين - بل هو المجتمع المنظم الذى لايكون فيه أى فرد مستعبدا لأى فرد آخر • وأما حين يكون فى المجتمع قوى وضعيف ، فلن تكون الحرية الا أداة للجور والطغيان ، ولن يكون المجتمع نفسه الا مجتمعا فوضويا يسحق قويه ضعيفه • وليس فى التفكير السياسى الناصرى أى موضع لمثل هذه الفوضوية: فان «الحرية» - فى فلسفة الثورة - وثيقة الصلة بـ « السلطة » ؛ و « القانون » عندها أداة للتحرير والتنظيم • ولكن الحرية الناصرية - مثلها فى ذلك كمثل الحرية الماركسية - عملية مستمرة يحقق من خلالها الانسان انتصاره على العبودية الاجتماعية • فنحن هنا بازاء مشكلة اجتماعية واقعية تخص ذلك الموجود التاريخى الذى ظل يرزح تحت نير الاستغلال الطبقى آمادا طويلة من الزمن ، دون أن يتمكن من التمرد على قيوده الاقتصادية والاجتماعية والسياسية • ومن هنا فقد لانجانب الصواب اذا قلنا ان لمفهوم « الحرية » - فى الفكر الناصرى - دلالة اجتماعية أو معنى طبقيا : لأن الحرية البشرية الحقيقية لاتتحقق الا من خلال الصراع الطبقى • وحينما دعا عبد الناصر الانسان العربى الى التحرر ، فانه لم يكن يعنى بذلك سوى دعوته الى التخلص من شتى ضروب الاستعباد • وقد كان الهدف النهائى للثورة الناصرية هو أن تعيد الى الانسانالعربى انسانيته، وحريته ، وكرامته ، ومن ثم فقد عمل عبد الناصر على اشعار المواطن العربى بحقيقة وضعه الاجتماعى فى التاريخ ، كما اهتم فى الوقت نفسه بتزويده بالوعى اللازم لادراكالحركة التاريخية التى ينتسب اليها • ومهما يكن من أمر الصعوبات التى اصطدمت بها المحاولات المتكررة لتطبيق هذه « الفلسفة الاجتماعية التحررية » ، فان الذى لا شك فيه أن طريقالحرية قد بقى عند عبد الناصر طريقا عسيرا مليئا بالتزامات العمل • وقد كان عبد الناصر نفسه على وعى تام بالمآزق والمزالق التى تكتنفطريق الحرية (خصوصا فيما يتعلق بتحديد الخيط الرفيع الذى يفصل الحرية الفردية عن التنظيم الاجتماعى وضرورة المحافظة على الأمن العام)، ولكنه لم يكن ينظر الى الحرية على المستوى الفردى أو الذاتى الصرف (وكأنها مسألة شخصية لا تهم الا الذات وحدها) ، بل كان ينظر اليها على انها حركة اجتماعية يشاركالمرء من خلالها بطريقة ثورية فى صنع التاريخ •

« والثورة » - ثالثا - « فلسفة عمل » •••

اذا كانت « فلسفة الثورة » هى « فلسفة حرية » ، فانها لابد بالتالى من أن تكون أيضا

« فلسفة عمل » . والواقع أن « التحرر » — في رأي عبد الناصر — لا يمكن أن يتحقق الا في اطار « العمل الاجتماعي » القائم على الجهاد المشترك . واذا كان ثمة كلمة قد جرت على قلم عبد الناصر عشرات المرات — في كتابه « **فلسفة الثورة** » — فتلك هي كلمة « **العمل** » ، ولم يكن من قبيل الصدفة أن يصبح « العمل » شعارا أساسيا من شعارات الثورة ، فقد ظلت « **قيمة العمل** » — بوصفها احدى القيم الأخلاقية الكبرى في المجتمع الاشتراكي — قيمة مجهولة تماما لدى أبناء هذه الأمة ، حتى في بداية عهد الثورة . ولعل هذا ما عبر عنه عبد الناصر نفسه حين كتب يقول : « لقد كنا في حاجة الى العمل ، فلم نجد وراءنا الا الخنوع والتكاسل » . وكان لابد للرائد العربي الكبير من أن يبرز أهمية تلك القيمة الأخلاقية (باعتبارها عنصرا أساسيا من مقومات الثورة) ، فكان أن ابتدر أساتذة الجامعات بقوله : « ان كل فرد منا يستطيع في مكانه أن يصنع معجزة . ان واجبه الأول أن يعطى كل جهده **لعمله** ، ولو أنكم — كأساتذة جامعات — فكرتم في طلبتكم ، وجعلتموهم — كما يجب — عملكم الأساسي ، لاستطعتم أن تعطونا قوى هائلة لبناء الوطن . ان كل واحد منا يجب أن يبقى في مكانه ، ويبذل كل جهده » . (فلسفة الثورة ، الجزء الأول ، ص ٢١) . وواضح من هذه العبارات أن «العمل» الذي كان عبد الناصر يدعو اليه ، ويشيد به ، انما هو العمل « المتخصص » الذي يضطلع به كل فرد في مكانه الخاص ، محققا عن طريقه «الدور» الذي عهد اليه القيام به.

واذا كنا نجد عبد الناصر يقرن كلمة «العمل» — في كثير من الاحيان — بكلمة الايجابية ، فذلك لأن العمل الايجابي — في نظره — ليس هو النشاط الحماسي القائم على الخيال المشتعل ، بل هو السلوك الرزين القائم على التقدير الحكيم .. فليس العمل اندفاعا أهوج يستند الى الاهواء والانفعالات ، بل هو تخطيط علمي يقوم على التفكير والتدبير — وحين يحدثنا عبد الناصر عن العمل السياسي الذي كان يريد النهوض به (مع باقي أخوانه من القادة الاحرار في مطلع الثورة) فانه يقول : « لقد تبدو كلمة العمل الايجابي على الورق كافية لحل المشكلة ، ولكنها في الحياة ، وفي الظروف العسيرة التي عاشها جيلنا ، وفي المحن التي كانت تنشب أظافرها في مقدرات وطننا لم تكن كافية » ! ويستطرد الزعيم القائد جمال عبد الناصر فيقول انه لم يكن في أعماقه مستريحا الى تصور العنف على أنه العمل الايجابي ، لان الثورة الحقيقية عمل انساني لا يخضبه الدم ، وبناء اجتماعي لايقوم على أشلاء الضحايا من الخصوم والأعداء ! ومن هنا فقد تحولت فكرة « الثورة » الى سؤالين رئيسيين : « أولهما : ما الذي نريد أن نصنعه ؟ ، والثاني : ما هو طريقنا اليه ؟ » وراح عبد الناصر يحدد معالم الطريق ، ويرسم السبيل الى ارساء دعائم الحرية السياسية والاقتصادية ، واثقا — سلفا — من أن المهمة لن تكون سهلة ، وأن مخاطبة عقول الناس (لا غرائزهم أو عواطفهم) لن تكون أمرا هينا . وهكذا استحالت « الثورة » الى « عمل ايجابي » ، ولم يعد المهم هو الهاب مشاعر الجماهير ، بل اقناع عقولهم بضرورة المساهمة في بناء صرح المجتمع الجديد . ولم يلبث عبد الناصر أن ربط مفهوم « الثورة » بمفهوم « القوة » (القوة المبنية على العمل المنظم والحساب الدقيق) فراح يقول : « واذن فنحن أقوياء ... أقوياء ليس في علو صوتنا حين نولول ، ولا حين نصرخ ، ولا حين نستغيث ؛ وانما أقوياء حين نهدأ ونحسب بالأرقام مدى **قدرتنا على العمل** ... » (الجزء الثالث ، ص ٧٥) . ومنذ ذلك الحين أصبحت « القوة » علما على الفلسفة الناصرية باعتبارها « فلسفة عمل ايجابي » من جهة ، و « ارادة تغيير » من جهة أخرى .

و « الثورة » — رابعا — « فلسفة قوة » ...

وهنا نصل الى السمة الرابعة من سمات « الثورة » : ألا وهي أنها «فلسفة قوة» . وليست «القوة» التي ينادي بها عبد الناصر هي قوة العنف

والبطش والارهاب ، بل هي قوة البناء والتخطيط وارادة التغيير • وقد سبق لنا أن رأينا كيف ثار عبد الناصر على أساليب العنف والاقتتال الدموي والاغتيال السياسي ، وكيف ذهب الى استحالة قيام حكم سياسي عادل على دعائم من الرعب والخوف والارهاب المستمر ! (« فلسفة الثورة » الجزء الثاني، ص ٣٨) • وربما كان الحدس الأصلي الذي انبثق عنه كل الفكر الناصري هو هذا الاحساس « **بالقوة** » لدى الانسان العربي • وفي هذا يقول عبد الناصر قولته المأثورة: » اننا نخطئ في تعريف القوة : فليست القوة أن تصرخ بصوت عال ؛ انما القوة أن تتصرف ايجابيا ، بكل ما تملك من مقوماتها • » (الجزء الثالث ، ص ٧٢) • وعلى الرغم من أن الانسان العربي قد ظل حينا طويلا من الزمن يجهل مدى قوته الا أن لديه من عناصر القوة ما يؤهله للقيام بدور قيادي هائل في العالم الثالث الذي يعيش فيه • وقد حصر عبد الناصر مصادر قوتنا في عوامل ثلاثة : **أولها** أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة المترابطة بروابط مادية ، ومعنوية ، ودينية ، وقومية ، وحضارية ، ففي استطاعتنا أن نسهم في بناء عالم مستقر يسوده السلام ؛ **وثانيها** أن أرضنا تحتل مكانا هاما على خريطة العالم • بموقعها الاستراتيجي الخطير ، ولكنها ملتقى طرق العالم ، ومعبر تجارته ، وممر جيوشه ، **وثالثها :** أننا نمتلك حصة ضخمة من البترول الذي هو عصب الحضارة المادية الحديثة.

واذن فان مصدر «**قوتنا**» ــ في رأي عبد الناصر ــ انما يكمن في « **قوة الرابطة** » التي تجمع بيننا؛ وهي تلك الرابطة التي تجعل من أرضنا منطقة واحدة لايمكن عزل جزء منها عن باقي الأجزاء الاخرى• ومعنى هذا أن ضعف العالم العربي راجع الى انغلاقه ،وانعزاله ،وانقسامه، وسكونه ،في حين أن قوته رهن بتفتحه وتجمعه ، وتوحده ، وحركته • وليست « القوة » التي ينادي بها عبد الناصر « حالة سكونية » تستند الى ظاهرة « التوازن » « والاستقرار » ، بل هي « حالة حركية » تقوم على ظاهرة التحول « والارتقاء » • ولم يكن عبد الناصر غافلا عن أهمية النظام والاستقرار السياسي في حياة الشعوب ، ولكنه كان حريصا على ابراز دور الحركة الثورية والدينامية السياسية في تطوير المجتمعات • ومن هنا فقد اقترنت « فلسفة الثورة » ــ في نظره ــ بطائفة من المحركات الاجتماعية والسياسية الهامة مثل : ارادة القوة ، ودينامية العمل الانتاجي ، وارادة التغيير • وقد يختلف عبد الناصر مع بعض المفكرين السياسيين المعاصرين حول دور كل من «الثورة» و «النظام» في تسيير الجهاز الاجتماعي ، ولكن من المؤكد أنه قد يتفق مع الغالبية العظمى منهم حول ضرورة العمل على تجنب أسباب الركود الاجتماعي والجمود السياسي • وليس من شك في أن مجرد حرص عبد الناصر على التمسك بمفهوم « الثورة » ، قد كان هو نفسه شاهدا على ايمانه العميق بضرورة اقامة النظام الاجتماعي (والسياسي) على « **توازن حركي** » (أو دينامي) • فلم تكن « الثورة » ــ منذ البداية ــ في ذهن الرائد العربي الكبير ، مجرد تعبير عن « التمرد »، بل كانت مظهرا لتلك « القوة » العربية التي توسمت في نفسها القدرة على تغيير مجتمعها ، وتطوير أسباب حياتها • وهكذا كانت « فلسفة الثورة » دعوة سلمية تهدف الى الحرية ، والتقدم، والتعايش السلمي ، دون أن تغفل أهمية عناصر القوة ، والاتحاد ، والتفاعل الزماني والمكاني • وهذا يقودنا الى الحديث عن سمة أخرى من سمات « فلسفة الثورة » ، ألا وهي سمة « الانفتاحية » •

••• و «الثورة» ــ خامسا ــ «فلسفة انفتاح» •••

ولو أننا تساءلنا الآن عن معنى كلمة «انفتاح»، لوجدنا أننا نعني بهذا الاصطلاح ما أطلق عليه عبد الناصر «تفاعل الزمان والمكان» • و «الثورة» ــ كما فهمها الزعيم الراحل ــ « فلسفة انفتاح » : لأنها رفض لكل صور العزلة ، سواء أكان ذلك في الزمان أم في المكان • فالحاضر ثمرة للماضي من جهة ، وحركة نحو المستقبل من جهة أخرى • ونحن حين ننظر الى « الماضي » بعين الاعتبار ، أو حين نتطلع الى « المستقبل » بروح الأمل ، فاننا في كلتا الحالتين نسلم بأن « الحاضر » مفتوح على

الماضى ، ومفتوح على المستقبل . وهذا « الانفتاح الزمانى » لا ينفصل عن « الانفتاح المكانى » : لأن العالم كله قد أصبح فى الوقت الحاضر دائرة واحدة متماسكة ، دون أن يكون فى امكان بلد ما أن يغلق على نفسه الأبواب ، وكأنه يحيا مستقلا عن باقى أجزاء العالم ! وهذا ما عبر عنه عبد الناصر بقوله: « إن قال لى أحد ان المكان الذى نشغله هو هذه العاصمة التى نعيش فيها ، فاننى أختلف معه . وان قال لى أحد ان المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنا السياسية فانى أيضا اختلف معه . ولو كان الأمر كله محصورا فى حدود بلادنا السياسية لهان الأمر ، ولأقفلنا على أنفسنا الأبواب ، وعشنا فى برج عاجى ، نحاول أن نبتعد به بقدر المستطاع عن العالم ومشاكله ، وأزماته : تلك التى تقتحم بلادنا وتؤثر فيها دون أن يكون لنا فيها دخل أو نصيب . » (« فلسفة الثورة » ، الجزء الثالث ، ص ٥٥) . ثم يستطرد عبد الناصر فيقول : «غير أن عهد العزلة قد مضى ... ولم يعد مفر أمام كل بلد من أن يدير البصر حوله خارج حدوده ، ليعلم من أين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره، وكيف ... وكيف ... ولم يعد مفر أمام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها فى المكان ، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه ، وما هو مجالها الحيوى ، وميدان نشاطها ، ودورها الايجابى فى هذا العالم المضطرب » . (ص ٥٥ – ٥٦) .

وقد طبق عبد الناصر نظريته فى الانفتاح (أو تفاعل الزمان والمكان) على وطننا العربى ، فلم يلبث أن تحقق من أنه لابد لنا من أن نتحرك فى دوائر **ثلاث** : أولا هى العالم العربى ، والعالم الاسلامى ، والعالم الافريقى . وكانت حجته فى ذلك أن موقعنا الجغرافى نفسه يلزمنا بالتحرك فى هذه المجالات الثلاثة ، دون أن يكون فى وسعنا اغفال أحد هذه المجالات لحساب المجالين الآخرين. والا ، « فهل يمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها: امتزج تاريخنا بها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا ، لا مجرد كلام ؟ أو هل يمكن أن نتجاهل أن هناك قارة افريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها ، وشاء أيضا أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تنعكس آثاره علينا ، سواء أردنا أو لم نرد ؟ وهل يمكن أن نتجاهل أن هناك عالما اسلاميا تجمعنا واياه روابط لاتقر بها العقيدة الدينية فحسب ، وانما



تشدها حقائق التاريخ ؟ » (ص ٥٦ ـ ٥٧) ٠ ومن هنا فقد هبت الجمهورية العربية المتحدة ـ فى عهد عبد الناصر ـ لمناصرة ثـورة الجزائر ، وحركة التحرير فى الكونغو ، والحركة الجمهورية فى اليمن ، وثورة اتحاد الجنوب العربى ، وشتى الحركات الوطنية فى الصـــومال ، والعــراق ، والسودان ، ونيجيريا ، وليبيا ، وجنوب افريقية، وروديسيا ٠٠٠٠ الخ ٠ وتســـاءل الكثيرون عن مدى ارتباط مصــالحنا بمصالح **كل** تلك البلاد ، وعن مدى شرعية المساعدات التى كانت تقدمهـــا الجمهورية العربية المتحدة **لكل** تلك البلاد ، بينما بقى عبد الناصر مقتنعا تمام الاقتناع بأنه هيهات للثورة العربية أن تقوم ، لو تقاعست لحظة واحدة عن مســاندة كل الحركات الثورية والتحررية ، سواء أكان ذلك فى العالم العربى ، أم فى العالم الأفريقى ، أم فى العالم الاسلامى ٠

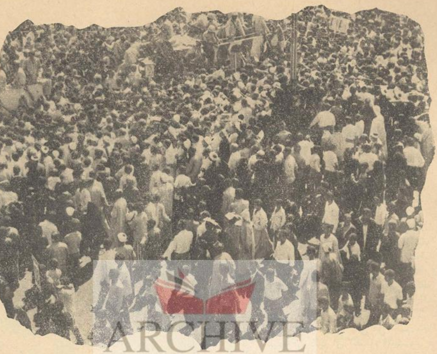
و « الثورة » ـ سادسا ـ « فلسفة تغيير » ٠٠٠

٠٠٠ واذا كنا قد رأينا أن فلسفة الثورة ـ فى نظر عبد الناصر ـ هى فلسفة رفض ، وحرية، وعمل ، وقوة ، وانفتاح ، فاننا سنرى الآن أنها أيضا « فلسفة تغيير » ٠ والواقع أن كل المقومات التى أتينا على ذكرها فيما ســلف تحمل طابع « الوسيلة » ، فى حين أن «التغيير» هو «الغاية» ٠ ونحن نعرف أن « التغيير » الذى فهمه عبد الناصر كان يعنى ـ منذ البداية ـ حركة مزدوجة : حركة تغيير سياسى من جهة ، وحركة تغيير اجتماعى من جهة أخرى ٠ وقد فطن عبد الناصر ـ منذ اللحظة الأولى ـ الى صــعوبة الجمع بين هاتين الحركتين ، فأعترف فى كتابه «فلسفة الثورة» بتعارض الثورة السياسية مع الثورة الاجتماعية ، وأقر فى الوقت نفسه بضرورة السير فى هذين الطريقين فى آن واحد ٠ (الجزء الأول ، ص ٢٣ ، وص ٢٦) ٠ ولــكن الرائد العــربى الكبير كان على وعى تــام بحتمية هاتين الثورتين، فلم يتردد لحظة واحدة فى العمل من أجل تحقيق التغيير الاجتماعى جنبآ الى جنب مع التغيير السياسى ٠ واذا كانت الشعوب التى سبقتنا ـ على طريق التقــدم البشرى ـ قد مــــرت بهاتين الثورتين على مر حلتين متعاقبتين ـ دون أن تعيشهما معا فى آن واحد ـ فان «التجربة الهائلة التى امتحن بها شــــعبنآ ـ على حد تعبير عبد الناصر ـ هى أن يعيش الثورتين معا فى وقت واحــد ٠ » (ص ٢٣) ٠ ولم تظهر الدعوة الى الاشـــــتراكية ، وتكافؤ الفرص ، والعدالة فى التوزيع ، الا حين أصـــبح « التغيير الاجتماعى » هدفا ثوريا واضحا فى ذهن صاحب « فلســـفة الثورة » ، وواضع « الميثاق » ٠

وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول أن فلسفة التخطيط قد برزت ـ فى فكر عبد الناصر ـ جنبآ الى جنب مع تلك « الفلســـفة الاجتماعية » التى كانت تهدف الى تحقيق العدالة الاجتماعية ،واعادة التوازن المفقود بين طبقات المجتمع وفئاته ٠ ولعل هذا ما عبر عنه الرئيس الراحل حين قال : « اننا نريد أن نزيد الانتاج ، ولكن أمامنا أيضا العدالة فى التوزيع ٠ فيجب أن يتجه هذا الانتـــاج ، لاليستأثر به فرد ، أو اثنان أو ثلاثة ، ولكن لكى يوزع على أكبر عدد من أبناء هذا البلد ، حتى يأخذ كل فرد فيه الفرصة المتساوية مع أخيه ، وهذا هو هدف ثورتنـــا ، وهو هدف اجتمــاعى عميق يهدف الى احداث تغيير اجتماعى شــامل ، عميق يعمل كل فرد من أفراد هذا البلد العمل الشريف ويأخــذ نتيجة عمـــله ٠ » ٠ فالثورة اذن حركة اجتماعية ترمى أولا وقبل كل شىء الى حداث تغيير جذرى هام فى صميم البنـــاء الطبقى للمجتمع : لأنها تحرص على مراعاة عدالة التوزيع ، وتحقيق رفاهية الانســـان العادى البسيط ٠ وقد كان مفهوم «التغيير» الاجتماعى ـ فى ذهن عبد الناصر ـ بمثابة تعبير عن الوحدة الأساسية التى تجمــع بين التخطيط الاقتصــــادى من جهة ، والعــــدل الاجتماعى من جهة أخرى ٠ وقد درس عبد الناصر منهج التخطيط فى الدول الناشئة ، وخلص من هــــذه الدراســـة الى ارتباط مشــــكلات التنمية والتطوير الاقتصادى ، بمشكلات التوزيع والعدالة الاجتماعية ٠ ومن هنا فقد حاول عبد الناصر ـ فى تحديده لمعالم الاشتراكية التى لابد من الأخذ بها ـ ربط التخطيط الاقتصــــادى بنظرة انســــانية تحترم عمل الانسان وجهوده ومشاركته فى زيادة الدخل القومى ٠٠٠ الخ ٠ وهكذا كان «الانسان» ـ فى كل فلســفة عبد الناصر الاجتماعية ـ هو العصب الحيوى فى كل تغيير اجتماعى ، كما كان هو حجر الزاوية فى كل تطوير اقتصادى ٠ ولا ريب ، فان الانســـــان هو العامل الرئيسى الذى يحمل عبء الانتــاج من جهة ، كما أن الهــدف النهائى الذى يرمى اليه التخطيط الاقتصادى هو تحقيق أكبر قـــدر من الرفاهية لأكبر عـــدد من الناس من جهة أخرى ٠ وقصـــارى القــول أن « الثورة » قد اقترنت ـ فى ذهن عبد الناصر ـ بمفهوم (التغيير الاجتماعى) ، مع كل ما يقترن به هذا المفهوم من معانى العدالة الاجتماعية والنظرة الانسانية الى التخطيط ٠٠٠ الخ ٠

وأخيرا : هل تكون «الثورة» (فلسفة طفرة) ؟

٠٠٠ولقد كان عبد الناصر ـ كما تشهد بذلك كل كتاباته وخطبه وتصريحاته ـ مؤمنا ٠ بحتمية التاريخ ، مقتنعا بضرورة الانتقــال على مراحل تدريجية لتحقيق أهداف الثورة ٠ ومن هنا فاننا نراه يقرر ـ فى مقدمة كتابه « فلسفة الثورة » ـ « أن قصص كفاح الشعــوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء ، وكذلك ليس فيهـا مفاجآت تقفز الى الوجود دون مقدمات ٠ ان كفاح أى شعب ـ جيلا بعد جيل ـ بناء يرتفع حجرا فوق حجر٠٠٠ وكمـا أن كل حجر فى البنــاء يتخذ من الحجر الذى تحته قاعدة يرتكز عليها ، كذلك الأحداث فى قصص كفاح الشعوب : كل حـدث منها هو نتيجة لحدث ســبقه ، وهو فى نفس الوقت مقدمة لحدث ما زال فى ضمير الغيب ٠ » (الجزء الأول ، ص ٥ ، ٦) ٠ ولكن هذا الايمان بحتمية التاريخ، وضرورة الانتقــال التدريجى ، لم يمنع الزعيم العربى الــكبير من التحدث عن « سرعة الحــركة والمبادأة ، وضرورة الســير على طريقين فى وقت واحــد ٠ » والظاهر أن عبد الناصر كان على وعى تام بضرورة مبادرة الدول المتخلفة الى التســابق مع الزمن ، من أجل العمل على الخروج من مرحلة التخلف والعبودية٠ ولعل هذا ما عبر عنه الرئيس الراحل فى خطابه التاريخى الهــام أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة (فى دورتها الخامسة عشر) حين قال : « ان الشعوب الحديثة الاستقلال تؤمن أن حريتها الحقيقية فى ايجاد مستوى من المعيشة لائق ٠ ثم ان الشعوب الحديثة الاستقلال تتعجل الطريق الى النمو الاقتصادى ، وتشعر أنها لم تعد تملك الوقت لتضيعه بعد التخلف الطويل قياسا الى غيرها ٠ وقد يكون هنــاك من يرى أن العجلة طريق الخطأ ، ولكننا اذا ســلمنا بذلك نكون قد ارتكبنا خطأ أكبر٠٠٠ هو نسيان طبيعة الظروف٠ ان طبيعة الظروف التى تعيش فى ظلالهــا الآن تجعل من الانتظار الطويل أمرا لا تتحمله الشعوب ٠٠٠ ولقد يقال لشعوبنا أن الصبر ضرورة ، وأن شعوبا غيرنا قد تحملته ٠٠٠ ولكن طاقة أى جيل على الصبر تقاس بظروف هذا الجيل لا بظروف



غيره من الأجيـــال . والذين كانوا يقدرون على الصبر مثلا حتى يقطعوا المحيط فى قارب يدفعه الريح يختلفون تماما عن الذين يقدرون على قطع المحيط فى بضع ساعات بطائرة نفاثة . »

وواضح من هذا الحديث أن عبد الناصر لم يكن يريد لمعركة الثورة مع التخلف أن تسير على الدرب الطويل البطىء ، بل كان يريد لها أن تتحقق على طريق المبادأة والحركة السريعة . وكثيرا ما كان الراحل العربى الكبير يســابق الزمن ويستبق الأحداث ، واثقا أن الانســان هو الذى يصنع التاريخ، وهو الذى يحقق مصيره لنفسه وبنفسه. ومن هنا فقد تساءل البعض عما اذا كانت «الثورة» طفرة سريعة نقفز فيها من الضرورة الى الحرية ، أو ما اذا كانت مجـــرد حركة انتقالية تتعاقب أدوارها على نحو حتمى صارم . وفات هؤلاء أن التعارض وهمى بين حتمية التاريخ من جهـة ، وضرورة المبادأة والحركة السريعة من جهة أخرى: فان الاعتقـــاد بحتمية النصر لا يثنى الناس عن القتال ، بل يدفع بهم الى مضاعفة الجهاد ! وليست « الطفرة » هدما لحتمية التاريخ ، أو خروجا على ضرورة التحول التاريخى التدريجى ، بل مسايرة لحركة التاريخ ، ومبادرة الى العمل فى الاتجـــاه الذى تؤذن به حتميـــة التـــاريخ . وقـــد كان عبد الناصر مقتنعـــا تمام الاقتنـــــاع بأن حاضرنا العربى ملىء بالمتناقضـات التى لا يمكن الوقوف عندها أو السكوت عليها ، ومن هنا فانه كان يرى فى مجـرى الزمان تحققا ثوريا لعمل ليس غـير الانسان العربى مسئولا عنه . وهل من عجب — بعد ذلك — فى أن تكون الثورة أيضا « فلســـفة طفرة » ؟ وماذا عسى ان تكون « الطفرة » ان لم تكن قفـــزة ثورية تنقلنا من عهـــد التخلف والرجعية، الى عهد التقدم والحرية؟ بل ماذا عسى أن تكون «الثورة» نفسها ان لم تكن هذا «الفعل الابداعى » الذى يضـطلع به موجود حر يدرك أهمية المبادرة والحرية السريعة ، ويعمل على خلق مجتمع انسانى تسوده العدالة ؟ .

زكريا ابراهيم

دور الممارسة في فكر عبد الناصر

كل فكر جدير بهذا الاسم ، كل فكر يمتحنه الزمن فتثبت مع الزمن صحته ، يجد أساسه كما يجد برهان صدقه فى الممارسة : فى النشاط الايجابى الذى يقوم به الانسان ، والذى يغير به تباعا وجه الطبيعة ، كما يغير تباعا المجتمع الذى يعيش فيه ، ويغير مع هذا وذاك ذاته هو .

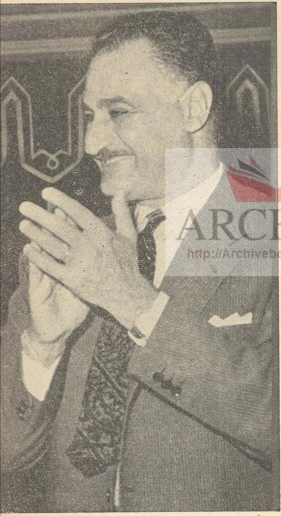
والممارسة اذن ، تعنى ذلك التفاعل المستمر بين الانسان والطبيعة ، الذى يسعى فيه الانسان الى السيطرة عليها وتطويعها لأغراضه ، ويستعين على هذا السعى بالنفاذ الى أسرارها . وهو يحول هذا النفاذ الى مقولات وفروض وقوانين ونظريات أى الى فكر ، ثم يمتحن صحة هذا الفكر من خلال المزيد من الممارسة ، الممارسة التى ترتفع عندئذ ، بفضل ما طعمت به من فكر الى مستوى أعلى مما كانت عليه من قبل . وكما تعنى الممارسة ذلك فهى تعنى أيضا ما تصطخب به الحياة الاجتماعية من دواعى الوحدة والتعاون ، أو عوامل الفرقة والصراع ، ذلك الاصطخاب الذى لا يعدم بدوره ان ينعكس لدى الانسان فكرا يحاول من خلاله أن يعقل موقفه من الجماعة ، وأن يحدد اتجاهها واتجاهه تجاهها .

ولسنا نود أن نقيم تقابلا مصطنعا بين الممارسة فى مجال تعامل الانسان مع الطبيعة والممارسة فى مجال تعامل الانسان مع الانسان . فالانسان منذ وجد يعيش فى جماعة ، ويعيش على الطبيعة ، وكجزء منها .. انه يغزو الطبيعة فى جماعة ، والجماعة يدفع بعضها بعضا فى اطار من الطبيعة وفى الأغلب الأعم فى من هذا البعض أو ذاك الاستئثار بخيراتها . والانسان عندما يحاول أن يفهم الطبيعة ، فهو فى الوقت ذاته يزداد فهما لنفسه ، كما أن فهم الانسان لنفسه يضاعف من قدرته على فهم الطبيعة والسيطرة عليها .

على أن هذا الترابط الوثيق بين فهم الانسان للطبيعة وفهمه لنفسه ولمجتمعه ، لا ينفى أن الانسان كان أسبق الى فهم الطبيعة واستخلاص قوانينها منه الى فهم المجتمع واستخلاص قوانينه . ولم يكن ذلك لأن المجتمع ، كظاهرة ، أكثر تعقيدا من الطبيعة ، وانما يرجع هذا السبق من جهة الى أن فهم الطبيعة كان ، فى المراحل الاولى من تطور الانسان ، ضرورة لهذا التطور أكثر الحاحا من فهم المجتمع ، ومن جهة أخرى الى أن المجتمع ، وان لم يكن أعقد من الطبيعة ، فهو أعصى على الفهم منها . ويرجع السبب فى ذلك الى انقسام المجتمع على نفسه طبقات بعضها فوق بعض . والطبقات التى كان لديها الوقت والمران الذهنى اللازمين لاعمال الفكر فى شئون المجتمع ، كان لديها فى نفس الوقت المانع الذاتى الذى يحول دون مكاشفة نفسها أو مكاشفة غيرها بالحقيقة الكبرى التى تخلص منها كل حقيقة أخرى فى شأن هذا المجتمع حقيقة استغلال الأقلية للأغلبية . وفقط عندما يصبح استمرار المجتمع على القديم مستحيلا ، عندما يصبح متعينا على الأغلبية التى لا يقف فى طريقها مثل هذا المانع الذاتى من الفهم — أن تمسك بزمام الأمور بين يديها وتحرر نفسها ويصبح ذلك متاحا لها ، عندئذ فقط ، ومن خلال نضال هذه الاغلبية لكى تؤدى مهمتها ، من خلال ممارستها لدورها التاريخى ، يصبح من الممكن لها أيضا ان تطرح هذه الممارسة على المستوى الفكرى ، محولة بذلك قضية المجتمع — وقضية المجتمع لم تكن أبدا ولن تكون سوى قضية تغير المجتمع أو تغييره — الى قضية نضالية فكرية فى نفس الوقت .

الممارسة اذن ، بالنسبة للفكر فى شئون المجتمع

د. فوزى منصور



كما هى بالنسبة للفكر فى شئون الطبيعة ، هى الأصل وهى الأساس . والمقصود بالممارسة هنا ، سواء فى هذا أو فى ذاك ، هو ممارسة البشرية بأسرها ، وجيلا بعد الآخر ، أو ممارسة قوى اجتماعية طليعية بالنسبة لهذه البشرية . كما أن الفكر هنا يصبح خلاصة تجربة البشرية بأسرها ، أو خلاصة تجربة قواها الطليعية : قد يبلورهاهذا الفرد أو ذاك ممن تتاح لهم فرصة التعرف على هذه التجربة فى مختلف أبعادها وتمثلها والتوحد معها والتمعن فيها ، ولكن ودون التقليل من دور هذا الفرد أو أهمية تلك البلورة ، يبقى الفكر منسوبا الى تلك القوى الاجتماعية ، مستمدا جذوره من ممارستها الحية ، ويتحول فى الوقت ذاته الى تراث مملوك للبشرية بأسرها .

***

ولما كان التغير الاجتماعى والتغيير الاجتماعى هما المحور الاساسى لكل فكر اجتماعى ، فان الفكر الاجتماعى الجديد ، فى المجتمعات الطبقية ، كما يواجه مصاعب ضخمة فى ظهوره ، كذلك يواجه مصاعب ضخمة فى انتشاره بعد ظهوره ، بسبب محاصرة القوى الاجتماعية المسيطرة التى تتعارض مصالحها مع التغيير لهذا الفكر ومحاولتها القضاء عليه . وهى بوجه خاص تصطنع فى مواجهته فكرا آخر غيرعلمى ، تربى عليه النشء منذ الصغر وتروج له بمختلف الطرق المباشرة وغير المباشرة . وهى تلجأ عندما تستشعر خطورة هذا الفكر الجديد على مواقعها الى المصادرة الادارية لهذا الفكر الجديد ، والملاحقة الجنائية أو المعيشية لمن يعتنقونه .

ومصر ما قبل الثورة مثال واضح على ذلك .. كانت مصر بلدا شبه مستعمر ، يمسك الاستعمار

فيه بمفاتيح السلطة النهائية بين يديه ، وان كان يعهد بممارسة جوانب منها الى حلفائه الطبيعيين من طبقة كبار الملاك الزراعيين ، الذين لم يكن يدانى جشاعة استغلالهم لجموع الشعب سوى خوفهم الطبيعى من انقضاض الشعب عليهم ، ومن ثم تكاتف الحليفان على سد كافة المنافذ الفكرية التى يمكن أن تنفذ منها رياح الثورة ، واتخذت قوى الاستغلال المسيطرة كل وسائل الحيطة المعروفة لمنع ظهور أو انتشار الفكر الاجتماعى الجديد ، ولقمعه عند ظهوره ، وهكذا حرمت مصر حتى من الحريات الفكرية التقليدية التى كانت متاحة فى بعض المستعمرات الاخرى . كان الفكر العلمى فى شئون المجتمع محرما . وكان تراث الانسانية الفكرى حول الوسائل العلمية لتغيير المجتمع واتجاهات هذا التغيير ممنوعا دخوله فى مصر ، لا ينفذ اليها منه الا قطرات ، فى لغات أجنبية لا يقرؤها الا قلة القلة ، أو مترجما ترجمات سريعةركيكة ، كثيرا ماكانت تشوه أكثر مماكانت تنقل ، أو مطبقا ــ كقضايا عملية لا تقف كثيرا عند التأصيل النظرى ــ على ظروف مصر ، فى المحاولات التى كانت تقوم بها التنظيمات الثوريه المتعددة التى انتشرت فى مصر فى ذلك الوقت : محاولات ينقصها الكثير من النضج الفكرى : من جهة لأن عملية الاعداد الفكرى الطويل الذى يستغرق أجيالا متعاقبة كانت ، لظروف تاريخية عانت منها مصر أكثر من أى بلد آخر فى وضع حضارى واجتماعى مماثل ، مفتقدة . ومن جهة أخرى لأن الانفتاح على التراث الثورى العالمى ، بالاضافة الى العقبات الأخرى التى كانت تقف فى طريقه ، كان مقصورا على من أتيحت لهم فرصة السفر بعضا من الوقت فى الخارج أو من يجيدون لغة أجنبية ، أو من ألقت بهم الظروف فى طريق هؤلاء أو أولئك . فى كلمة : كانت القاعدة الاجتماعية الفعلية للتأثر المؤصل والمؤصل بهذا الفكرضيقة غايةالضيق ، رغم أن القاعدةالاجتماعية الكامنة لهذا التأثر كانت واسعة أكثر ما يكون الاتساع ، فقد كانت مصر تعج بالثورة فى ذلك الحين ، مثقفوها سواء بسواء مع عمالها وفلاحيها ، وارهاصات الثورة الاشتراكية جنبا الى جنب مع انتفاضات الثورة الوطنية الديموقراطية .

فى هذه الظروف نشأ عبدالناصر ، منفعلا بكل ما كان ينفعل به مصرى حميم راسخ الجذور فى تربة مصر ، يرى وطنه موطئا لأقدام المستعمرين ، ويحرص على ألا يقطع ما بينه وبين الأصول الشعبية التى نبت منها ، وألا يجعل امكانيات الحياة الجديدة التى أصبحت متاحة له بحكم السلك الوظيفى الذى انخرط فيه تغريه عن قضاياها . ومن المعلوم أن عبد الناصر الشاب قد تعرف على التيارات الفكرية الثورية التى كانت تسرى فى مصر فى ذلك الحين . على أنه من المشكوك فيه أنه قد تأثر بها تأثرا يجاوز كثيرا الالتقاء حول عدد من الأهداف العامة أو الشعارات ، التى كانت قاسما مشتركا بينها جميعا : أهداف التحرر الوطنى مثلا وتحقيق العدالة الاجتماعية وتحطيم سلطة كبار الملاك الزراعيين السياسية والاقتصادية وتوزيع الأرض على الفلاحين وتطوير الاقتصاد القومى وبناء الصناعة ، أو تأثرا يجاوز النظرة المشتركة الى بعض الأوضاع والمؤسسات التى كانت تعترض طريق تحقيق هذه الأهداف ، مثل الاحتلال العسكرى والأحلاف الاستعمارية والحكم الملكى والأحزاب الرسمية . وبوجه خاص فان من المشكوك فيه أن يكون قد تأثر الى أية درجة فعالة بالأصول ومناهج التحليل الفكرى التى كانت تميز هذه التيارات . فمن جهة كانت هذه الأصول والمناهج ــ كما تقدم القول ــ بعيدة فى ذلك الوقت عن أن تكون مدروسة دراسة فاهمة متعمقة متمثلة لظروف مصر ، قادرة على طرح نفسها فى اطار تراثها ، كما كانت المراجع الاساسية اللازمة لمثل هذه الدراسة بعيدة عن ان تكون متاحة لمن شاء القيام بها . ومن جهة أخرى فقد كانت طبيعة النشاط العملى الذى تقوم عليه حياة عبد الناصر الوظيفية وظروف هذه الحياة وملابساتها بعيدة عن أن تتيح له الامكانيات التى تساعد على هذا النوع من الدراسة ، أيا كانت استعداداته أو ميوله الشخصية . وكان عبد الناصر على أية حال قد خطط وشق طريقه الخاص للنضال : طريق تنظيم الضباط الأحرار . ولم تكن طبيعة مثل هذا التنظيم تسمح بالتركيز على المسائل الفلسفية ، أو التوسع فى مناقشة قضايا الفكر الاجتماعى المنهجية ، ولا كانت المهمة الرئيسية التى تصدى هذا التنظيم لانجازها ، مهمة تحرير مصر من السيطرة الاستعمارية ، هى من نوع المهام التى يتهيأ تنظيم عسكرى للقيام بها من خلال المناقشات الفلسفية المستفيضة ، فهذه المناقشات ، كما تساعد على تحقيق الوحدة الفكرية وتؤدى الى الوضوح النظرى عندما تكون المواقف والأصول الاجتماعية متجانسة من أول الأمر ، فانها أدعى الى اظهار الفرقة والتباين عندما تكون المواقف والاصول الاجتماعية مختلفة والحكمة كل الحكمة كانت فى التجميع ــ لا الفرقة ــ حول قضية واحدة رئيسية هى قضية التحرر الوطنى .



وقد نجح تنظيم الضباط الأحرار فى تحرير الوطن ، وذهب فى ذلك الى أبعد مما كانت تتطلع اليه أنظار العديد من أعضاء التنظيم الذين لم يكونوا يرون فى السيطرة الأجنبية التى نهضوا لتخليص البلاد منها سوى احتلال عسكرى أو نفوذ سياسى ، وأصبح التحرر الوطنى بقيادة عبد الناصر يعنى التحرر الاقتصادى والتطور الاقتصادى كما يعنى التحرر السياسى ، ثم مضت الثورة بعد ذلك فى طريق طويل من التحول الاجتماعى العميق الذى يستهدف البناء الاشتراكى والقضاء الكامل على كل شكل من أشكال استغلال الانسان للانسان ..

ويعلم كل من شارك فى التثقيف السياسى فى بلادنا أو طالع الكثير من الكتابات المدرسية أو غير المدرسية التى تكتب عن الثورة فى مصر ، ان هناك اتجاها قويا لتصور هذا المسار الثورى أو تصويره كما لو كان مرسوما منذ البداية فى جملته وفى أدق دقائقه وأصغر تفاصيله ، ان لم يكن فى ذهن التنظيم الذى قام بالثورة ، فعلى الأقل فى ذهن قائد الثورة جمال عبد الناصر ، وكما لو كانت كل الخطوات التى تتابعت على هذا المسار من أولها حتى آخرها خطوات محسوبة من أول الأمر ، يتلو بعضها بعضا وفق ترتيب محكم سرى .

وأعاجيب التفسير والتأويل التى يقدمها هذا التيار تأييدا لهذا التصور مذهلة حقا ، فهى تمسك مثلا بالمبادىء الستة الشهيرة التى أعلنتها الثورة فى شهورها الأولى ، مبادىء القضاء على استعمار وأعوانه من الخونة المصريين ، والقضاء على الاقطاع وعلى الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم واقامة عدالة اجتماعية وجيش وطنى قوى وحياة ديموقراطية سليمة ، وبدلا من أن ترى فيها الشعار الملائم تماما الذى ترفعه كل أنواع الثورات الوطنية الديموقراطية فى مختلف أنحاء العالم ، تذهب تطرق هذه المبادىء وتسحبها حتى تتسع لكل السمات المميزة للتحول الاشتراكى ، ثم تفسر كاجراء من اجراءات الثورة الاشتراكية ، كل اجراء اتخذ فى السنوات الاولى للثورة ، سواء لتحقيق العدالة الاجتماعية أو لتطوير الاقتصاد القومى . وهى تعمد الى كل منعطف من منعطفات الثورة أو خطوة لا تتسق مع بقية خطواتها ، وبدلا من أن تفسرها التفسير العلمى السليم النابع من الفهم للقوى الاجتماعية المختلفة التى كان مسار الثورة فى كل مرحلة من مراحلها ، هو المحصلة النهائية لمراكزها ، تذهب تبذل الجهد الفائق ، ليس فقط فى تبريرها ، ولكن فى وضعها فى مكان ما يظهرها كحلقة لازمة فى سلسلة متصلة الحلقات تتكشف الواحدة تلو الاخرى وفق نظام معلوم .

ولا شك فى أن هذه النظرة تجد صدى طيبا لدى بعض الاوساط الشعبية التى ، فى سذاجة

قلبها ومن فرط حبها وتقديرها لقائدها ، أصبحت تطرح على شخصه كامن قدراتها وامكانياتها وترى فيه المهندس الذى وسع علمه كل شىء من اول الامر ، وخطط لكل شىء من اول الامر ، واحاطت قدرته بكل شىء من أول الامر ، ثم مضى ينفـذ تدريجيا ، لحكمة ارتآها هو ، كل ما كان قد عقد العزم عليه • وليس من شك أيضا فى أن لهـذه النظرة بعض المزايا فى تدعيم الثقـة بين الجماهير وقائدها ، خصوصـا فى المراحل التى تفتقر الى فعالية التنظيم القادر القوى •

ولكنها نظرة غير علمية ، تغذيها بعض القـوى الاجتماعية التى لا صالح لها فى اشاعة النظرة العلمية بين الجماهير الشعبية أو التى تفتقر هى – رغم انتمائها الى الثقافة والمثقفين – الى هـذه النظرة • وهى قد تستهدف بوجه خاص الايحاء بأمرين يبدوان متناقضين ولكن هدفهما النهائى فى الحقيقه واحد • الأمر الاول هو تجميد الثورة فى كل مرحلة من مراحلها عند النقطة التى وصلت اليها واسقاط دور الجماهير فى دفعها وتطويرها • فطالما ان الأمر أمر نظرية مسبقة مرسومة من أول الامر لكن غير معلنة ، تنفذ حلقاتها تدريجيا ،فمن السهل القول فى كل وقت أن التطبيق الفعلى ، أيا كان المدى الذى وصل اليه ، قـد استنفد حلقات تلك النظرية ، بل ويصبح التطبيق عندئذ ، مهما كان مبتسرا أو ناقصا ، هو نظريتنا التى نتمايز بها على العالمين • والأمر الثانى هو اجهاض الثورة عن طريق تأليب بعض قوى تحالف الشعب العامل ضدها • فطالما ان الأمر أمر خطة سرية متكاملة ، تنفـذ تباعا خطوة وراء الأخرى ، وليس أمـر ضرورات موضوعية تكشف عن نفسها أمام المواطنين جميعا من خلال التطور الموضوعى للمجتمع ، وتلتقى على تقديرها واقتراح الحلول الملائمة لهـا جهود جماهير الشعب وحسم قيادته ، فسوف يسهـل دائما الايحاء لبعض قوى التحـالف بأن الطريق يمتد حقا الى أبعد مما تقتنع هى بضرورة الذهاب اليه ، وتخويفها بأن ثمة مفاجآت تنتظرها عليها أن تمنعها أو تتحرز منها •



***

ولقد كان عبد الناصر نفسه أول من قاوم هذه النظرة غير العلمية ، وذهب فى ذلك الى أبعـاد يندر أن نجد لها مثيلا بين قادة الشعوب وتكشف حقا عن ناحية من أهم نواحى عظمته هى تقـديره السليم لطبيعة العلاقة بين الشعب وبين قائده •

فهو لم يمل قط من تأكيد أن الشعب هو المعلم وهو القائد وهو الخالد • وهو لم يكن يردد عبارات انشائية مما تحفل به خطابات الساسة عند لقائهم مع الجماهير الشعبية ، وانما كان يؤكد معنى استقر فى ذهنه ووجد فيه جماع تجربته وسر قيادته • وآية ذلك أنه عمد الى هذا المعنى ففصله وعمقه ودلل عليه فى صدر ميثاقه حيث يقول :

« ان هذه المبادىء الستة التى أسلمها النضال الشعبى المتواصل الى الطلائع الثورية ، التى جندها لخدمته من داخل الجيش ، والطلائع الثوريه التى تجاوبت معها تلقائيا وطبيعيا من خارجه ، لم تكن نظرية عمل ثورى كاملة ، ولكنها كانت فى تلك الظروف دليلا للعمل ، يمثل عمق هذه الارادة الثورية ، ويلبى احتياجاتها ، ويبرز تصميمها على بلوغ الشوط الى مداه •• ان الشعب العظيم الذى كتب المبادىء الستة بدم شهدائه وبنور الأمل الذى أعطوا حياتهم من أجله •• مضى بعد ذلك فى تعميق نضاله وفى توسيع مضمونه• لقد كان هذا الشعب العظيم هو المعلم الأكبر ، الذى حمل على عاتقه فى أعقاب بدء العمل الثورى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عمليتين تاريخيتين لهما آثارهما الضخمة :

١ ـ ان هذا الشعب المعلم راح أولا يطور المبادىء الستة ، ويحركها بالتجربة والممارسة وبالتفاعل الحى مع التاريخ القومى تأثرا به وتأثيرا فيه نحو برنامج تفصيلى ، يفتح طريق الثورة الى أهدافها اللامتناهية •

٢ ـ ثم ان هذا الشعب المعلم راح ثانيا يلقن طلائعه الثورية أسرار آماله الكبرى ويربطها دائما بهذه الآمال ، ويوسع دائرتها بأن يمنحها مع كل يوم عناصر جديدة قادرة على المشاركة فى صنع مستقبله » •

ودور الشعب فى دفع الثورة وتطوير فكرها لم يقتصر عند عبد الناصر على مجرد التعبير عن أهدافه وآماله ، وانما هو دور نضالى يمارسه الشعب فى مواجهة كل العقبات التى تقف فى طريقه ، بما فى ذلك احتمالات الانحراف أو النسيان من جانب الطلائع الثورية نفسها فهو يقول فى هذا الشأن :

« ان هذا الشعب العظيم لم يكتف بأن يقوم بدور المعلم لطلائعه الثورية ، وانما هو فوق ذلك أقام من وعيه حفاظا عليها ، يحميها من شرور الغير ومن شرور النفس • كذلك ان الشعب لم يكتف بأن يهزم كل محاولة من أعدائه للنيل من طلائعه الثورية ، وانما قاوم كل الانحرافات التى قد تأتى من النسيان أو الغرور ، وظل دائما يرشد طلائعه الثورية الى طريق واجبها » •

« ان ارادة الثورة لدى الشعب العربى المصرى والصدق الذى سلحت نفسها به • حققت مقاييس جديدة للعمل الوطنى • لقد أكدت هذه الارادة وصدقها أنه لا يمكن أن تقوم عوائق أو قيود على امكانية التغيير الا احتياجات الجماهير ومطالبها العادلة » •

والميثاق يؤكد هذه المعانى فى موضع آخر حيث يقول :

« ••• ان الطلائع الثورية التى صنعت أحداث ليلة ٢٣ يوليو : لم تكن قد أعدت نفسها لتحمل مسئولية التغيير الثورى الذى تصدت لمقدماته • **لقد فتحت الباب للثورة تحت راية المبادىء الستة المشهورة ، ولكن هذه المبادىء كانت أعلاما للثورة ليست أسلوب عمل ثورى ومنهاج تغيير جذرى•• ولقد كان الأمر من الصعوبة بمكان خصوصا فى جو التغيير العالمى البعيد المدى العظيم الأثر •• لكن الشعب المعلم صانع الحضارة •• راح يلقن طلائعه أسرار آماله الكبرى ، ومضى يحرك المبادىء الستة بالتجربة والخطأ نحو وضوح فكرى ، لصنع التصميم الهندسى لبناء المجتمع الجديد الذى يريده•** وراح الشعب الكادح يكدس مواد البناء ويكتل جميع القوى الثورية القادرة على الاسهام فيه فى صفوف الجماهير » •

ويعرض عبد الناصر ، فى أحاديثه التاريخية أمام اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية (٢٥ نوفمبر ١٩٦١ ـ ٣١ ديسمبر ١٩٦١) تطبيقات حية لهذه المعانى ، ولمدى شعوره بها من تجربته الخاصة ، ومن واقع مسؤلياته ، وكفاحه مع نفسه ومع ظروفه ومع غيره لكى يتبين ـ ويشق ـ طريقه نحو الوفاء بهذه المسئوليات ، تطبيقات لن نجد فى يوميات الثوريين مايفوقها فى رنة الصدق ، أو قوة التأثير ، أو القيمة التاريخية فى الكشف تطورات فكر قائد ثورة ودخائل نفسه • فهو يقول مثلا : « يوم ٢٣ يوليو لا أعرف أبدا أن أتكلم الكلام الذى أتكلم به الآن ، وذلك لأنى لم أمش يومئذ فى تجربة العشر سنين التى وجدت فيها هذه المدة • ويوم ٢٣ يوليو لو طلبتم منى



محاضرة فى التكتيك اقول لكم محاضرة فى التكتيك أو فى أى موضوع عسكرى . أما أن تقولوا : تكلم فى الثورة ، فى العمليات التى نتكلم فيها اليوم .. طبعا هذا موضوع من الصعب على جدا أن أتكلم فيه.. ان ظروفنا قضت أن التطبيق الثورى ، تطبيقنا الثورى ، كان سابقا للنظرية.. النظرية هى دليل العمل .. عن أى شىء تكون النظرية ؟ هى تأتى عن دراسة المشاكل ، ولكن أنا فى رأيى أن الذين يقولون انه ليس هناك نظرية ، ونريد أن تعرف النظرية ، يريدون أن يضعوا لنا عقدا فحسب ، بأى وسيلة من الوسائل ، وبأى شكل من الأشكال . كيف نحل هذه العقد !.. يقولون لنا (حلوها أنتم) . تكلم أى واحد يقول لك : « ليست هناك نظرية . ما هى النظرية ؟. حدد لى الآن أين نقف ؟ » . **أنا لا أستطيع أن أحدد أين نقف . الشعب هو الذى يحدد أين نقف .. لا أستطيع أن أحدد بالنسبة لى . أنا لن أستطيع أن أقف الا اذا انتهى استغلال الانسان للانسان ، وكل واحد أصبح يشعر أن فيه فرصة متكافئة مع الآخر »** .

أو انظر مثلا الى تجربته مع رأس المال الاجنبى وكيف تعلم ، من خلال الواقع والتطبيق الحى ومن خلال القراءة معا ، درسها ..

« أسطورة رأس المال الاجنبى كانت تحول ، منذ أول يوم من أيام الثورة ، بينى وبين العمل الذى أريده : لا تعمل هذا العمل ، هؤلاء فنيون. ورأس المال الأجنبى حاول أن يقل وينكمش .. نعمل الشىء الفلانى ؟ لا . رأس المال جبان .. هم بدأوا يشغلون بالنا من أول يوم الى أن أصبح الواحد لا يعرف كيف يشتغل بأى وسيلة من الوسائل . وأنا فى يوم من الأيام قررت أن أقرأ اقتصادا . وكنت أقرأ كل ليلة أربع ساعات أو خمس ساعات ، لأعرف كل العمليات بالتفصيل ، حتى لا يبقى هذا الكلام قطعيا ، وآخذ فقط برأى الفنيين ، وأقول « نعم » و « حاضر » و « طيب » .

« نعمل قوانين لتشجيع رأس المال الأجنبى سنة ١٩٥٣ . هل تعرفون مقدار رأس المال الأجنبى الذى دخل مصر للاستثمار من سنة ١٩٥٢ لغاية ١٩٦١ ؟ انه ثمانية ملايين جنيه ، أو ثمانية ملايين وسبعة من عشرة ، منه للاستثمار فى البترول ٢ر٥ ملايين . هذا كل رأس المال الاجنبى . فصرنا نحايل فيه ونلاطفه ونتودد اليه ، فنقول لهم : « تعالوا سنعمل لكم قانونا » . هذا فى سنة ١٩٥٣ وسنة ١٩٥٤ . وبعد هذا أنا قلت : لا أريد رأس مال أجنبى أبدا يدخل للاستثمار ، لأننى حسبت أننا نأخذ فى هذه الأمور خازوقا كبيرا جدا ، لأنه عندما يدخل عشرة آلاف أو عشرين ألف جنيه ويعمل مصنعاً ، وبعد ذلك يحول كل سنة الى الأبد الأرباح ، فيأخذ بذلك عشرة آلاف جنيه أو عشرين الف جنيه أو ثلاثين ألف جنيه فى خمس سنوات ، وبعد ذلك يفرض القانون أن أحول له أرباحه الى الخارج بالعملة الصعبة .. اذن كتب علينا أن نأخذ من عرقنا ، ونحن فى حاجة الى كل ناتج هذا العرق ونحوله للخارج » .

أو انظر مثلا الى ذلك التحليل الدقيق الرائع ، فى صدقه ، وفى انسانيته وفى بساطته ، وفى

دلالته ، لفترة ما قبل التحولات الاشتراكية ، وكيف انعكست نتيجة التجربة والممارسة وتدافع الأحداث ، فى فكر قائد الثورة ، حتى انتهت الى اتخاذ قرارات يوليو ١٩٦١ الشهيرة :

« كل ما أعرفه أن الرجعية وجدت أن هناك فرصة لها لكى تتسرب الى داخل الاتحاد القومى وتسيطر على الاتحاد القومى • وواضح كل الوضوح أن الرجعية أقلمت نفسها ، وأن الرجعية مشت فى الاتحاد القومى • ولم نكن نقول ان هذا الشخص رجعى ، بل كنا نقول هذا الرجل طيب و «ماشى» • ليست العملية أبدا أن فلانا رجل طيب ، فقد يكون ممن يستغل فى عمليةما عشرة آلاف جنيه ، ثم يعمل يوم الجمعة فولا نابتا وقليلا من الخبز بخمسة جنيهات ، ويجمع الناس فيقولون انفلانا الفلانى هذا رجل طيب • والعملية عملية استغلال وتغطية لهذا الاستغلال • أو يذبح ذبيحة كل شهر أو شهرين ، ويجمع الناس الذين أخذ أموالهم وعرق جبينهم ويؤكلهم أكلة فيقولون : والله انه رجل طيب ذبح لنا ذبيحة »

« العملية ليست عملية حسنة ولا صدقة بأى حال من الأحوال • العملية عملية حقوق وعملية واجبات • وبكل أسف فكرنا نحن أيضا بهذه الطريقة ، وخدعنا كما خدع الفلاحون الذين يذبحون لهم الذبائح كل جمعة للغداء أو العشاء وقلنا : والله فلان هذا رجل طيب وفيه شىء لله •

« ان حسن النية من جانبنا كان متوافرا مائة فى المائة فاستغلوا ذلك وصاروا يقولون انالثورة رحيمة •• من ناحيتنا طبيعى لابد أن تكون هناك من الوسائل وأن نحل الخلافات فى اطار منالوحدة الوطنية ، ومن ناحيتنا يجب ألا نكون بأى حال من الأحوال البادئين بالعدوان • ولكن يجب أن نحل مشاكلنابالوسائل السلمية ، ونحلمشاكلنا بأقل ما يمكن من الخسائر •• من ناحيتنا كان من اللازم أن نتخذ هذا الأسلوب ، وأنندعو للمحبة• ولكن هل كان مثلا أن نتصور ما فىقلب الآخرين؟ لا يمكن لشخص أن يعرف ما فى قلب الآخرين بأى حال من الأحوال • وكنا باستمرار نفترض حسن النية ، ونفترض أنهم يقابلون هذا الشعور بشعور مماثل •• الرجعية أقلمت نفسها ، وحين أتكلم عن الأقلمة ، أقول ان الرجعية المعاصرة والرأسمالية المعاصرة ماهرة جدا ، وأنها تتأقلم وفقا لطبيعة العصر » •

ويستعرض قائد الثورة مستعرضا تجربته الذاتية فى تلك السنوات مع رافعى الشعارات : «بعد سنة١٩٥٧ رفع الرجعيون لافتاتالاشتراكية •• فهم فعلا يكسبون من زيادة الانتاج • طالما أن الاشتراكية شعارات فحسب فهم مبسوطون• طالما أن الاشتراكية شعاراتفحسبفماذا يضايقهم؟ انهم يشجعون على ذلك ، ومستعدون أن يضعوا شعارات للاشتراكية قدر ما نقول ، عشرين مرة ، على ألا نضع الاشتراكية موضع التنفيذ ولا نطبقها » •

أو تجربته مع فيضان التخريب والرشوة واستغلال القطاع العام بواسطة القطاع الخاص ••



« وكانت لدى معلومات عن حوادث رشوة كثيرة ، لو أمسك كل حادثة وأمشى وراها تحتاج لشهر أو شهرين ، والخمسون حادثة تحتاج لمائة شهر . **ماذا يفعل البوليس والرقابة الادارية والنيابة الادارية فى عمليات لا أول لها ولا آخر ؟ وعلاقة ذلك وجود الرأسمالية المستغلة فى البلد »** .

« ... ان العمليات التى لمستها فى آخر سنة ١٩٦٠ كانت تدل على أن الرجعية والرأسمالية المستغلة تدفع كل قوتها لتقضى على كل معنى من المعانى التى ننادى بها .. ولقد وجدت نفسى عاجزا عن مقابلة هذا الهجوم بأية طريقة من الطرق المعروفة .. كنت أشعر فى سنة ١٩٦٠ أن الدفع الثورى ربما كان غير قائم ، وأن الثورة بدأت تتعثر .. أنا قلت فى يوم من الأيام أن الرجعية والرأسمالية المستغلة بدأت تخبط الثورة ، وان الثورة التى قامت سنة ١٩٥٢ أوشكت أن تضيع وأن الأمور لا يمكن أن تسير على هذا النحو ..

ففى الاتحاد القومى نجد الرجعيـــة هى التى تتصدر الاتحاد القومى ، وفى التجارة نجد الرجعية متصدرة التجارة • واذا نظرنا الى أرباح السنـة الماضية (١٩٦٠) فأنا قبل شهر يوليو الماضى طلبت كشفاً بعدد من تزيد أرباحهم عن عشرة آلاف جنيه فوجدت أن عدد من تزيد أرباحهم عن عشرة آلاف جنيه قد تضاعف فى سنة واحدة ••• »

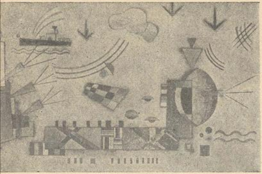
وينتهى الرئيس الراحل الى تركيز كل ماحدث وما سيحدث فى عبارة واحدة ، تضىء بشىء بشكل علمى تطور الثورة ومراحلها :

« وهكذا حاولت الرجعيـة أن تستغـل الثورة الوطنية لحسابها • فرفعت شـعارات الاشتراكية طالما كانت هذه الشعارات غير مطبقة • طبعا كان لابد للثورة الوطنية أن تأخذ طريقها، ولابد للثورة الاجتماعية أن تأخذ طريقها • وهـــدف الثورة الاجتماعية واضح : تحرير الشعب لبناء الوطن ، تحرير الشعب من الاستغلال ، تكافؤ الفرص » •

***

وتلك هى المعجزة التاريخية التى حدثت ، ان كان للتاريخ معجزات أو صح استخدام هذا التعبير غير العلمى : أن تتحول ثورة من الثورات ، تحت نفس القيادة ، من المواقع الطبقية والفكرية للثورة الوطنية الى المواقع الطبقيـة والفـكرية للثورة الاجتماعية • ويحدث ذلك أيضا دون وجود تنظيم سياسى شعبى يؤمن سلامة هذا التحول •

ولنقف لحظة عند الدلالة الفذة لهذا التقدم •• فالتاريخ الحديث يتضمن أمثلة لقيادات ثورية وصلت الى السلطة عن طريق التنظيمات السياسية الشعبية ، وتمكنت بالاستناد الى هذه التنظيمات السياسية الشعبية من اجراء تحولات جذرية فى المجتمع • ولـكنه يتضمن أمثـلة أكثر لقيادات وصلت الى الحـكم عن طريق رفع الشـعارات الاشتراكية ، وما أن وصلت الى الحكم حتى أخذت تصرفاتها الفعلية تباعد بينها وبين مصالح الجماهير التى وصلت بها الى الحكم • وبمعنى آخر ، ما أن وصلت تلك القيادات الى الحكم ، ورغم ما كانت تنادى به من قبل من رغبة فى التغيـير الجذرى للمجتمع وعزم عليه ، ورغم استنادها الى التأييد الشعبى المنظم الذى وصل بها الى الحكم ، حتى تمكنت القوى الاجتماعيـة المعـادية للتحـول الاشتراكى من صرفها عن تحقيق الاهـداف التى



كانت تدعيها ، اما عن طريق احتواء القوى المعادية للاشتراكية لها ، أو عن طريق اقامة الصعوبات فى وجهها ، أو عن الطريقين معا •

أما فى تجربة مصر الثورية فقد وصلت القيادة الى السيطرة على مفاتيح السلطة السياسية دون استناد الى تنظيم جماهيرى شعبى ودون خطـة محددة واضحة للتحول الاجتماعى الجذرى ، ثم من هذا المركز الضعيف نسبيا ، ورغم هذا المركـز الضعيف نسبيا ، واصلت السير نحو هذا التحول ومضت فيه بالفعل •

ولا شك فى أن العامل الأساسى فى ذلك كان بقاء ارتباط عبد الناصر الوجـــدانى والفـكرى بالأصول الشعبية التى نبع منها ، وتمثله الكامل للقيم والأمانى الشعبية وحرصه على الالتزام بها وترجمتها والتعبير عنها بالأفعال والخطوات الثورية وفى قدرته المتـــزايدة على الربط بين تلك القيم والأمانى وبين وسـائل تحقيقها ، بقدر ما تتكشف هذه الوسائل والاجراءات من خــلال التطورات الموضوعية لعالمنا المعاصر ، وللمجتمـــع المصرى والاقتصاد القومى بوجه خاص •

وفى تنمية هـذه القـــدرة وتجسيدها لعبت الممارسة دورا خاصا ارتبط فيه تطور فكر قائد الثورة بتطور الثورة نفسها حتى ليصعب الفصل بينهما أو دراسة أحدهما دون الآخر • واذا كان من المتعذر علينا الآن التصدى لمثل هذه الدراسة الا أن ثمة ملاحظات رئيسية تثور بشأنها نعود الى ابدائها فى مقال لاحق •

فوزى منصور

شخصية القائد ووحدته الفكرية

د. يحيى هويدى

عبد الناصر هو صانع مصر الثورة ، مصر المعاصرة ، مصر العصرية، مصر العربية ، مصر الاشتراكية أو التى على طريق الاشتراكية • واذا كان من الحق أن نقول ان الطاقات التى فجرها فى شعب مصر كانت كامنة فيه فمن الحق أيضا أن نقرر أنه هو الذى جعلها تنبثق فى ضـــوء جديد وفى اطار جديد خيل الينا معهما أننا نراها لأول مرة • وهذا الأسلوب الجديد فى الفكر والحياة الذى قفزنا اليه بوجود الزعيم بيننا هو الذى يجعلنـــا لا نكتفى بالقول بأن عبد الناصر قد أعاد الينا الروح ، بل علينا أن نقول انه أعادها الينا متفتحة • وذلك لأن الروح قد تعود الى الأفراد والشعوب وتظل مع هذا فى حالة من الركود ، نعسانة أسوانة ، وقد تتقمص فى عودتها مخلوقات شوهاء ، وقد تعود ـ على العكس من ذلك ـ فى حالة من التفتح والازدهار • وليس من شك فى أن عودة الروح لشعب مصر على يد عبد الناصر تجسدت فى تلك الزهور الكثيرة المتفتحة ، والبراعم التى تنبض بالحياة والتى سقاها هو من أفكاره وآماله شرابا طهورا • ولعل هذا هو أثمن ما خلفه لنا •

وفى هذا المقال سنحاول أولا أن نحدد معالم تلك الشخصية الغنيـــة التى جاد بها علينا الزمان لننتقل من ذلك الى الحديث عن الوحدة الفكرية فى فلسفته العامة • وسنرى أن ثمة علاقة وثيقة وتطابقا يكاد يكون تاما بين المعالم الرئيسية لشخصية عبد الناصر والخطوط الهامة التى حددت فكره السياسى وجعلته يصدر عن وحدة فكرية متكاملة أبعـــدته عن أية ممارسة عشوائية •

وفيما يتصل بالنقطة الأولى ، فاننا نعتقد أن هناك ثلاثة مفـــاتيح

لقد رفض عبد الناصر أن نقيم الاشتراكية على دكتاتورية أية طبقة .. حتى لو كانت هذه الطبقة هى الطبقة العاملة ، ورأى أن يقيمها على تحالف قوى الشعب العامل .

أساسية اذا أدرناها بعناية فسنصل الى صـــورة واضحة لشـــخصية عبد الناصر .

فأول معلم من معالم تلك الشخصية البـــارزة هو معلم الكرامة والاعتزاز بالنفس . فعبد الناصر من أشد الناس استمساكا بكرامتـــه ومن أكثرهم اعتزازا بها . لم يهن على نفسه أبدا . والانســـان الذى لا يقبل الضيم ولا يهون على نفسه أمام نفسه أولا ثم أمام الناس ، الانسان الذى لا يفرط فى كرامته قيد أنملة هو الانسان الحر . وأود هنا أن نتأمل معا هذا المعنى الهام للحرية الذى نلتقى به فى لغتنا العامية عندما نقول عن فلان من الناس : « ده راجل حر » . فالحرية هنا هى بعينها الكرامة الانسانية . وانى أوثر هذا المعنى البسيط العميق للحرية على كل المعانى التى قدمها الفلاسفة لفكرة الحرية . المهم أن عبد الناصر كان حرا بهـــذا المعنى لأنه كان شديد الاعتزاز بكرامته .

هذا هو المفتاح الأول لشخصية عبد الناصر . أما المفتاح الثانى فهو عروبة تلك الشخصية . فقد كان الزعيم من أشد الناس ايمانا بعروبته وكانت عروبته أصيلة حقا تمثل جوهره الحقيقى . كان معدن عبد الناصر معدنا نفيسا حقا ، هو المعدن العربى . كان مترفعا عن الصغائر ، وكان سمحا كريم النفس ، وكان انسانا عربيا شريفا : يغيث الملهوف ، ويجير المستجير ، وينتصر للضعيف من القوى ، ويقف دائما الى جانب الفقراء والبسطاء من النـــــاس ؛ أولئك الذين قال عنهم الانجيل انهم « ملح الأرض » .

أما المفتاح الثالث الهـــام لشخصية الزعيم فهو قدرته الخارقة على احتواء الأطراف والسيطرة عليها . ويرجع هذا فى المحل الأول الى قوة شخصيته العملاقة . يحكى لنا بعض المقربين له أن أهم ما كان يتمتع به هو قدرته الفذة على اشاعة الطمأنينـــة فى نفوس الجميع ، أيا كانت اتجاهاتهم المتعارضة ، وتياراتهم الفكرية المتصارعة . كان يجلس مثلا بين الوزراء وهو يعرف ميل كل منهم معرفة تامة ، وبقدرة نفاذة كان يسيطر على هذه الميول الفكرية المتعددة ويحتويها وكانت هذه الميول تجد عنده ضربا من التعايش الفريد . كان الجميع يشعر فى رحابه بالرضا والاطمئنان

وكان هذا شأنه اذا ما جلس مع الملوك والرؤساء العرب • كان اليمينيون واليساريون ، الرجعيون والتقدميون ، الأصدقاء والأعداء يألفونه ويأنسون اليه • وكانت شخصيته بينهم مصدر ايحاء لبعض التنازلات ، يقدمها الأطراف عن رضى حينا ، وتقدمها فى بعض الأحيان الأخرى وهى لا تملك الا أن تقدمها • وكان هذا شأنه أيضا على الصعيد الدولى عندما كان يجتمع به وفود كل من الكتلتين الشرقية والغربية • فكان ينفذ بشخصيته الى الجميع • وكان قادرا على صهر المتناقضات والعلو عليها • وفى جميع تلك اللقاءات كان الدور الذى لعبه عبد الناصر هو دور المايسترو القدير •

هذه الأبعاد الثلاثة الرئيسية ترسم لنا بوضوح معـــالم شخصية عبد الناصر •

ننتقل بعد هذا الى الحديث عن الوحدة الفكرية فى فلسفة عبد الناصر وقد حذرنا عبد الناصر فى الصفحات الأولى من كتاب « فلسفة الثورة » من أن نفهم كلمة فلسفة الواردة فى عنوان الكتاب بمعناها الضخم الكبير• وأريد هنا من جانبى أن أنبه القارىء الى هذا التحذير نفسه • فعليه أن يفهم الكلمة فى معناها العام عندما تقال فتعنى النظرة الشمولية أو الاطار العام الذى ينتظم أفكار الانسان ومواقفه •

وقد يرد على الخاطر ، ونحن نحاول أن نتبين الوحدة الفكرية فى فلسفة عبد الناصر هذا السؤال :

هل أعد عبد الناصر قبل قيامه بالثورة مخططا فكريا شاملا ضم بين ثناياه كل الأفكار التى قدمها بعد ذلك ؟ ـ من السخف أن نجيب على هذا السؤال بالايجاب ما دام عبد الناصر يصرح لنا فى « فلسفة الثورة » بهذه العبارات : « لم نكن على استعداد • وذهبنا نلتمس الرأى من ذوى الرأى والخبرة من أصحابها •• ومن سوء حظنا لم نعثر على شىء كثير » • لم يكن عند عبد الناصر عشية قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الا ذلك الأمل الذى كان يداعب كثيرا من الشبان مثله فى ذلك الحين ، وهو أن يرى وطنـــه متحررا قويا • ومن الممكن أيضا أن نضيف الى هذا الأمل أفكارا أخرى كان عبد الناصر قد تبين ملامحها فى صورة غامضة عشية قيام الثورة ، وهو لم يعد ابن أربعة وثلاثين ربيعا ، وذلك مثل التحرك الايجـــابى بعيدا عن الانفعال ـ شحن الجماهير بالأفكار بدلا من العواطف ـ تلازم الثورتين السياسية والاجتماعية ـ تلازم الحريتين السياسية والاقتصادية ـ مقاومة عزلة مصر وضرورة تحركها فى ثلاث دوائر : الدائرة العربيـــة والدائرة الافريقية والدائرة الاسلامية • لكن ليس فى أيدينا دليل يجعلنا نقطع بأن هذه الأفكار كانت قد تبلورت فى فكر عبد الناصر قبل ثورة يوليو ، لأنها وردت فى كتاب « فلسفة الثورة » الذى ألف بعد قيام الثورة بسنوات • وان كنا نميل الى الرأى أنها كانت على أى حال أفكارا تشغل بال عبد الناصر كما كانت تشغل بال غيره من الشباب الواعين الوطنيين من أبناء جيله الذين كانت تصطدمهم وتلح على تفكيرهم ظواهر كثيرة مثل تطاحن الأحزاب القائمة حينذاك ، الفوارق الكبيرة بين الطبقات ، ضعف مركز مصر وتدهور سمعتها فى المحيـــط الدولى ، تحكم الاستعمار فى مقدراتنا السياسية والاقتصادية ••• الخ •



ولا حاجة بنا الى الافاضة في الاجابة على هذا السؤال التـاريخى لأنها لن تفيدنا فيما نبحث عنه هنا ٠

ولنطرح سؤالا آخر أكثر جدوى ، مثل هل كان عبد الناصر ، بعد أن نضج فكره واتضحت معالمه وتمرس بادارة الدولة ، هل كان يترك نفسه نهبا للأحداث ، تحركه وتسيره ، وتوحى اليه بهذه الفكرة أو تلك حيثما اتفق ووفقا للظروف التى تطرأ ؟ أم كان يفكر ويسلك وفقا لفكرة أو مجموعة من الأفكار المحددة التى لم يحد عنها طوال حياته ، والتى نستطيع أن نتلمسها فى كل ما جادت به قريحته وما تمخضت عنه مواقفه وما قدم لشعبه من منجزات ؟ وبعبارة أخرى نسأل : هل كان عبد الناصر يصدر فى فكره ومواقفه عن وحدة فكرية واضحة المعالم ؟ أم أنه كان مجرد ممارس للسياسة ، تساعده الظروف فى ممارسته لها مرة وتقف فى وجهه مرة أخرى ، دون أن يمسك هو بزمامها ، ويقودها الى حيث يريد وفقا لخطة موضوعة ونظرة موحدة ؟

لكى نجيب على هذا السؤال **علينـــا أن نفرق أولا بين نوعين من الوحدة : الوحدة الجامدة ، والوحدة العضوية** ٠ والوحدة الجامدة هى تلك الوحدة المذهبية التى تفرض على الأحداث من الخارج، وتنشر عليها اطاراتها وقوالبها فتحتويها فى دائرتها المقفلة التى لا مجال فيها للنمو ٠ أما الوحدة العضوية فأهم ما تتميز به أنها تقبل النمو ، وتظل منفتحة على الواقع والتطبيق تأخذ منهما وتعطيهما ٠ وواضح أن الوحدة الفكرية فى فلسفة عبد الناصر من النوع الثانى لا الأول ٠ فهى ليست وحدة مذهبيـــة لأن عبد الناصر لم يقدم لنـــا مذهبا فكريا معماريا على طراز تلك المـذاهب الشامخة التى يستوى فيها عند القارىء أن يقرأها من أولها أو آخرها ، لأن أولها سيسلم حتما الى آخرها ولأن آخرها سيقود بالضرورة الى أولها٠ كان عبد الناصر ضد هذه الوحدة المذهبية النظرية فيقول مثلا : « اننا لم ننهمك فى النظريات بحثا عن حياتنا ، وانما انهمكنا فى حياتنا ذاتهـــا بحثا عن النظريات » ٠ ونراه يكرر فى مناسبات عدة أن **الثورة مستمرة،** بمعنى أنها لم تتجمد عند صياغة معينة ٠ وهى مستمرة بمعنى أنهـــا تتقدم ولا ترجع الى الوراء أبدا وأنها فى تقدمها تنسج حولها أفكارا جديدة وتكسب أرضا جديدة فى حقل التطبيق ٠ فقد أخذت مثلا بالخط الاشتراكى فلا رجعة اذن عن هذا الخط ، ومن واجبنـــا المحـافظة على المكتسبات الاشتراكية التى حصل عليها الشعب حتى الآن فى هذا المجال ٠ لـكن علينا بالاضافة الى هذا أن نسأل أنفسنا من آن لآخر عن الأرض الجديدة التى كسبتها الاشتراكية فى التطبيق ٠ وبهذا نحقق استمرار الثـــورة بالمعنى الذى كان يقصده عبد الناصر ٠ وقد وجدنا فى وحدة قوى الشعب العامل ممثلة فى الاتحاد الاشتراكى العربى الصيغة الملائمة لحشـد قوى الشعب من أجل المضى فى الثورة ٠ فلا رجعة اذن عن هذا الخط ٠ لـكن علينا أن نسأل أنفسنا ما هى الوسائل التى نتخذها فى المستقبل لزيادة فعالية العمل بين القواعد الشعبية وتوضيح اختصاصات اللجان المختلفة فى بناء الاتحاد الاشتراكى العربى لنؤكد بهذا سيطرة قوى الشعب على العمل الوطنى وتوزيع المسئوليات على القيادات المختلفة ٠٠ وهكذا وهكذا٠ وقد تنبهنا مثلا عقب النكسة ، وكان هذا فى بيـــان ٣٠ مارس ، الى أن الدولة الحديثة لابد أن تتصف بالعصرية وتقوم على العلم والتكنولوجيا٠ وكان انتباهنا الى هذا فى حد ذاته كسبا كبيرا ٠ فلا رجعة عن هذا أبدا ٠

لكن علينا أن نسأل أنفسنا ما الذى فعلناه وسنفعله فى المستقبل لاستمرار هذا الخط العصرى ٠

وليس من شك فى أن استمرار الثورة بهذا المعنى هو الذى جعلها فى الماضى وسيجعلها فى المستقبل ذات وحدة عضوية متفتحة ٠ وعلينا فى هذا الصدد أن نفرق بين الاستمرار ومجرد الامتداد ٠ **فالاستمرار امتداد حى ديناميكى ٠ أما الامتداد فهو تتابع استاتيكى تراكمى** ولهذا فليس من الضرورى أن يشتمل الامتداد على عناصر جديدة طريفة ٠ أما الاستمرار فلابد أن يشتمل على ما هو جديد ، لأنه امتداد بالقديم فى صورة جديدة ٠ والاستمرار الثورى بالاضافة الى ما يعنيه من المحافظة على الخط العام ، فهو يعنى كذلك تطويرها الدائم والعمل على تدفق مياه جديدة فيها ومن حولها ٠

كان عبد الناصر العظيم يقول لنا فى مناسبات عدة أنه ليس رئيس جمهورية وليس رئيس دولة بل قائد ثورة ٠ وكنا نحس فى كلماته الصدق كل الصدق ، لأنه ثورى ، والثورى لا يكذب على الثورى كما يقول كاسترو وكنا نحس فى حرص عبد الناصر على استمرار الثورة بالمعنى الذى حددناه حرصه على أن يحتفظ **بهذا التوتر الثورى** فى داخل نفسه وفى نفوس أفراد الشعب على السواء ٠ فعلينا اذن أن نحافظ على تلك الجذوة المتقدة فينا ٠ فقد كان « شارل بيجى » يقول : « اياكم اياكم أن تتضاءل الجذوة فتتحول فيكم الى عادات سلوكية » ٠ وهى كلمة صدق ٠

ولكى يؤكد تلك الوحدة العضوية فى فكره نرى عبد الناصر يصف الثورة بالاضافة الى استمرارها بأنها متحركة ٠ **فالثورة متحركة** ٠ والحركة هنا هى الديالكتيك بالمعنى الفلسفى ٠ أى أن الثورة ديالكتيكية ٠ بمعنى أنها تضع نفسها عند نقطة الاحتكاك بين الفكر والواقع ، وعلى الحدود القائمة بينها لتحتفظ لنفسها دائما بحرية المبادءة ، ولتنتقل فى يسر من الفكر الى الواقع وبالعكس ، مؤمنة ايمانا راسخا بأن الفكر فى حركته الخاصة يتغذى بحركة الواقع ويقتات عليها وينمو فيها ، وبأن الواقع فى حركته يشرق ويضيىء بعالم الأفكار ، وبأن الحركتين تتبادلان فى علاقة ديناميكية حية ٠

وليس من شك فى أن هذا الوصف من شأنه أن يساعد على اثراء الوحدة العضوية التى تحدثنا عنها ، ومن شأنه كذلك أن يبعد هذه الوحدة عن أى تصور جامد متحجر ، ومن شأنه أن يجعلها دائما متفتحة قابلة للنمو والزيادة ٠

لكن أهم ما تتصف به الوحدة العضوية فى فكر عبد الناصر ارتباط الأجزاء فيها بالكل ، وحياة الكل فى أجزائه ٠ وعندما نتحدث عن الأجزاء هنا فاننا نقصد بها الزوايا المختلفة التى نستطيع أن ننظر الى فكر عبد الناصر من خلالها ٠ أما الكل فنقصد به الاطار العام الذى يضم كل هذه الزوايا ، وتبدو متكاملة فى داخله ٠



وسنحاول الآن أن ننظر الى فلسفة عبد الناصر من خلال بعض الزوايا الرئيسية التى تميزت بها ٠ اذ لا شك أن فكر عبد الناصر قد تميز

ببعض العلاقات أو الأفكار المحددة ، ولم يكن فكرا فضفاضا يتسع لكل شيء ، كما قد يبدو للقارىء بعد الحديث عن الصفحتين السابقتين للوحدة العضوية • ووقوفنا على هذه الزوايا أو الأفكار من شأنه أن يقنعنا **بأن عبد الناصر كان بعيدا كل البعد عن أية ممارسة عشوائية فى عالم الفكر والسياسة معا** •

لننظر مثلا الى فكر عبد الناصر من زاوية هامة هى زاوية «الانسان» • فقد كان اعتزازه بالانسان كبيرا حقا ، وكانت فلسفته كلها فلسفة انسانية من الطراز الأول • وأهم ما كان يعتز به عبد الناصر فى الانسان كرامته وحريته • والكلمتان هنا بمعنى واحد ، كما أوضحنا ذلك سابقا عند الحديث عن اعتزاز عبد الناصر بكرامته •

لكن علينا أن نفهم هاتين الكلمتين فهما صحيحا • وذلك لأن من الممكن أن نفهم هاتين الكلمتين من منظور فردى بحت • وقد كانت جناية الثورة الفرنسية على الانسانية بوجه عام أنها جعلتها تفهم أمثال هاتين الكلمتين من منظور فردى خالص • لقد كانت الثورة الفرنسية تخاطب كرامة الانسان وحريته • لكن أى انسان ؟ هذا هو السؤال • انها خاطبت انسانا مجردا ، انسانا معزولا عن مجتمعه ، انسانا أنانيا ، كثير المطالبة بالحقوق ، حريصا كل الحرص على أن يوفر لنفسه أولا وقبل كل شيء أكبر قدر من الربح • وهذا الانسان هو الانسان الذى تعرفه الديموقراطية البرجوازية • وهو مختلف تماما عن الانسان الواقعى الممتد بجذوره فى ظروف حضارية وسياسية واقتصادية معينة • ومن الممكن ان الانسان الذى خاطبته الثورة الفرنسية ليس انسانا بل الها عظيما • وهذا الانسان ــ الاله هو الخصم الأكبر لكل الفلسفات المعاصرة ولكل الفلسفات المعاصرة ولكل المذاهب السياسية المعاصرة أيضا •

وعبد الناصر عندما يخاطب فى الانسان حريته وكرامته فهى لايعنى بطبيعة الحال تلك المعانى المجردة لها • وذلك لأن **الحرية الانسانية** عنده ، وكما ينبغى أن تكون وكما يفهمها كثير من الفلاسفة المعاصرين ابتداء من هيجل ــ **تقوم على أساسين اثنين : الرفض والاختيار** • الانسان الحر هو الذى يرفض ويملك الرفض ويقوى على ممارسته • وهو أيضا الذى يختار ويملك الاختيار ويقوى على ممارسته • وهو فى رفضه واختياره انما يرفض ظروفا ومواقف محددة لا يقبلها ويحاول تحطيمها وهدمها ، ويختار ظروفا ومواقف أخرى يقبلها ويبنى كيانه على أساسها •

وفى المبادىء الستة التى أعلنها عبد الناصر للشعب قبل ظهور الميثاق وأعاد ذكرها مرة أخرى فى الباب الأول من الميثاق يتجلى بوضوح **هذان الجناحان للحرية : جناح الرفض وجناح الاختيار** • وقد تمثل الرفض فى المبادىء الثلاثة الأولى ، وتمثل الاختيار فى المبادىء الثلاثة الأخرى • فقد

رفض المبـــدأ الأول الاستعمار ورفض التعـاون مع أعوانه من الخـونة المصريين . أما المبدأ الثانى ففيه رفض للاقطاع . والمبدأ الثالث رفض الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم . وبعد الرفض يأتى دور الاختيار لأن الرفض هدم ، وبعد الهدم يأتى البناء وتمثل البناء فى اختيار ثلاثة مبادىء هى المبدأ الرابع والخامس والسادس . فاختار المبدأ الرابع العدالة الاجتماعية كأساس هام يقوم عليه بناء المجتمع المصرى الذى أزاح من طريقه كل ضروب الاستغلال والاستبداد فى الخارج والداخل . واختار المبـدأ الخامس من أجل بناء هذا المجتمع اقامة جيش وطنى قوى . أما السادس فجاء تتويجا لعملية الاختيار البنــاء ، من حيث انه اختار اقامة حياة ديموقراطية سليمة . وهو يقصد بالديموقراطية السليمة ألا تكون مجرد ديموقراطية سياسية بل ديموقراطية اجتماعية اقتصادية .

هذه المبادىء الستة رسمت طريق كرامة الانسان ، أو ـ والمعنى واحد ـ طريق حرية الانسان فى الوطن العربى كله . ومن الواضح هنا أن الانسان العربى المعاصر ليس انسانا مجردا ، انه ذلك الانسان الذى ارتبطت حياته بظروف واقعية : سياسية واقتصادية واجتماعية معينة ، وتحددت بالتالى حريته أو كرامته بمراعاته لهذه الظروف ، سواء كانت هذه المراعاة رفضا أم اختيارا .

وبوسعنا بعد هذا أن ننظر الى كل المواقف والقرارات السياسية التى وقفها واتخذها عبد الناصر من خلال هذا المنظور الموحد فسنجدها متسقة تمام الاتساق معه : قانون الاصلاح الزراعى ـ محاربة الرجعية فى كل صـورها الحزبية والرأسمالية المسـتغلة ـ تحقيق الجلاء ـ كسر احتكار السلاح ـ تأميم القناة ـ التنمية الاقتصـادية ـ رفض الاستسلام فى عام ١٩٥٦ ـ قانون الاصـلاح الزراعى المعـدل ـ ظهـور القوانين الاشتراكية عام ١٩٦١ ـ ظهور الميثاق عام ١٩٦٢ ـ السد العـالى ـ استصلاح الوادى الجديد ـ التعاون مع المعسكر الاشتراكى ـ رفض الهزيمة عام ١٩٦٧ ـ البحث عن أشكال متعاقبة لتجميع قوى الشعب فى تنظيم سياسى موحد كان آخرها هو تنظيم الاتحاد الاشتراكى العربى بتشكيلاته الهرمية التى تبدأ من لجنة الوحدة فى القرية أو الحى حتى اللجنة التنفيذية العليا ... الخ . وفى بعض هذه المواقف والقرارات يتجلى الرفض ، وفى بعضها الآخر يتجلى الاختيار . لكنها تتفق جميعها فى سعيها الى تحقيق حرية الانسان المصرى العربى وتوفير كرامته . وما دام الهدف هنا هو اظهار الوحدة فى فكر عبد الناصر فمن الميسور جدا تجميع هذه المواقف والقرارات ووضعها كلها تحت باب واحد هو باب الحرية الانسانية .



ومن الممكن أن ننظر الى فهم عبد الناصر للاشتراكية على أنه يدخل فى هذا الباب أيضا . فالاشتراكية تهدف الى تحقيق الرفاهية للجماهير

العريضة والانتقال بها الى حياة أفضل · لكن هل نقيمها على دكتاتورية الطبقة العاملة ؟ ـ **لقد رفض عبد الناصر أن نقيم الاشتراكية على دكتاتورية أية طبقة ، حتى لو كانت هذه الطبقة هى الطبقة العاملة ، وآثر أن يقيمها على تحالف قوى الشعب العامل** · وهذا معناه أنه وقف الى جانب كرامة وحرية كل الناس ، فيما عدا حرية أعداء الثورة من الرأسماليين والبرجوازيين · **ورفض عبد الناصر أيضا أن يكون هدف الاشتراكية هو تملك وسائل وأدوات الانتاج · وآثر أن يكون هدفها السيطرة** عليها ، بما يضمن لنا عدم الاستغلال ، وبما يسمح للرأسمالية غير المستغلة وللقطاع الخاص استثمار الأموال وتنمية الدخل ·

وعلينا نحن الذين نتابع السير فى الطريق : طريق عبد الناصر ، تقع مسئولية متابعة هذا الرفض وذلك الاختيار ، لنوفر للانسان المصرى حريته وكرامته ، وستواجهنا حتما ظروف جديدة تفرض علينا رفضا أو أكثر لمواقف جديدة يضاف أو تضاف الى حلقات الرفض السابقة ، وتفرض علينا اختيارا أو اختيارات جديدة يضاف أو تضاف الى سلسلة الاختيارات السابقة · ومن خلال رفض جديد أو اختيار جديد سيتضح لنا جميعا أن الثورة مستمرة فى طريقها الديالكتيكى الحركى المتجدد المتطور · لكنها ستظل دائما أبدا تلك الثورة العظيمة التى تخضع لمبادىء موحدة ، كذلك المبدأ الموحد الذى فرغنا من الحديث عنه الآن ·

***

ونستطيع أن ننظر الى فلسفة عبد الناصر والى سياسته من خلال مبدأ موحد آخر مثل مبدأ العروبة : عروبة مصر · فهذا المنظور لاتخطئه النظرة الفاحصة أبدا · وفى كل مواقف عبد الناصر كانت العروبة بمثابة محور الارتكاز أو العمود الفقرى الذى تشبث به عبد الناصر طوال حياته منذ اشتراكه فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن نجح فى توقيع الاتفاقية بين السلطة الأردنية والمقاومة الفلسطينية عقب الأحداث الدامية التى وقعت بينهما ، والتى لا نشك لحظة فى أن وقوعها المؤسف كان من الأسباب القوية التى عجلت بوفاته ·

ففى مواجهة تلك الدعوات البغيضة التى كان يرددها بعض السذج من المصريين فى أوائل هذا القرن والتى كانت تقول بأن مصر فرعونية أو التى ردد فيها البعض ـ وما يزال بعضهم يرددونها حتى اليوم ـ أن مستقبل مصر فى عزلتها وفى أن تقفل الباب على نفسها ، فى مواجهة تلك الدعوات قام عبد الناصر منذ الوهلة الأولى يعلن أن **الوجه الحقيقى لمصر هو وجهها العربى** · ولم يكفر البطل بهذا الوجه أبدا · كان أكثرنا ايمانا بالعروبة ينظر فى بعض الأحيان الى هذا الوجه فينكره ، ويسرح

الطرف الى العرب فى نفاقهم وتمزقهم ومعاركهم الجانبية التى شتت شملهم وقطعت بينهم الأوصال وحطمت جميع الكبارى ونقط اللقاء فيصيبه اليأس ويدعو الى انكماش مصر • لكن عبد الناصر كان دائما الرجل الذى سيقول عنه التاريخ انه لم يكفر بالعروبة حتى فى أحلك الظروف •

ولقد بذل عبد الناصر وبذل الشعب المصرى معه من أجل هذا الوجود العربى تضحيات كثيرة • فلقد ساندت مصر ثورة الجـزائر وثورة اليمن والثورة الفلسطينية ، ووقفت الى جانب السـودان وليبيا فى ثورتيهما التحريريتين • وحتى ابان الهزات العنيفة التى أصابت الوجود العـربى بالتصدع ، وعلى سبيل المثال أيام الانفصال الذى فصل بين الشـمـال (سورية) والجنوب (مصر) فى الجمهورية العربية المتحدة ، وأيام الحرب الدامية التى قامت أخيرا بين السلطة الأردنية وقوات المقاومة الفلسطينية وأودت بحياة الرئيس ؛ لم يتزعزع ايمان عبد الناصر بهذا الوجود العربى أبدا • وكانت فكرة عبد الناصر فى ايمانه هـذا أن العـالم العربى يموج بصراعات كثيرة تعكس مصـالح الطبقـات الحاكمة والطبقـات الرأسمالية والبرجوازية التى تساندها أكثر مما تعكس مصالح الجماهير العريضة • ولهذا كان مؤمنا بأن النصر فى هذا الصراع سيكتب لهذه الجماهير صاحبة المصلحة العليا ان عاجلا أو آجلا •

والدعوة الى عروبة مصر لم تكن تمثل عند عبد الناصر دعوة قائمة على أفكار عفى عليها الزمن ولم تعد تتمشى مع روح القرن العشرين مثـل فكرة الجنس : الجنس العربى • ويخطىء كل من يحاول اقامة العروبة أو القومية العربية فى فكر عبد الناصر على هذه الفكرة البالية• بل ان العروبة لا تقوم أيضا عند عبد الناصر على فكرة الدين الاسلامى الذى يدين به معظم العرب ، بالرغم من أهمية الدين فى فهم العروبة أو القومية العربية• والسبب فى رفض عبد الناصر لهذين الأساسين عند حديثه عن القومية العربية أو عن عروبة مصر أن العروبة أو القومية العربية ليست فى رأى عبد الناصر مجرد « فكرة » ذهنية فى عقولنا ، نحللها الى عناصرها ، أو أجزائها فنظفر ببعض المقومات النظرية فى مجال « المعرفة » مثـل فكرة الجنس العربى وفكرة الدين الاسلامى • انها وجود قائم •وفى ضوء هذا التفسير علينا أن نفهم تلك العبارة التى وردت فى أول الباب التاسع من الميثاق والتى يقول فيها عبد الناصر : « ان الأمة العربية لم تعد فى حاجة الى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها • لقد جاوزت الوحدة هذه المعرفة وأصبحت حقيقة **الوجود العربى ذاته** » •



هذا الوجود العربى قائم ، يفرض كيانه على من يسلم به ومن ينكره ، على من يعرفه ومن يدعى الجهل به • وهو يستند على مقومات واقعية مثل : وحدة اللغة ووحدة التاريخ النضـالى ووحدة الأمل فى مستقبل مشرق تظلله حياة أفضل للجماهير العريضة • وهذه المقومات تمثل جوهر الوجود

العربى فى الماضى والمستقبل معا ؛ تمثل حياة هذا الوجود من الداخل • ولهذا فستظل باقية على الدهر •

***

ونصل أخيرا الى المبدأ الثالث الموحد فى فكر عبد الناصر • وهو الذى يعكس البعد الثالث فى شخصيته ، الا وهو قدرته الخارقة على احتـواء الأطراف والسيطرة عليها • فلقد كانت ترجمة هذا البعد فى دنيا الفكر والسياسة هو مبدأ عدم الانحياز الذى آمن به عبد الناصر منذ باندونج ولم يحد عنه طوال حياته •

ومبدأ عدم الانحياز ليس الا صياغة ملائمة لحركة القومية العربية الدولية ، صياغة توفر لها المناخ الملائم الذى يحقق أهدافها ويبعدها عن التكتلات • ومن الواضح أن هذا المبدأ ينطوى بالدرجة الأولى على رفض الحركة العربية للانحياز مع الغرب ، وذلك كنتيجة للصدام الدموى المباشر بين هذه الحركة وسيطرة الاستعمار الغربى فى منطقة الشرق الأوسط • ومن أجل هذا فهم المعسكر الغربى هذا المبدأ على أنه مبدأ عدائى له ، لأنه فسره بقوله : « من لا يكون معنا فهو علينا » • لكن المعسكر الاشتراكى لم يفهمه أبدا وعلى هذا النحو المغرض • حقا ؛ ان مبدأ عدم الانحياز ينطوى كذلك على رفض العرب للانحياز مع المعسكر الاشتراكى ، الا أن دول هذا المعسكر وعلى رأسها دول وشعوب الاتحاد السوفييتى قد تعاونت معنا الى أقصى الحـدود وأثبتت حسن نواياها وحرصها الأكيد على المحـافظة على السلام فى المنطقة • ومن أجل هـذا ، فان مبدأ عدم الانحياز كمـا فهمه عبد الناصر ينطوى على تعاون مع دول الاتحاد السوفييتى وشعوبه • وهذا هو عنصر الايجابية فيه •

والمعنى الحقيقى لمبدأ عدم الانحياز ليس قائما فى البعد عن التكتلات بقدر ما هو قائم فى العلو عليها واحتوائها • اننا لم نقل بهذا المبدأ لارضاء الكتلتين الشرقية والغربية معا ، ولم نقل به لكى نقف موقفا وسطا فى الصراع القائم بينهما ؛ أو لنقدم فى المشكلات الدولية حلا وسطا يتسم بكل الضعف الذى تتسم به الحلول الوسطى • انه مبدأ ديالكتيكى حركى ، يتصف بالمرونة والقدرة على الوقوف فى وجه التكتلات المغرضة التى تفسد على الانسانية أمنها وسلامها •

وهذا المبدأ يمثل خطا واضحا فى الفكر السياسى لعبد الناصر • آمن به عن اقتناع • وآمن به الشعب المصرى عن اقتناع كذلك ••

وحدة فى الشخصية أدت الى وحدة فكرية متكاملة • تلك هى معجزة عبد الناصر الخالدة فى كلمات معدودة •

يحيى هويدى





الاشتراكية العلمية فى الفكر الناصرى

د. فؤاد مرسى

هذه محاولة سريعة لاقتفاء خطى وتحديد معالم مفهوم الاشتراكية العلمية عند جمال عبد الناصر . ليس لى فيها فضل سوى كتابتها ، لأن صاحبها على الأرجح هو جمال عبد الناصر نفسه . وكأى مفكر كبير هو فى الوقت ذاته قائد الثورة ورجل الدولة ، ومن ثم كان شخصية غنية متعددة الجوانب ،فلسوف تخرج عنه تفسيرات شتى تذهب فيه مذاهب متعددة . وبالطبع فانما أقدم اجتهادى الشخصى هنا . اننى أقدم فهمى الخاص لمفهوم عبد الناصر فى موضوع بالغ الاهمية والخطورة هو موضوع الاشتراكية العلمية . وفى تقديرى ان عبد الناصر ، وقد اكتملت صورته يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، قد صار ملكا للتاريخ والبشرية جمعاء ، لا يستطيع أن يحتكره أحد .

ولقد حاولت أن أتتبع كل ما قال أو كتب منذ ٢٣ يولية ١٩٥٢ وبخاصة حتى حرب يونيو ١٩٦٧ حين غطت قضية تحرير الارض المحتلة على القضية الاجتماعية . وقد تبينت أن أهم الوثائق التى تحمل فكر عبد الناصر فى الاشتراكية العلمية هى من حيث الترتيب الزمنى : أقواله فى جلسات اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ، ثم ميثاق العمل الوطنى ، ثم أقواله فى جلسات المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ، ثم حديثه فى جلسة افتتاح دور الانعقاد الثانى لمجلس الامة فى ١٢ نوفمبر ١٩٦٤ . ومن الممكن أن نضيف بيان ٣٠ مارس كتصوير أخير لوضع القضية الاجتماعية فى اطار احتدام المعركة الوطنية .

تباشير المفهوم الاشتراكى :

بالطبع كانت الاشارة الاولى للثورة الاجتماعية فى كتاب (فلسفة الثورة) . وكانت الاشارة واضحة ، لكنها لم تكن كافية .

« لكل شعب من شعوب الأرض ثورتان ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه أو من جيش معتد أقام فى أرضه دون رضاه . **وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الامر فيها على مايحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد** » .

فالثورة الاجتماعية اذن هى صراع بين الطبقات



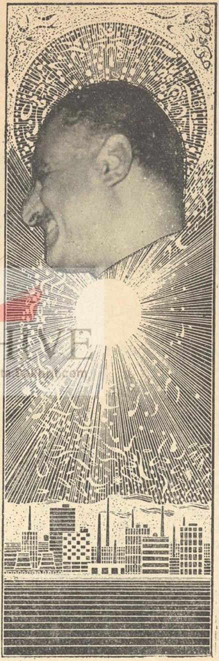
هدفه تحقيق العدالة · أى أن العدالة لن تتحقق الا بعد مرحلة من الصراع ثم يستقر الامر ·

« الثورة الاجتماعية من أول مظاهرها تزلزل القيم وتخلخل العقائد وتصارع المواطنين مع أنفسهم أفرادا وطبقات وتحكم الفساد والشك والكراهية والأنانية ».

لكن فى ٥ ديسمبر ١٩٥٧ ، فى المؤتمر التعاونى ، رفع عبد الناصر شعار الاشتراكية · هنا لأول مرة نجد كلمة الاشتراكية بوضوح ·· انه يطالب بالاشتراكية صراحة · ويبدأ فى طرح أهم عناصرها ·

« ان الاشتراكية التى نعنيها هى التطور لصالح الشعب وليس التطور لرفع مستوى الاقلية التى كسبت فى الماضى · ولكن التطور لأجل رفع مستوى أغلبية هذا الشعب ·· هل تحرك من مرحلة الى مرحلة ؟ وكيف ؟ وكما قلت لكم نتحرك من مرحلة الى مرحلة وفقا لمقتضيات الاحوال ووفقا لاحتياجات الشعب **نريد أن يحل محل النظام الاقتصادى الاستغلالى والاحتكارى نظام اقتصادى اشتراكى ديمقراطى تعاونى من أجل مصلحة الغالبية العظمى للشعب ··** لا من أجل مصلحة فئة قليلة هى التى تستغل وهى التى تحتكر وهى التى تكسب مكاسب باهظة على حساب الشعب ·· نريد أن نعمل على ألا تخضع أية طبقة أو يخضع أى قسم من المجتمع لطبقة أخرى أو قسم آخر · **نريد أن نتخلص من استغلال الانسان واستغلال المجتمع لبعضه ·· استغلال الأقلية فى المجتمع للأغلبية فى المجتمع ·· ونقرب الفوارق بين الطبقات ·· ننظم اقتصادنا وفقا لخطة موضوعة لصالح الشعب لا لصالح عدد من الافراد ·**

نراعى مبادىء العدالة الاجتماعية · **نوفق بين النشاط الاجتماعى العام الذى تقوم به الدولة والنشاط الاقتصادى الخاص** الذى يقوم به الافراد على ألا يضر هذا بصالح المجتمع ·· على أن يستخدم رأس المال فى خدمة الاقتصاد القومى كاقتصاد



الشعب ولا يستخدم لمصلحة أفراد على حساب الشعب • **وتعمل على تشجيع التعاون ونقيم التعاون بدل الفرديه التى تحكمت فينا وتمكنت منا • نعمل على توسيع التأمين الاجتماعى** • نقرر أن التضامن هو أساس المجتمع

يتضح من هذا كله أننا كدولة تهدف الى القضاء على الفردية والانانية • **ولكننا لا نسعى لاقامة رأسمالية من الدولة الدولة تشترك مع الشعب وتعتبر أن لها الولاية وهذه الولاية تضعها موضع حماية مصالح صغار الرأسماليين وصغار المدخرين** مع الرأسماليين الآخرين • لكن فى نفس الوقت نحن لا نريد أن تكون رأسمالية الدولة بل نعتبر أن **رأس المال الخاص حر** ما دام يعمل لمصلحة الشعب ويعمل للخير العام وفى نفس الوقت نتدخل بمعنى أننا لا نريد أن نقضى أو نصفى الرأسمالية • ولكن نرى أن من واجبنا أمن نواقبها ونعتبر نحن أن رأس المال الوطنى ضرورة لازمة فى هذا الوقت من أجل تطوير الاقتصاد القومى • ولكنا يجب أن نلاحظ أن رأس المال هذا لا يتحكم فى الحكم ولا يسيطر على الحكم من أجل استغلال الاغلبية العظمى لهذا الشعب • **ليس هدفنا أن نحارب رأس المال الوطنى لكن غرضنا أن نوجه رأس المال الوطنى للخدمة العامه** ونمنع استغلال رأس المال للمجتمع وللأفراد •

لازم نستخدم جميع العناصر الممكنة • نستخدم الرأسمالية الوطنية من أجل التنمية الاقتصادية • نستخدم الرقعه الزراعية الموجودة من أجل رفع المستوى **فيها • لنضع فى اعتبارنا مصالح العمال وأيضا مصالح رأس المال الوطنى • لازم ندخل فى اعتبارنا التعاون بين الريف وبين المدينة • وهذا يحتاج الى قيادة اقتصادية** • والقيادة الاقتصادية هذه **يلزم أن تكون موجودة للدولة التى هى لها الاولوية والتى تحمى كل طبقة من الطبقة الاخرى • وكل صاحب مصلحة من** صاحب المصلحة الاخرى • والحكومة هى

صاحب المصلحة الاخرى • والحكومة هى

المصالح وبين جميع الطبقات فى نفس الوقت . **لهذا تكون عندنا خطة شاملة لرفع الانتاج** » .

هكذا طرح عبد الناصر لأول مرة مفهومه عن الاشتراكية ، فقد كانت الثورة قطعت مرحلة كاملة ، تصدت فيها لمناورات رأس المال الاجنبى التى بلغت حد الغزو الثلاثى ، كما تعرضت فيها لمراوغات رأس المال الكبير وعجزه عن القيام بالتنمية الاقتصادية الملحة ــ هذا بينما فرضت الطبقات الشعبية وجودها الكبير بدورها فى مقاومة الغزو الثلاثى .

وقد أكد عبد الناصر فيما بعد صحة هذه البداية . فقال فى احدى جلسات اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية :

« فى سنة ١٩٥٧ تكلمت فى مؤتمر التعاون وقلت كل شىء . والذى يرجع الى هذه الخطبة سوف يجد الخطوات التى اتخذت سنة ١٩٦١ بالتفصيل .

بدأنا فى سنة ١٩٥٧ نتكلم عن الاشتراكية وندعو للاشتراكية وبدأنا فى فى سنة ١٩٥٧ نرفع شعار اقامة مجتمع اشتراكى ديمقراطى تعاونى . ولم نكن قد رفعنا هذا الشعار قبل ذلك ، وقد نكون بدأنا عام ١٩٥٦ أول مرة . ولكن فى سنة ١٥٩٧ بدأنا نركز على هذا الشعار . وقلنا ان معركة العدالة الاجتماعية معركة من أجل العدل ومن أجل الكفاية . وكان رأينا أنه اذا كان للحرية السياسية مفهوم أن يكون للمواطن الحق فى تقرير أمر وطنه فالحرية الاجتماعية معناها أن يكون للمواطن الحق فى نصيب من ثروة وطنه لجهده الخاص» .

اذن فالبداية كانت فى عام ١٩٥٧ فى أعقاب هزيمة واندحار العدوان الثلاثى ، وما كشف عنه من دروس . لقد ألحت عندئذ ضرورات التنمية الاقتصادية لبناء اقتصاد وطنى مستقل مزدهر ، وفى الوقت ذاته طرحت قضية توزيع ثمار الانتاج . يقول عبد الناصر فيما بعد ، فى خطاب افتتاح دور الانعقاد الاول لمجلس الامة فى ٢٥ مارس ١٩٤٦ :

« لقد قمنا برحلة طويلة .. ولقد أدركنا بوضوح أن **التنمية لا بد أن تقترن بالتوزيع** »

وعندما ساله مندوب التليفزيون الامريكى فى ٢٦ أغسطس ١٩٦١ عقب التأميمات الكبرى : هل كان هذا جزءا من خطتكم الاصلية للثورة منذ تسع سنين أم انكم قررتم ذلك أخيرا لمواجهة تطورات الظروف ؟ أجاب عبد الناصر :

« منذ تسع سنوات لم تكن هناك خطة . ولكن كانت هناك ستة مبادىء أساسية منها القضاء على الاستعمار والقضاء على استغلال رأس المال وتحقيق العدالة الاجتماعية . ولقد وضعنا هذه المبادىء الستة أمامنا دائما ورحنا يوما بعد يوم وشهرابعد شهر على ضوءالتجربة الوطنية نتخذ من القرارات ما يفتح الطريق لتنفيذ هذه المبادىء » .

وفى الاجتماع الاول للجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ، بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٩٦١ ، أكد عبد الناصر هذا المعنى بطريقة حاسمة . قال :

« ما كانش مطلوب منى أبدا فى يوم ٢٣ يوليو انى أطلع يوم ٢٣ يوليو معايا كتاب مطبوع وأقول ان هذا الكتاب هو النظرية . مستحيل لو كنا قصدنا نعمل الكتاب ده قبل ٢٣ يوليو ماكناش عملنا ٢٣ يوليو .

يوم ٢٣ يوليو الكلام اللى انا باتكلمه النهاردة لو كنت قعدت معاكم يوم ٢٣ يوليو ما كنتش أعرف الكلام ده لأنى ما كنتش خشيت من تجربة العشرسنين اللى أنا اتوجدت فيها فى العشر سنين اللى فاتت » .

من واقع هذه التجربة الحافلة للثورة وبالتحديد من واقع معركة التنمية الاقتصادية أى معركة الاستقلال الاقتصادى كان استمرار الثورة يعنى أن تكتسب مضمونا اجتماعيا واضحا . انها ثورة وطنية ذات مضمون اجتماعى يتأكد مع الثورة أكثر فأكثر . وعندئذ أعلن عبد الناصر بدء الثورة الاجتماعية . يقول عبد الناصر فى الاجتماع السابق :

« فى سنة ١٩٦٠ كان من الواضح أن الثورة اللى قامت فى سنة ١٩٥٢ ، الثورة الوطنية اللى قامت فى سنة ١٩٥٢ ، على أن تكون ثورة سياسية وعلى أن تكون

ثورة اجتماعية ، خلصت دورها فى الناحية السياسية ولم تستطع أن تندفع فى دورها فى الناحية الاجتماعية » .

والواقع أن هذه المعانى كانت تدور بذهنه منذ مدة . ففى خطابه بالمؤتمر التعاونى فى ٢٦ نوفمبر ١٩٥٨ قال عبد الناصر :

« الاشتراكية فى معناها عبارة عن نواح سلبية ونواح ايجابية . النواحى السلبية تتمثل فى القضاء على آثار الماضى البغيض والنواحى الايجابية تتمثل فى البناء للمستقبل الذى ينشده كل المواطنين »

الاشتراكية اذن هى استمرار للثورة الوطنية فى مرحلة التنمية الاقتصادية . كيف؟

« فالاشتراكية هى القضاء على الاقطاع والاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم **والقضاء على الاستغلال فى الداخل أو فى الخارج . والاشتراكية فى معناها الايجابى هى اقامة اقتصاد وطنى ثم العمل على تنمية هذا الاقتصاد ثم** تطوير هذا الاقتصاد **ليواجه حاجات المجتمع والعمل على اقامة عدالة اجتماعية** » ويؤكد عبد الناصر على هذا المعنى بعد سنوات عديدة . ففى خطابه فى مؤتمر الانتاج بتاريخ ١٨ مارس ١٩٦٧ يقول :

« من هذه الاوضاع ومن تفاعلها بظروف العصر فان **الحل الاشتراكى فرض نفسه بغير بديل كطريق للتقدم الاجتماعى والاقتصادى** . ولقد كانت الاشارات الى هذا الحل واضحة فى الضمير المصرى من قبل الثورة وعبرت عنها بطريقة أمينة مبادىء الثورة الستة التى وضعت للتطبيق بعد انتقال سلطة الدولة الى يد ارادة الثورة » .

وهكذا من قلب المعركة الوطنية خرجت قرارات التمصير وخرجت خطة التصنيع وخرجت الخطة الشاملة لمضاعفة الدخل القومى فى عشر سنوات ثم خرجت قوانين يوليو ١٩٦١ ، وقال الميثاق بحق :

« ان الحل الاشتراكى لمشكلة التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى مصر وصولا ثوريا الى التقدم لم يكن افتراضا قائما على الانتقاء الاختيارى وانما كان الحل الاشتراكى حتمية تاريخية فرضها الواقع وفرضتها الآمال العريضة للجماهير كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم فى النصف الثانى من القرن العشرين » .

مشكلة الأسماء والتعاريف :

وكما اجتاز عبد الناصر طريقه بثبات الى عتبات التحول الاشتراكى ، عبر أيضا خضم الاسماء والتعاريف ليخلص الى ما هو جوهرى وأصيل .

فى الجلسة الثالثة للجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية طرح عبد الناصر المشكلة بصراحة كاملة . قال :

« هذه العملية ليست عناوين . ليست هى اشتراكية أو اشتراكية تعاونية أو اشتراكية ديمقراطية تعاونية . أبدا **العملية هى حياتنا** . بمعنى اننا وضعنا هذه الاسماء على أساس أنها أسماء متعارف عليها . وأنا من سنة ٥٦ لم أكن أريد أن أضع أسماء . ولا بد أن نضع عناوين من أجل أن نتعارف عليها . معنى هذا كله أى هذه الاسماء كلها أننا نريد أن نبنى طريق الحياة على أساس من العدالة الاجتماعية وعلى أساس من القضاء على الاقطاع والقضاء على الاستغلال والاحتكار وسيطرة رأس المال » .

ولذلك بادر فى ميثاق العمل الوطنى فأعطاها اسمها بوصفها منهجا وهو الاشتراكية العلمية قال الميثاق :

« ان الاشتراكية العلمية هى الصيغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح للتقدم **ان أى منهاج آخر لا يستطيع بالقطع أن يحقق التقدم المنشود** » .

وفيما بعد أوضح معنى الاشتراكية العلمية معنى علمية الاشتراكية . قال فى عيد العلم فى ١٤ ديسمبر ١٩٦٤ :

« اذا كنا قد أخذنا الطريق الاشتراكى للبناء **فان الاشتراكية لايمكن أن تكون الا اشتراكية علمية** . ان مجتمع الاشتراكية ليس جمعية خيرية تتبع معاييرها من نزعة الاحسان لدى كل المتبرعين بجهدهم أو بمالهم فيها . وانما الاشتراكية فكر وسلوك علمى ينبع من الحق السياسى

والاقتصادى والاجتماعى لكل انسان حر يعيش ويعمل فوق التربة الوطنية » .

من هنا اتجه عبد الناصر الى تحديد مضمون الاشتراكية ، وأعطى لتعريفها اهتماما فائقا ، وظل هذا المضمون يغتنى بمضى الزمن ، حتى صارت لدينا طائفة من التعاريف التى توجز ببراعة مفهوم الاشتراكية .

فى خطاب عيد الثورة فى ٢٢ يوليو ١٩٦١ يقول :

« ان الاشتراكية التى نتجه اليها هى اشتراكية انسانية تؤمن بالفرد وحق الفرد فى الحياة » .

وفى خطابه للمواطنين فى ١٦ أكتوبر ١٩٦١ يقول :

« فيه تعريفات متعددة للاشتراكية ولكن المفهوم الواضح البسيط للاشتراكية فى تصورى هو أنه لا بد أن يكون الدخل القومى شركة بين المواطنين **كل بقدر جهده الحقيقى فى تحقيق هذا الدخل القومى** » .

فى عيد الوحدة فى ٢٢ فبراير ١٩٦٤ يقول :

« **الاشتراكية كلمة واحدة بس معناها تحرير الانسان من الاستغلال الاقتصادى والاستغلال الاجتماعى** » .

وفى عيد الثورة فى ٢٢ يوليو ١٩٦٥ قال :

« **الاشتراكية هى منع استغلال الانسان للانسان ، هى تصفية الفوارق بين الطبقات هى خلق الظروف والدوافع لتطوير المجتمع حتى يجد الانسان كفرد والمجتمع كمجتمع كل الامكانيات المادية والفكرية والروحية** »

وكان عبد الناصر حاسما فى حديثه الى المبعوثين فى مؤتمرهم بالاسكندرية فى صيف ١٩٦٥ . قال عندئذ :

« الاشتراكية عموما هى القضاء على استغلال الانسان للانسان . **ولكن التطبيق الاشتراكى فى كل بلد يختلف عن البلد الآخر** . وفيه ناس تحب تسميها الاشتراكية العربية على أساس أن دى اشتراكية لها طابع خاص . أنا رأيى هى تطبيق عربى للاشتراكية مش هيه اشتراكية عربية . **أعتقد ان فيه اشتراكية واحدة** » .

وللأمانة التاريخية ، فلقد كان عبد الناصر حاسما فى هذا الموضوع منذ سنوات . ففى حديث أدلى به للأهرام فى ٣ فبراير من عام ١٩٦٠ كان حريصا على وضع الامور . قال عندئذ :

« سمعت عمن يرى أن نظامنا نظام وسط بين الانظمة ، وبما أننا فى موقف وسط بين الشرق والغرب فكذلك يجب أن يكون نظامنا وسطا بين الشيوعية والرأسمالية . ثم سمعت عمن يرى أنه نظام ابتكرناه وأننا نؤمن به لأننا لا نقلد به أحدا .

ولست أتصور ما هو أكثر بعدا عن الحقيقة من هذه التعليلات . فالحياد السياسى ليس موقفا وسطا بين الشرق والغرب . **ثم ان اتخاذ موقف وسط فى مجالات العقائد الاجتماعية أمر مستحيل** كذلك ليس موقفنا اختراعا ننفرد به ، وانما هو التعبير الاصيل عن ظروفنا الخاصة » .

لهذا أكد عبد الناصر مرارا على حقيقة أن جوهر الاشتراكية واحد ، لكن تطبيقها هو الذى يتفاوت من بلد الى آخر .

وفى حديثه الى الشباب فى حلوان فى ١٨ نوفمبر ١٩٦٥ قال عبد الناصر :

« الاشتراكية بتاعتنا اشتراكية تنبع من ظروفنا . **والاشتراكية هى القضاء على استغلال الانسان للانسان ، القضاء على الاستغلال بكل أنواعه . وفى نفس الوقت ايجاد مجتمع الرفاهية . دى الاشتراكية ببساطة ومنعقدش الاشتراكية .**

مفيش بابوية فى الاشتراكية ؛ مفيش نصوص جامدة ولا نصوص ناشفة أبدا »

وفى ٢٠ فبراير ١٩٦٦ طرح عبد الناصر الفرق بين الاشتراكية والاصلاح الاجتماعى . قال :

« الاشتراكية هى العدالة الاجتماعية بمعناها الصحيح لا المعنى الفارغ الذى تنادى به الرجعية والرأسمالية تحت اسم الاصلاح الاجتماعى . ان الرجعية والرأسمالية حينما تريد أن تخدر المحرومين وتخدر الناس المستغلين تنادى بالاصلاح الاجتماعى . وهى بهذا تعطى بعض الفتات مما تملك للناس حتى تلهيهم .

أما الاشتراكية فمعناها القضاء على الاقطاع كلية واستغلال رأس المال كلية وتصفية الفوارق بين الطبقات واقامة مجتمع من الكفاية والعدل » .

وفى مؤتمر الانتاج المنعقد فى ١٨ مارس ١٩٦٧ أوجز عبد الناصر مضمون الاشتراكية فى نظر كل مواطن . قال :

« الاشتراكية ليست متاهات فلسفية وليست شعارات ذات طنين . **الاشتراكية فى النهاية بيت سعيد لكل اسرة يقوم على عمل القادرين او المهيئين للعمل من أفرادها رجالا ونساء »** .

وهكذا يمكن أن نخلص بهذا التعريف الوجيز للاشتراكية : انها الغاء استغلال الانسان للانسان وتصفية الفوارق بين الطبقات تمهيدا لاقامة مجتمع الكفاية والعدل .

أولا ــ الغاء الاستغلال :

الاشتراكية هى الغاء استغلال الانسان للانسان ، وليست الاشتراكية هى الغاء الملكية بصورة مطلقة . انها ضد الملكية المستغلة ومع الملكية العامة ، الملكية المشتركة للشعب .

فى خطابه التاريخى فى ٢٢ يوليو ١٩٦١ يقول عبد الناصر بوضوح :

« **لسنا ضد الملكية بصورة مطلقة .**



ولكنا ضد الاستغلال » . ثم يضيف :

« **هدفنا هو تحويل الملكية الرأسمالية المستغلة الى ملكية عامة للشعب ، ملكية مشتركة للشعب »** .

اذن ما هو الاستغلال ؟ فى جلسة ٢٦ مايو ١٩٦٢ بالمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية يتصدى عبد الناصر لتحديد الاستغلال . يقول :

« ما هى طريقة تحديد الاستغلال بالنسبة للقطاع الخاص ؟ طبعا كلنا عارفين ما هو الاستغلال . أى حاجة ضد العدل تعتبر استغلال . أى واحد **يستغل العامل بأن يأخذ هو المكاسب ولا يعطى العامل أو الفلاح يبقى ده هو الاستغلال . أى واحد يبيع فى السوق السوداء يبقى استغلال . أى واحد طبعا عاوز يعمل مكاسب كبيرة فى أقل وقت ممكن بطريق مشروع أو غير مشروع يبقى استغلال »** .

ثم فى حديثه للعمال فى أول مايو ١٩٦٦ قال عبد الناصر أن الاستغلال هو :

« أخذ عرق العمال .. العامل اللى بيشتغل وقيمة عمله جنيه بيديك ربع جنبه وياخد هو تلت تربع جنيه » .

وعندما تكشفت أحداث كمشيش وقف عبد الناصر ليعلن فى مؤتمر شعبى فى دمنهور بتاريخ ١٥ يونيو ١٩٦٦ :

« العلاقات الاجتماعية الباقية فى أى مكان من هذا البلد والمبنية على الاستغلال أو على التمييز الطبقى مهما كانت الملكية لا بد أن نقضى عليها ونقتلعها من جذورها بأى وسيلة من الوسائل » .

ثانيا ــ تصفية الفوارق بين الطبقات :

فى نهاية عام ١٩٦٠ ، وبالدقة فى عيد النصر فى بور سعيد ، أعلن عبد الناصر مبكرا عن هدفه الاجتماعى ، قال يومها :

« **من أول أهدافنا تقريب الفوارق بين الطبقات بالقضاء على هذه الطبقات** والقضاء على تحكم رأس المال وديكتاتورية رأس المال . نقرب الفوارق بين الطبقات **وبنعمل فعلا من أجل الطبقة اللى بتعمل»**

ولكنه فى خطاب ٢٢ يوليو ١٩٦١ يطرح قضية الطبقات بعمق كبير ، انه يبدأ بوضع

الحقيقة الاجتماعية الجوهرية ، حقيقة انقسام المجتمع الى طبقات ، وقيام الصراع الطبقى بينها ، ومن ثم يطرح هدف ازالة الفوارق بين الطبقات · لكنه لا يعنى أبدا ازالة الفوارق بين الافراد أنفسهم ، يقول :

« **ان المجتمع منقسم الى قسمين أو منقسم الى طبقتين ، طبقة الملاك والمستغلين وطبقة الأجراء** » ·

ويضيف تحديدا للعملية التاريخية التى يتم بها ازالة الفوارق الطبقية :

« **عندما نقول نزيل الفوارق بين الطبقات معناها أننا نغير البناء السياسى ونغير البناء الاقتصادى ونغير البناء الاجتماعى** »

ويوضح الفرق بين الفوارق بين الطبقات والفوارق بين الأفراد :

« **ولكن ليس معنى هذا أننا نزيل الفوارق بين الافراد** · ليس معنى هذا مثلا أننا نساوى فى الاجور · كل واحد بياخد أجره وفقا لعمله ووفقا لكفاءته لتجربته طبعا · لكن هذا لا يعنى التعادل فى الأجور » ·

واذن فلا مساواة مطلقة ، وانما المساواة الفرصة المتكافئة · يقول فى خطابه للمواطنين عقب انفصال سوريا فى ١٦ أكتوبر ١٩٦١ :

« المساواة فى الاشتراكية هى مساواة فى الفرصة المتكافئة التى هى الرد الاشتراكى على الامتيازات الطبقية · وبعد الفرصة المتكافئة لكل مواطن فان كل مواطن هو الذى يحدد بنفسه وبقدراته الذاتية دوره فى المجتمع ومقدار ما يحصل عليه من هذا المجتمع » ·

هكذا تتحدد معالم قاعدة التوزيع الاشتراكى : لكل بحسب عمله · لكن ليس معنى هذا نفى الارث · يقول فى الخطاب نفسه :

« ان الارث فى تقديرى شرع سماوى وقطعة من الطبيعة البشرية ذاتها · ولكنى **أريد أن يصبح الارث فى الكفاية وليس فى الحاجة** » ·

ثم توالت شروحه للميثاق أمام المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فقال فى الجلسة الخامسة بتاريخ ٢٨ مايو ١٩٦٢ ·

« أتمنى أن نصل الى هذا اليوم الى نقول فيه اننا فعلا استطعنا أن نذيب الفوارق بين الطبقات **يوم ما نقرب الفوارق نقول فعلا كلنا عمال وكلنا فلاحين**، ولكن لم نتعد هذه المرحلة **ولازلنا فى مجتمع متعدد الطبقات** » ·

واذن فتقريب الفوارق بين الطبقات أو ازالة الفوارق بين الطبقات أو تصفية الفوارق بين الطبقات انما تعنى كلها شيئا واحدا عند عبد الناصر هو : ان نكون كلنا عمالا وفلاحين، أن ينتهى تعدد الطبقات· لكن ألا توجد فوارق بين العمال والفلاحين أنفسهم ؟ يقول عبد الناصر فى الجلسة السادسة للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٦٢ :

«بنص لقوى الشعب العاملة على أنها مجتمع فيه طبقات · **ولكن هذه الطبقات ليست متصادمة ، ولكن متناقضة** · ويمكن لنا أن نحل هذا التناقض فى اطار من الوحدة الوطنية بالوسائل السلمية ، **اما التصادم فهو تصادم مع الرجعية** » ·

واطرد فكر عبد الناصر بعد ذلك معاديا لكل الامتيازات الطبقية ، لكل امتيازات لم يكن العمل وحده مصدرا لها ·

فى خطابه فى افتتاح مجلس الامة فى ٢٥ مارس ١٩٦٤ قال بوضوح :

« **علينا ألا نسمح بظهور طبقة جديدة تظن الامتيازات ارثا لها** » ·

وبعد النكسة قال فى خطاب ٢٣ يوليو ١٩٦٧ :

«**لا بد أن نقضى على أية امتيازات تكون باقية تتجاوز حق العمل وقيمته فى خدمة المجتمع** » ·

مجتمع الكفاية والعدل :

بعد تصفية المجتمع القديم ، يتم بناء المجتمع الجديد ، مجتمع الكفاية والعدل · وجوهر الاشتراكية هو انتقال وسائل الانتاج الى أيدى الشعب ، وذلك باحلال الانتاج طبقا لخطة شاملة محل نظام الانتاج الرأسمالى ، وتوزيع ثمار الانتاج على المواطنين كل طبقا لجهده فى

"الاشتراكية ليست متاهات فلسفية وليست شعارات ذات طنين ، الاشتراكية فى النهاية بيت سعيد لكل أسرة يقوم على عمل القادرين والمهيئين للعمل من أفرادها رجالاً ونساء »

جمال عبد الناصر



تحقيق هذه الثمار · ان المهمة الرئيسية للشعب العامل هى عندئذ العمل الايجابى لاقامة نظام جديد ، غاية فى الدقة والتعقيد، لعلاقات تنظيمية جديدة ، تمتد من الانتاج الى التوزيع المخططين ·

الكفاية هى الانتاج الوفير · والعدل هو التوزيع طبقا للعمل · يقول عبد الناصر فى حديثه للمديرين فى مؤتمر الانتاج فى ١٨ مارس ١٩٦٧ :

« **ان الانتاج هو الأساس لتحقيق الاشتراكية** · ومن ثم فان خدمة أهداف الانتاج هى معيار الاخلاص للاشتراكية » وفى المنيا يقول فى خطاب بتاريخ ٩ مارس ١٩٦٥ :

« **الاشتراكية مش عمل سحرى** · الاشتراكية مش معناها ان احنا كل ما نتمناه حنحصل عليه لأن احنا رفعنا راية الاشتراكية أو لأن احنا أممنا عدد من المصانع أو الشركات أو المؤسسات » واذن فلا بد من الانتاج · لا يكفى التأميم لكن التأميم ضرورى · وقيام القطاع العام وهو قاعدة للتنمية صار أيضا قاعدة للتحول الاشتراكى · يقول عبد الناصر فى مؤتمر الانتاج :

« أصبح مؤكدا بعد ١٩٦١ أن القطاع العام الذى تحقق بتقدم شجاع بطريق التحول الاشتراكى قد أصبح بدوره أول القوى المسئولة عن مواصلة تقدم أشجع نحو أهداف الكفاية والعدل » ·

هذا فى الصناعة والتجارة · أما فى الزراعة فيقول عبد الناصر فى حديثه مع رئيسى تحرير جريدتى البرافدا والازفستيا فى ٧ أغسطس ١٩٦٢ :

« الحل الاشتراكى لمشكلة الزراعة اعتمد على أساسين : الأساس الأول ـ زيادة عدد الملاك للأرض الزراعية واتاحة حق ملكية الارض لملايين الفلاحين الذين حرموا من هذا الحق زمنا طويلا وذلك بطريقين :

١ ـ وضع حد أعلى لملكية الارض الزراعية الموجودة فعلا وتوزيع ما يتبقى على الفلاحين
٢ ـ استصلاح كل ما يمكن استصلاحه من

الارض الجديدة بواسطة مشروعات الرى الضخمة .

والأساس الثانى – تدعيم ملكية الارض بالتعاون وتحويل اقتصاد الملكيات الصغيرة من اقتصاد ضعيف الى اقتصاد قوى بالتوسع المستمر فى آفاق التعاون . ولقد أثبتت تجارب تجميع الزراعة أن هناك امكانيات هائلة فى تطوير الزراعة » .

وفى حديثه فيما بعد فى موسكو مع المبعوثين المصريين فى ٢٩ أغسطس ١٩٦٥ ، أضاف عبد الناصر :

« يمكن على سنة ٧٠ نكون حسينا ان احنا فعلا وضعنا أساس الاشتراكية بالنسبة للأرض زى ما جه فى الميثاق نحدد الارض للرجل وزوجته وأولاده بمائة فدان » .

وقد تم ذلك فعلا فى عام ١٩٦٩ . فلم يكن عبد الناصر يريد أبدا أن يصادر المستقبل . ولقد كان احساسه بالزمن احساسا عميقا . كان يقول وهو يقدم أعظم قوانين يوليو ١٩٦١ :

« **الاشتراكية طريق لا نهاية له** لأن الاشتراكية التى ننادى بها هى تطور مستمر للمجتمع » .

وعندما كان يخاطب اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فى يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٦١ قال :

« ان العمل الذى اتخذ فى يوليو الماضى لا يمثل بأى حال كل الثورة الاجتماعية اننا بدأنا فى الثورة الاجتماعية بطريقة جدية بهذه القوانين . ولكن الثورة الاجتماعية ستستمر فى طريق طويل » .

وعندما كان يقدم الميثاق للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية قال فى جلسة ٢٦ مايو ١٩٦٢ :

« ان الميثاق للجيل . وأنا كنت حريص الا أحدد حاجة فيه لأكثر من ٨ سنين . لأنه جاير ييجى ناس بعد كده يحصل عندهم تطور فكرى تقدمى أكثر من هذا الميثاق أو يحبوا يضيفوا عليه حاجات جديدة أو يعدلوه » .

وفى الميثاق أكد عبد الناصر على التخطيط بوصفه أساسا للتنمية الجديدة . فالتخطيط الاشتراكى الكفء هو الطريقة الوحيدة التى تضمن استخدام جميع الموارد الوطنية المادية والطبيعية والبشرية بطريقة عملية وعلمية وانسانية لكى تحقق الخير لمجموع الشعب وتوفر لهم حياة الرفاهية ، لكنه قبل الميثاق ، ومنذ وضعت الخطة الخمسية الاولى ، كان يعى معنى الخطة وعيا عميقا . ففى مؤتمر الاتحاد القومى فى ٩ يوليو ١٩٦٠ قال عبد الناصر :

« لقد كان هذا يحتم وجود خطة شاملة تجرى التطوير الاقتصادى والاجتماعى وفقا لها وعلى أساسها ، ولكن وضع خطة شاملة كان يتطلب أن تستبين الصورة كلها وتدرس دراسة مفصلة وفى الوقت نفسه بدء العمل دون تأخير .

وما كان يمكن أن تكون هناك خطة اقتصادية دون هدف اجتماعى .

بل لقد كان يمكن أن تؤدى الخطة الى عكس المقصود منها اذا كان الاهتمام يوجه الى ناحيتها الاقتصادية مجردا من كل وعى اجتماعى » .

وتكتمل صورة المجتمع بالديمقراطية ، فالاشتراكية هى نفسها ديمقراطية ، ونجاح الاشتراكية مرهون بتطوير وتدعيم الديمقراطية ، لكن هذه الديمقراطية هى الديمقراطية لقوى الشعب العاملة وحدها حيث يحتل الفلاحون والعمال مكانة متميزة . فهذه المكانة هى أهم نقطة فى الميثاق كله .

فى خطابه بتاريخ ٢٢ يوليو ١٩٦١ يقول :

« الاشتراكية التى نعمل فى سبيلها معناها ديمقراطية اجتماعية معناها ديمقراطية سياسية » .

وفى خطاب افتتاح مجلس الامة فى ٢٥ مارس ١٩٦٤ يقول :

« ان الديمقراطية عملة واحدة ذات وجهين : سياسى واجتماعى . وبغير الوجهين معا تصبح عملة زائفة لا سعر لها ولا قوة » .

وفى ٢٦ يوليو ١٩٦٢ يقول :

« ديمقراطية الاشتراكية هي ديمقراطية الشعب العامل الذى له الحق فى ناتج عمله وله الحق فى بلده • ديمقراطية الاشتراكية هى الديمقراطية الاجتماعية مع الديمقراطية السياسية • »

وفى خطابه التاريخى بمجلس الامة فى ١٢ نوفمبر ١٩٦٤ يقول :

« أنا باعتقد أن الاشتراكية نجاحها مرهون بتطهير وتدعيم الديمقراطية • ولكن الديمقراطية الاشتراكية الديمقراطية لقوى الشعب العاملة ما بقولش أبدا الديمقراطية للرجعية ولا الديمقراطية للاقطاعيين والرأسماليين » •

ولذلك منح الميثاق الفلاحين والعمال دون غيرهم سلطات وضمانات خاصة • يرد عبد الناصر فى جلسة المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية بتاريخ ٢٦ مايو ١٩٦٢ على تساؤلات البعض قائلا :

« أنا متأسف لازالت حقوقهم مش مكفولة ، أما عن ضمانات الحرية الفردية التى حققتها الثورة بالقضاء على الاقطاع والاستغلال وألا يتعارض هذا مع الحرية السياسية ومع حرية الانتخاب ؟ أنا اتكلمت فى هذا الموضوع وباعتبره هو أساس الديمقراطية • بل أنا باعتبر **أهم نقطة فى الميثاق هى النقطة بتاعة ال ٥٠٪ »** •

مرحلة الانتقال :

ومرة أخرى نلمس مدى احساسه العميق بالزمن ، فكل هذا البنيان الاجتماعى المنشود لن يتحقق مرة واحدة • ولا بد من مرحلة انتقالية يكون كل شىء فيها انتقاليا ، ولقد تعمق احساسه بالطابع الانتقالى للمرحلة الراهنة من خلال تجربة الخطة الخمسية الأولى بانجازاتها واخفاقاتها ، وبالعقبات والتناقضات التى كان عليها أن تواجهها •

ففى جلسة افتتاح مجلس الامة فى ١٢ نوفمبر ١٩٦٤ طرح عبد الناصر مفهوم المرحلة الانتقالية كاملا • قال :

« **احنا ما بقيناش دولة اشتراكية ولا يمكن ان احنا نقول ان احنا النهاردة دولة اشتراكية** • احنا فى مرحلة انتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية • مش معناها أبدا ان احنا نأمم شوية مصانع وبس • لأ • الاشتراكية أن نقيم مجتمع الكفاية والعدل • »

ثم يوضح الطابع الانتقالى للمرحلة الحالية من الثورة قائلا :

« القيم اللى كانت موجودة لا زالت موجودة ما تغيرتش • القيم لم تستقر بعد • وده طبيعى • العلاقات القديمة اللى موجودة لا زالت رواسب العلاقات القديمة الاقطاعية والرأسمالية موجودة • بدى أقول ان **احنا النهاردة بنمر بمرحلة انتقالية من الرأسمالية المستغلة الى الاشتراكية »** •

ثم يلمس جوهر كل ثورة وهو السلطة • يقول :

« هل جهاز الدولة اتغير ؟ **جهاز الدولة فى معظم الاحوال فضل زى ماكان** ما حصلش الا تغيير قليل » •

وفى حديثه للهيئة البرلمانية فى ١٦ مايو ١٩٦٥ يواصل عبد الناصر تأصيل موضوع المرحلة الانتقالية • فهى انتقالية لأن الاساس الاقتصادى للمجتمع ما زال متخلفا • يقول عبد الناصر :

« فى مرحلة التحول فان تغيير العلاقات الاجتماعية يقابل مشاكل كثيرة • فى هذه المرحلة التناقضات التى تقابلنا تناقضات كثيرة • ليه ؟ لأن رواسب أو بقايا العلاقات الاجتماعية التى تكونت فى زمن النظام الرجعى الاقطاعى الرأسمالى لا زالت باقية وما انتهتش • ولا يمكن ان احنا نتحول من الرأسمالية الى الاشتراكية ، تحول أوتوماتيكى فى سنة أو سنتين أو عشرة • »

« **فالتحول الاشتراكى فى حد ذاته ، يتوقف على الاساس الاقتصادى للمجتمع** اذا كان الأساس الاقتصادى للمجتمع اللى احنا ورثناه بالثورة هو أساس قوى بيكون له تأثير • واذا كان أساس متخلف بيكون له تأثير • طبعا احنا أخذنا أساس اقتصادى متخلف • فواجبنا من أجل بناء الاشتراكية أن نضع القاعدة الاقتصادية السليمة • وعلشان نضع القاعدة الاقتصادية السليمة لن نستطيع

أن نحقق التحول الاشتراكي ولا يمكن لنا أن نبنى العلاقات الاجتمـــاعية الجديدة اللى بننادى عليها أو اللى بننظر لها كهدف من أهداف الاشتراكية (الا) بأن نقيم قاعدة صناعية • لكن هل معنى قيام هذه القاعدة الصـــناعية اننا حلينـــا كل التناقضات ؟ لا •• **ستظهر دائمـــا تناقضات فى المجتمع تغذيها باستمرار الرجعية وتغذيها باستمرار القـوى التى كانت تسيطر على المجتمع القديم** • »

لكن لا بد من التصدى لها ـ كيف ؟ بالوعى؟ والوعى الاشتراكي بالذات • وبوحدة القوى الاشتراكية •

يقول عبد النـــاصر فى عيد الثورة فى ٢٢ يوليو ١٩٦٥ :

« فيه تناقضات بتقابلنا واحنا بنتحول من مجتمع رأسمالى الى مجتمع اشتراكى هذه المصاعب تحتاج منا أننا نقابلهـــا بوعى اشتراكي وتحتاج من جميع قـــوى تحالف الشعب العامل أن تتكاتف • هل يستطيع **الشعب العامل** أن يتصـــدى فى هذه المرحلة ؟ لا يمكن للشـعب العامل **أن يتصدى فى هذه المرحلة لقـــوى الاستعمار والرجعية الا اذا تسلح بالوعى ووعى اشتراكى** » •

ومن قبل نادى عبد الناصر فى الاجتمـــاع الأول للجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية بضرورة الثورة الثقافية • وقال يومها:

« أنا بالمناسبة باقول ان الثورة الثقافية مهمة جدا • الثورة الثقافية أساس الثورة السياسية وأساس الثورة الاجتماعية » •

وكان مدركا لآثار الوضع الانتقالى كله على التطبيق • فالتفـــكير الطبقى ما زال موجودا ولذلك دعا عبد الناصر للتمييز بوضـــوح بين الاشتراكية وبين أخطاء التطبيـــق • قال فى جلسة افتتاح مجلس الامة فى ١٢ نوفمبـــر ١٩٦٤ :

« واحنا نبنى الاشتراكية حنغلط ، لكن اذا غلطنا مش معنى هذا أن الاشتراكية هى اللى غلط • بل معناها ان احنا غلطنا فى التطبيق »

وبعد ، فاننا لم نستطرد الى تفاصـــيل عديدة لمفهوم عبد الناصر عن الاشتراكية العلمية كذلك فاننا لم نتطرق الى عـلاقة هذا المفهوم بغيره من المفاهيم • وكل هذا ما زال يحتاج لبيان لا يحتمله هذا المقال •

وقد حاولت أن ألخص فيما يلى مفهـــــوم عبد الناصر فى النقاط الجوهرية التالية :

أولا : ان هدف الاشتراكية عمـــوما هو الغاء استغلال الانسان للانسان ، ومن ثم تصفية الفوارق بين الطبقات مع تكـــافؤ الفرص بين الافراد واعطاء كل بقدر عمله •

ثانيا : ان وســيلة الاشتراكية هى اقامة الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج الرئيســية وبخاصة فى الصناعة والتجارة والمال •

ثالثا : ان الاشتراكية تبنى بنقل السـلطة الى تحالف الشعب العامل • فهذه السـلطة هى أداة الشـــعب فى أحداث التغيـيرات الاجتماعية المطلوبة •

رابعا : ان التخطيط الشـــامل للاقتصاد الوطنى هو اطار تطوير هذا الاقتصـــــاد على أسس اشتراكية •

خامسا : ان الانتقال الى الاشتراكية يقتضى مرحلة انتقال يتحول فيها المجتمع من الرأسمالية وبقايا الاقطاع الى الاشتراكية ، وتجـــرى خلالها اصلاحات عديدة تعتبر اصــــلاحات ثورية •

سادسا : ان بناء الاشتراكية يتطلب الوعى الاشتراكى فى صفوف قوى الشعب العـاملة وبخاصة الطبقة العاملة أى الطبقة التى تعمل بأجر والتى تحتل المركز القيادى فى المجتمع الاشتراكى •

واذن

أية خسارة فادحة حلت بالاشتراكيين بفقد هـذا المعلم العظيم ، الذى دأب بصبر وجلد نادرين على نشر وتبسيط حقائق الاشتراكية على جماهير شعبنا طوال هذه السنين ؟ لقـد كان أول معلم نقل الاشتراكية الى وعى ملايين المصريين •

فؤاد مرسى



الثورة المصرية وقضية الانتماء العربي

منذ أن عرفت مصر طعم النضال ضد الاستعمار الأجنبي ، منذ أن صحت مصر وشعبها من غفوة القرون الوسطى وحكم المماليك والأتراك • كان من الطبيعي أن نطرح على المستوى الفكري والادبي والفني والسياسي قضية : من نحن ؟ وما هي هويتنا ؟ • هذه الأسئلة قد تبدو غريبة اليوم على أجيال الشباب الذين ولدوا في الأربعينات ونشأوا في ظل الثورة ، ولكنهـا ليست بالأسئلة الغريبة على جيلي (الذي ولد في العشرينيات) والأجيال التي سبقته مباشرة • فالغذاء الفكري الأدبي لثورة عرابي وثوره مصطفى كامل ثم بعد ذلك ـ على وجه الخصوص ـ ثورة ١٩١٩ كان غذاء فكريا مختلفا عن الغذاء الفكري للثورة ، وكنا نحن في أيام شبابنا واثقون ثقـــة كاملة أننا مصريون أصـــحاب قومية مصرية تمتد جذورها الى الفراعنة ، وأن هذه القومية لها ثقافتها الخاصة ذات الصلة الوثيقة بدول البحر الأبيض المتوسط !

ولا غرابة في ذلك كله ، فقد نشأ جيلنا ومثله العليا في الأدب هي توفيق الحكيم في « عودة الروح » ونظرته المثالية في الثقافة هي الدكتـور طه حسين في « مستقبل الثقافه في مصر » ، وفي السياسة كان سعد زغلول ـ الذي لم يره جيلنا أو لم يكد ـ هو مثلنا الأعلى في النضـال السياسي وتحدي المستعمر •

وكل هؤلاء كانوا أصحاب نظرة متحفظة ازاء قضية الانتماء العربي اذا استخدمنا أخف التعبيرات • فرواية توفيق الحكيم محاولة لتأصيل القومية المصرية في جذورها الفرعونية ، وكتاب طه حسين في الثقافة محاولة لتاصيل فكرة أن ثقافتنا هي ثقافة شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وسعد زغلول هو القائل للكلمة المشهورة عند سؤاله عن رأيه في الوحدة العربية : صفر زائد صفر يساوي صفر !

إذا كان عبد الناصر
قد استشعر مسئولية
خاصة لمصر في قيادة
خضم الثورة العربية
وكان دائما على مستوى
هذه المسئولية ، فإن
رفاق عبد الناصر وزملاء
كفاحه قادرون على
أن يحفظوا لمصر هذا
الدور القيادي وتلك
الريادة السياسية .

د. عبد العظيم أنيس

ولا شك أن هذا المنطلق الفكرى والثقافى والسياسى لسياسيى مصر وخيرة كتابها ومفكريها انما صدر ـ عن ظروف موضوعيه ، وان كانت ظروفا مؤقتة ، ودعم هذا الاتجاه بعد ذلك فى الاربعينيات الظروف التى نشأت فيها جامعة الدول العربية فى ظل بركات الدولة الاستعمارية بريطانيا ، وبناء على ترحيب وزير خارجيها ـ انتونى ايدن ـ بالفكرة فى مجلس العموم عام ١٩٤٤ • وكان هذا دليلا فى رأى جيلنا المتحمس دون روية بان فكرة الوحدة العربية انما هى فكرة أستعماريه !

ومن المهم قبل أن نتقدم لتحليل الدور الكبير الذى قام به القائد الزعيم جمال عبد الناصر لتحويل فكر الشعب المصرى ونضاله فى اتجاه الانتماء العربى ، أن نضع أيدينا على بعض الظروف التى تفسر نزعة العزلة التى سادت الشعب المصرى الى حد كبير فيما قبل الثورة ، ومنذ أوائل القرن العشرين •

ان من الصحيح أن الشعب المصرى قد تعاطف مع كل الثورات العربية ، سوريا والعراق وفلسطين فى العشرينات والثلاثينات ، كما تعاطف بعد ذلك مع نضال الشعب الفلسطينى ضد انشاء دولة اسرائيل على أرض فلسطين ، ولكن المصادر الفكريه لهذا التعاطف كانت موزعة مشتتة متضاربة • فالبعض كان يتعاطف مع نضال شعب فلسطين على أساس دينى بحت ، والبعض كان يتعاطف مع نضال الشعوب العربيه فى المشرق على أساس أن واجب الشعب المصرى أن يدعم نضال كل شعوب العالم ضد الاستعمار الأجنبى وليس على أساس أن الشعب المصرى جزء من أمة أكبر هى الأمة العربية ، وأن الوطن المصرى هو جزء من وطن أكبر •• هو الوطن العربى • وكان هناك بطبيعة الحال فى مصر دائما تيار يرى بوضوح الانتماء العربى للشعب المصرى ويتحدث فى هذا ويكتب عنه • ولكن هذا التيار

فى العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات لم يكن على وجه القطع هو التيار الفكرى الغالب .

لكى نفهم أسباب هذا الموقف القديم ينبغى أن نعود الى أحداث الفترة ما بين الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ وانتهاء الحرب العالمية الأولى بتصفية الامبراطورية التركية وتوزيع أسلابها العربية ما بين بريطانيا وفرنسا . ولهذه المرحلة بالذات أبلغ الأثر فى رأيى فى نمو نزعة القومية المصرية - بعيدا عن الانتماء العربى - لفترة من الفترات ، ومحاولة تاصيل القومية المصرية على أسس فرعونية فى غالب الأحوال .

وفى هذه الفترة التاريخية كانت مصر محتلة بقوات الاستعمار البريطانى ، بينما كان المشرق العربى كله تحت قبضة الخلافة التركية . وكانت كل قوة من القوتين الاستعماريتين آنذاك (تركيا من جانب ثم بريطانيا وفرنسا من جانب آخر) تحاول أن ترسم لها سياسة فى المنطقة تزيح بها نفوذ الأخرى وتشجع على قيام تمرد ضدها . فالأتراك لم ينسوا أن مصر كانت فى الزمان القريب ولايه تركيه وأن بريطانيا قد انتزعت هذه الولاية انتزاعا من أيديهم . لذلك لجأ الباب العالى - رغم ضعفه - الى تشجيع التمرد ضد بريطانيا فى مصر وحاول أن يحتضن بعض قادة الحركة الوطنية فى مصر . وليس بالصدفة أنه منح مصطفى كامل لقب الباشوية ، وأنه حاول احتضان الخديوى عباس الثانى ، وأن منطق قادة الحزب الوطنى فى ظل زعامة مصطفى كامل للنضال الوطنى ظل أمدا طويلا يقوم على أساس شرعية تبعية مصر للباب العالى . وظل هذا هو المنطق السياسى الوطنى حتى جاء سعد زغلول وتمرد على المنطق فى نضاله الوطنى مقدما فكرة أن مصر للمصريين وليست لتركيا أو الانجليز .



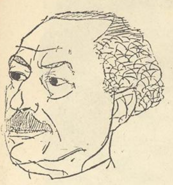
م . كامل

على الجانب الآخر من الصورة كانت تركيا تحكم الأراضى التى تعرف الآن بلبنان وسوريا وفلسطين والأردن والعراق والسعودية . وكانت شعوب هذه المنطقة فى المشرق العربى تناضل ضد الاستبداد والاحتلال التركى ، وكان جمال باشا - الطاغية التركى - يلجأ الى اعدام قادة هذا النضال فى الميادين العامة ويضرب بقواته المسلحة كل تمرد شعبى ضد طغيانه . وكان من الطبيعى أن يهرب كثيرون من القادة العرب من أراضيهم الى بلد ليس لتركيا سيطرة عليه ، وكانت مصر هى هذا البلد ! وكانت بريطانيا من الذكاء وبعد النظر بحيث حاولت أن تتظاهر برعاية هذا النضال العربى ضد تركيا ، وأنشأت من أجل ذلك ما عرف تاريخيا باسم « المكتب العربى » بالاسكندرية ، وهو المكتب الذى كان يشرف عليه قادة المخابرات البريطانية فى المنطقة ، وحاولت أن تساعد - فى حدود سياستها ومصالحها - هذه الحركات .

ان الدور الذى قام به لورنس فى ثورة الشريف حسين فى الحجاز معروف تماما ولا داعى للاستطراد فيه . ومن المعروف أن بريطانيا قد ضحكت على القادة العرب الذين نهضوا ضد الاحتلال التركى ابان الحرب العالمية الأولى ووعدتهم بدولة عربية فى المشرق مع أنها كانت قد وقعت سرا مع روسيا القيصرية وفرنسا معاهدة سيكس بيكو التى وزعت المنطقة على هذه القوى الاستعمارية الثلاث . ولقد كان نشر نصوص هذه المعاهدة على يد لينين بعد ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ صدمة كبيرة للقادة العرب الذين وثقوا بعهود بريطانيا ومواثيقها .

واذا تعرضنا بايجاز لدور فرنسا قبل الحرب العالمية الأولى فى هذه المنطقة لوجدنا أن القنصل الفرنسى فى بيروت كان مسئولا الى حد كبير

عن محاولة فرنسا احتضان النضال العربى ضد تركيا ، وكانت فرنسا تلجأ بالذات الى احتضان القادة المسيحيين من العرب بهدف وضع أقدامها فى المنطقة من جديد ٠



ت . الحكيم

ليس بالصدفة اذن أن تنشأ دعوة القومية العربية فى صورتها الحديثة فى المشرق العربى وليس فى مصر ٠ فقد كانت شعوب المشرق العربى تناضل ضد الاحتلال التركى وضد الخلافة العثمانية ، وتتطلع الى الاستقلال ، ولم يكن هناك من منفذ فكرى لهوية نضالها وثقافتها الا الهوية العربية ، تمييزا لها عن الهوية الدينية ، تلك الهوية التى كانت قاسما مشتركا بين الأتراك والغالبية العظمى من العرب ٠ وعلى هذا الأساس حاول القادة من المفكرين العرب ــ مسلمين ومسيحيين ــ تأصيل هذه الهوية بتأكيد قضية الانتماء العربى لشعوب المنطقة ٠ وفى بداية الامر شجعت بريطانيا وفرنسا هذه الدعوة فى الحدود التى تخدم مصالحهما ٠

فى نفس هذه الفترة التاريخية كانت مصر تقاسى الأمرين من الاحتلال البريطانى لها ، وكان الشعب المصرى قد يأس من فرنسا ــ خصوصا بعد اتفاقية بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٥ بخصوص تونس ــ وكان من الطبيعى أن تقابل بالحذر دعوة تباركها بريطانيا وتساعد قادتها عن طريق المكتب العربى بالاسكندرية ، وهو مركز المخابرات البريطانية فى المنطقة ٠

تلك فى رأيى أحد الأسباب الرئيسية التى جعلت ثورة ١٩١٩ ــ سياسيا وفكريا ــ تنطلق من بدايات أخرى ، غير الانتماء العربى ، وأعنى بذلك تأكيدها لفكرة القومية المصرية التى تضرب بجذورها الى مصر الفرعونية ، ثم تأكيد شعار « مصر للمصريين » كشعار سياسى ٠

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، تغيرت الخريطة السياسية فى المنطقة تماما ، فقد انتهى الاستعمار التركى للمشرق ، وأصبحت كل الأراضى العربية تحتلها اما بريطانيا أو فرنسا ٠ وأصبح العدو ــ من جديد ــ واحدا بالنسبة للمصريين أو السوريين أو الفلسطينيين أو اللبنانيين أو العراقيين، الا وهو الاستعمار الأوربى ٠ وساعد هذا بطبيعة الحال على التقارب السياسى بين الشعوب العربية ، الا أن تطور وتحول المنطلقات الفكرية لثورة مثل ثورة ١٩١٩ ولشعب مثل الشعب المصرى يستغرق وقتا طويلا ٠ وتلك ظاهرة معروفة عند دراسة قوانين التطور الفكرى لأى شعب من الشعوب ، فما أكثر ما تتمسك الشعوب بتقاليدها الفكرية وما أصعب أن تتخلى عنها ٠

وفى غالب الأمر يقتضى هذا التحول الفكرى لشعب من الشعوب توفر ظروف مادية جديدة تنحت لفترة زمنية طويلة قواعد التقاليد الفكرية القديمة قبل بناء تقاليد فكرية أخرى ٠ وهذا بالدقة ما حدث فى مصر ، وكما أسلفت فقد عاق هذا التحول ظروف كثيرة من بينها ظروف نشأة الجامعة العربية وفشلها فى عمل أى شىء ايجابى فى قضية فلسطين سنة ١٩٤٨ ٠

ط . حسين



فى هذه الظروف حدثت الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، وكان من حسن حظ الشعب المصرى أن على رأس هذه الثورة قائد يتمتع بعمق البصيرة ونفاذ الرؤية وسط الضباب السياسى للمنطقة ، هذا القائد هو جمال عبد الناصر الذى عبر بشكل واضح فى كتاب « فلسفة الثورة » عن هذه الرؤية التاريخية فى قضية الانتماء العربى للشعب المصرى ، وبشر بعد ذلك فى كتاباته وخطبه بأمل المستقبل ٠٠ وهو توحيد الأمة العربية سياسيا ودستوريا ٠



س . زغلول

وربما كان لاشتراك جمال عبد الناصر فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ أثره فى تكوين هذه الرؤية لديه ، وربما كانت هناك ظروف أكثر من ذلك · الا أن قضية الانتماء العربى للشعب المصرى عند عبد الناصر قد مرت ذاتها بمراحل متسقة مع مراحل نضاله خلال الثورة واتضاح أبعاد جديدة للثورة أكثر من مجرد الاستقلال الوطنى ·

ان فكر عبد الناصر العربى لم يصدر عن المنابع التقليدية للساسة العرب الذين نادوا من قبل بفكرة الوحدة العربية ، فهؤلاء تصوروها وحدة ساسة ودول ، وبعضهم تصورها وحدة فى ظل الوصاية الاستعمارية · ولكن عبد الناصر كان واضحا تماما فى أنها وحدة شعوب مناضلة ، وحدة جماهير جمعتها ثقافة عربية واحدة وظروف تكوين تاريخى متشابه ، وطبيعة جغرافية واحدة لم تفصل بين أجزائها أى حواجز طبيعية ، ومصير مشترك فى النضال ضد الاستعمار والامبريالية ، وآمال عريضة فى التقدم الاجتماعى والاشتراكية · ولهذا فان الأمة العربية عنده هى أولا هذه الجماهير العربية الكادحة من العمال والفلاحين والمثقفين والجنود العرب وليس الرأسماليين العرب ، وليس الاقطاعيين العرب · هذه الجماهير العربية على وجه التحديد هى التى بكت بكاء مرا عندما مات عبد الناصر لأنها كانت تدرك بفطرتها السليمة ماذا كان يمثل عبد الناصر بالنسبة لها ولآمالها ·

وفيما يتعلق بالشعب المصرى وحده أدرك عبد الناصر بحسه المرهف ان نضاله الوطنى يتدعم بالنضال العربى فى بقية أجزاء الوطن ولا يضعف كما يظن الانعزاليون ، وأن قضية مثل قضية بناء الاشتراكية فى مصر وتدعيمها انما يرتبط مستقبلا بتحول المسار العربى فى طريق الاشتراكية·

وعلى هذا النحو يمكن أن نفهم منطق عبد الناصر فى ظل الوحدة المصرية السورية ، التى بدأت عام ١٩٥٨ وطبيعة اجراءاته الثورية فى سوريا ، هذه الاجراءات التى أدت الى قيام الانفصاليين وعملاء الاستعمار من رأسماليين واقطاعيين بالتآمر على الوحدة ثم ضربها عام ١٩٦١ ·

لقد تمت الوحدات القومية فى أوربا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر على أساس قيام البورجوازية المحلية الأقوى فى كل دولة أوربية بقهر



البورجوازيات المحلية الأخرى وتوحيد السوق • وهكذا نشأت الأمة البورجوازية فى العصر الحديث ، الا أن ظروف النصف الثانى من القرن العشرين ليست مثل تلك الظروف ، ولم يكن عبد الناصر بالقائد الذى وظف قدراته فى خدمة الرأسمالية العربية • وعلى العكس ففى عام ١٩٦١ كانت اجراءات الثورة الاقتصادية والاجتماعية ضربة قوية للأقسام الاستغلالية للبورجوازية فى مصر وسوريا معا فضلا عن ضرب الاقطاع السورى نفسه •

ان من الواضح أن جميع الثورات ضد الاستعمار التى تمت فى الوطن العربى ونجحت – مستلهمة قيادة عبد الناصر ومعونته المادية – لم تكن أبدا ثورات بورجوازية بالمعنى التقليدى• وشاهدنا على ذلك الثورة الجزائرية وثورة اليمن الجنوبية ، فضلا عن ثورتى السودان وليبيا وهما أحدث الثورات العربية وأكثرها ارتباطا بسياسة الجمهورية العربية المتحدة اليوم• وفى هاتين الثورتين الأخيرتين لا يمكن تفسير الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى تتخذ هناك اليوم على انها اجراءات تقليدية فى خدمة البورجوازيات المحلية •

والآن وقد مات عبد الناصر فان من الضرورى أن نؤكد أن سياسة الانتماء العربى التى كان هو معبرا قويا عنها لم تمت ، وأن مصر مصممة على أن نظل وفية لطريق عبد الناصر فى الثورة العربية ، وأنه اذا كان عبدالناصر قد استشعر مسئولية خاصة لمصر فى قيادة خضم الثورة العربية ، وكان دائما على مستوى هذه المسئولية فان رفاق عبد الناصر وزملاء كفاحه قادرون على أن يحفظوا لمصر هذا الدور القيادى وتلك الريادة السياسية •

ان من السهل أن يتحول الانسان ، بسبب أحداث مؤقتة ، الى ناقد أو هجاء للأمة العربية تحت تأثير ظروف وانفعالات عارضة ، كما فعل نزار القبانى فى قصيدته الأخيرة ، غير أن الرؤية البعيدة هى التى تجعلنا نرى جميعا أن الثورة العربية هى قدرنا ، وأن الوحدة العربية هى مستقبلنا ومستقبل أطفالنا ...

عبد العظيم أنيس

الفكرة العربية فى واقعها المعاصر

د. حسين فوزى النجار

لاتنشأ القومية فى فراغ ، وليست نتاجا لعلاقات عنصرية او دينية او ثقافية او اجتماعية او اقتصادية ، وان كان لكل منها دورها الفعال فى تهيئة الوعى القومى ونموه وانما تنشأ القومية ويضطرب بها وجدان الجماعة الانسانية حين يتكون ضميرها الاجتماعى وينمو لديها الوجدان المشترك بوعيها لذاتيتها وادراكها للعلاقات التى تحكم ارادتها وتهيىء مصيرها وهو مانعبر عنه بالفكرة التى تسبق الوعى وتحدده وهى فكرة اجتماعية كظاهرة وهى النواة الاولى فى تكوين الضمير الاجتماعى للجماعة الانسانية كأداة ، فاذا بلغ الضمير الاجتماعى حدا من النضج والقدرة على التعبير الذاتى وادراك العلاقات التى تحكم جماعة من الجماعات الانسانية تحولت هذه الجماعة الى جماعة سياسية وتظهر الدولة الى حيز الوجود فى هذه الجماعة السياسية الناشئة . ولايعنينا شكل الدولة فى صورتهاالتى تبدو عليها حين تسفر عن وجودها فهذا مما تعنى به المذاهب السياسية وانما الذى يعنينا ان كيانا سياسيا قد نشأ نتيجة لتطور اجتماعى ادى بدوره الى تكوين الضمير الاجتماعى وظهوره وقدرته على التعبير عن ذاتية الافراد فى علاقاتهم المتشابكة .

ولا ينشأ الضمير الاجتماعى الا فى جماعة انسانية اكتمل نموها . وأول مظاهر هذا النمو هو التماسك الاجتماعى الذى يبدو فى ولاء الفرد للفكرة التى تدين بها الجماعة وتحكمها ثم فىادراكه لذاته وللعلاقة التى تربطه بالجماعة التى ينتمى اليها ويعى دوره فيها بالنسبة لها وبالنسبة لنفسه، وهو ادراك يقوم على الاحساس بالتميز ، اذ يكتشف الفرد ذاته كحقيقة متميزة وسط الجماعة ، كما يقوم على وعيه – وهو وعى عقلى اكثر منه غريزى – نوع العلاقة التى تربط بجماعته ، وهى علاقة خارجية بمعنى ان تاثيرها يقع عليه من الخارج ، وبادراكه لهذه العلاقة الخارجية يستطيع ان يميز ذاته بينها ويميز دوره بالنسبة لها وبالنسبة لنفسه .

وقد يبدو التماسك الاجتماعى ظاهرة غريزية مبعثها الصداقة أو العداء وهما عاطفتان متناقضتان كما يقول « برتراندرسل » الصداقة لجماعته والعداء للجماعات الاخرى ، الا أن هذا النوع من التماسك ليس من قبيل التماسك الاجتماعى الذى نعنيه . فالتماسك كظاهرة اجتماعية يحكمها الولاء لفكرة الجماعة غير التماسك كظاهرة غريزية وان كان مبعثها الصداقة أو العداء . فالتماسك كظاهرة غريزية لا يقوم على ادراك الفرد لذاته فى الجماعة التى ينتمى اليها وانما هو ظاهرة تمثل الاندماج الكلى الذى يفنى فيه الفرد فى الجماعة فناء تاما لايميز فيه حتى وجوده البيولوجى ، فالفرد فيها ومنها واليها لايستقل عنها ولا يعيش بدونها ، فى وحدة تامة تختلط فيها مطالب حياته ومقدساته كما فى الجماعات الطوطمية التى ترى فى الطوطم أصل وجودها ومنبع حياتها.

وحين يتحول التماسك الغريزى الى تماسك اجتماعى اثر ادراك الفرد لذاته بشخصيته وتميزه فى الجماعة التى يعيش بينها وينتمى اليها وادراكه لنوع العلاقة التى تربطه بها فان أول ظاهرة لهذا التماسك الاجتماعى هو الفكرة التى ينبع منها الولاء للجماعة . وهذه الفكرة هى التى تمهد لنشأة الضمير الاجتماعى ونموه وتهيىء الجماعة لطورها السياسى التالى .

فالفكرة التى يقوم عليها التماسك الاجتماعى وتؤدى بالتالى الى ظهور الامة كجماعة سياسية متجانسة هى الفكرة التى تكون روح الامة وتميزها عن غيرها من الامم وتحدد رباطها القومى .

ويعبر الفقهاء عن الفكرة التى تميز أمة على غيرها تعبيرا ماديا فيردون التماسك الاجتماعى وبالتالى الرباط القومى فى الامة الى عناصر مادية كالعنصر والدين واللغة أو الرغبة فى الحياة المشتركة ويقدمون عنصرا على الآخر ويفرقون بينها ويميزون احداها عن الاخرى ويرون فى العنصر





والدين واللغة معايير موضوعية وفى الرغبة فى الحياة المشتركة معيارا ذاتيا ، الا اننا نرى ان الفكرة التى تكون روح الامة هى التى تميزها على غيرها من الامم وتحدد رباطها القومى .

فالفكرة فى حياة الجماعة ـ وهى جماعة تحكمها البصيرة ويحكمها العقل وتختلف عن الجماعات القطرية الاولى التى تحكمها الغريزة ـ هى روح الجماعة وهى التعبير عن شخصيتها المتفردة .

ولاتنشأ الفكرة فى فراغ ، وانما شأنها شان المدركات العقلية اللاحقة والتى ستنشأ نتيجة لقيام الجماعة السياسية كالقوم والقومية والوطن والوطنية والعالم والعالمية ومايترتب عليها من مدركات اخرى كمدرك الحرب والسلام والمواطنية والرعوية . وانما تنشأ الفكرة حين يتهيأ للجماعة الانسانية من العوامل ما يؤدى الى نشأتها وظهورها لتكون «روح الامة» التى تنفرد بها وتميزها على غيرها . والى هذه العوامل بما تنفرد به من سمات خاصة ترجع خاصية التفرد والتميز فى الامة ، وحين نستعمل لفظ الامة بديلا للجماعة السياسية فذلك للدلالة على التميز والتفرد فى الامة عن الجماعة السياسية . فالجماعة السياسية مدرك عام نعنى به أية جماعة تتحول من حالة الفطرة والتجمع الفريزى الى حالة العقل والتجمع الواعى ، اما الامة فمدرك يعنى أن الجماعة السياسية قد أستوت امة متفردة متميزة بروحها الخاص وبشخصيتها النابعة من حياتها والتى تحكمها العوامل التى تتهيأ لها فى الزمان والمكان .

وعامل الزمان عامل تاريخى وعامل المكان عامل بيئى وكلاهما مكمل للآخر . فلايستطيع الانسان ان يمارس دوره فى الحياة ـ وهو دور تاريخى ـ مالم يتهيأ له المكان المناسب ، فالمكان هو الوعاء الذى ينمو فيه جهد الانسان ويشكل حياته ، وقد يكون عائقا له أو ممهدا لتقدمه . ولكن الانسان بقدرته على التكيف مع البيئة قد يضمن لنفسه الحياة والبقاء ولكنه لا يضمن التقدم حين تعوق البيئة نموه الاجتماعى ، فالمجتمع لا ينشأ الا فى بيئة تهيىء له التجمع والاستقرار والنمو والا أصبح مجتمعا مغلقا على ذاته ان أتيح له الاستقرار فلايتاح له النمو والتقدم كبيئات الغابات الكثيفة أو الجبال الوعرة او الصحارى المجدبة حيث تعيش الجماعات الانسانية الصغيرة المحدودة غير النامية او المغلقة على نفسها .

والتفاعل بين الانسان والبيئة في حالة التجمع والاستقرار هو الذى يمهد لظهور الفكرة التى تطبع روح الجماعة بتفردها وتميزها . ففكرة الجماعة أو روح الامة هى النتاج الحتمى للتفاعل بين الانسان والبيئة ، ولانسان المدرك لذاته والذى يعى علاقته بالجماعة التى ينتمى اليها والبيئة التى تفرض حتميتها على الانسان فى رأى فقهاء الجيوبوليتيك وخاصة الالمان وعلى رأسهم (راتزل) و « هاوسهوفر » أو البيئة التى يتغلب عليها الانسان ويذللها لحياته فى رأى فقيه الاجتماع الفرنسي « دور كايم » الا أنهم يغفلون ان روح الجماعة أو الامة انما تنشأ وتتكون من خلال الماضى البعيد وعلى مدى الاحقاب التى مر بها تاريخها اما التأثير الحديث للتقدم العلمى ولقدرة الانسان على قهر الطبيعة والسيطرة عليها فلا يؤثر فى روح الامة بقدر ما يؤثر على حياتها المادية وطريق معيشتها .

فروح الامة او «الفكرة» التى تعقلها وتقبع في ضميرها عبر السنين من تاريخها هى التى تحكم مسارها وتاريخها على الزمن وهى التى نستهديها التفسير لتاريخها الحى المعاصر ، مما يفسر قول المؤرخ الفلسوف الايطالى «بندتوكروتشي» ان التاريخ كله هو تاريخ الحاضر ، فنحن لانبغى حقا من دراسة التاريخ غير التعرف على الاطار الذى نعيش فيه ومعرفة أصوله . والاصل فى التاريخ هو ادراك الانسان لحقيقة وجوده الاجتماعى ، ولايستطيع المؤرخ ان يصل الى الحقيقة فى تاريخ الامة مالم يع الفكرة التى تحكم وجودها الاجتماعى ويستمد «روح الامة» تفسير وقائع تاريخها . والمؤرخ الذى يؤرخ لأمته يعى من روحها مالايعيه مؤرخ غريب ويستهدى من الحقيقة في وقائع تاريخها مالايستهديه غيره فان

روح امته تسرى فيه وتقبع فى وجدانه الكامن فلاتداعى الا على صدى الاحداث والوقائع .

فاذا أردنا أن نستهدى «الفكرة العربية» واقعها المعاصر فلامحيص لنا من التعرف على روح الامة العربية «من خلال تطورها الاجتماعى والتاريخى على مدى الزمن من تاريخها البعيد حتى نتبين حركة تاريخها المعاصر ومدى ادراك أبطاله «للروح» التى تحدد طريقة مساره .

ويحملنا الاستهداء بعيدا فى أعماق الزمن الى الحقبة التى بدأت فيها «الجماعة العربية» تسفر عن وجودها الاجتماعى . ويصل بنا الاستهداء الى حقيقتين اصبحتا ثابتتين لدى الباحثين في تاريخ الشرق الادنى القديم ، اولهما : ان الجزيرة العربية هى المهد الاصيل للامة العربية وللاقوام الذين ينتمون اليها فى المساحة التى تعرف الآن بالوطن العربى او عالم العروبة ، وثانيهما : ان الوجود العربى قد سبق بظهوره ظهور المسمى الذى عرف به وهو «عربى» وان لم نهتد الى المسمى الذى عرف به من قبل .

فاما الحقيقة الاولى ، فان اغلب الباحثين وعلى رأسهم «شبرنجر و سايس و ابرهارد شريدر و دى جويه و هيوبرت جريمى» يرون ان الجزيرة العربية هى مهد الساميين ويؤيدهم فى هذا الاتجاه «كارل بروكلمن و كنج» مؤلف «تاريخ سومرواكد» و «جون مايرز و كوك » في تاريخ كمبردج القديم ، وكان «كيتانى» كما يقول نبيه أمين فارس فى كتابه «تراث العرب» - أول من لفت الانظار الى العوامل المناخية التى قذفت بالموجات السامية من قلب الجزيرة العربية الى البقاع المجاورة فى وادى النيل والرافدين والهلال الخصيب ، فقبل اربعة عشر الف سنة كانت الثلوج تكسو معظم بقاع آسيا واوربا حتى هضبة ايران فتحول بينها وبين ان تكون موطنا صالحا للحياة ، بينما كانت الحياة في جزيرة العرب ينميها جو معتدل وأرض يانعة خصبة وأمطار غزيرة وبيئة ريانة فطابت الحياة لسكانها وكانت لهم حضارة لم يكشف عنها التاريخ بعد ، وان اخذ بعض المنقبين فى الوقت الحاضر يكشف عن بعض معالمها ويستهديها حقيقة ان صحت فانها ستقلب كثيرا من معايير التاريخ التى نعرفها ، وهى ان الحضارة الانسانية نشأت فى بلاد العرب وانثالت منها الى البقاع المجاورة التى شهدت أقدم حضارات التاريخ في وادى النيل والرافدين والهلال الخصيب والتى تعرف بحضارات الشرق الادنى القديم .

وبعد انقضاء العصر الجليدى أخذ الجدب يغير عليها والمطر ينقطع عنها والجفاف يحل بها والجدب يجتاح اراضيها والحياة تغيض من بقاعها الا ماتكيف منها مع البيئة الجديدة فاخذ أهلها فى النزوح عنها الى مواطن جديدة تخصب فيها الحياة وتمرع فكانت تلك الموجات التى خرجت من قلب الجزيرة العربية الى العراق والشام ومصر وغيرها من مواطن الامة العربية او الجنس السامى الاخرى.

وقد تصور الباحثون الذين قالوا بان الجزيرة العربية هى المهد الاصيل للشعوب التى سكنت وادى النيل والرافدين والهلال الخصيب في فجر التاريخ ، تلك الجزيرة كخزان هائل يقذف بين كل حقبة وأخرى مدى مابينهما الف عام بما يفيض على طاقتها من البشر الى البقاع المجاورة فى شكل موجات عرفت بالموجات السامية يميل المحدثون من الباحثين الى تسميتها بالموجات العربية دلالة على مهدها الاصيل . وكانت آخر تلك الموجات تلك الموجة العربية التى امتدت من هضبة ايران الى شواطىء المحيط الاطلسى فى ظل الاسلام والدولة العربية وحملت تلك الموجة من تقاليدها ومأثوراتها وعاداتها ولغتها ودينها الجديد الى تلك البقاع مابقى سائدا فيها الى اليوم .

ويعنى هذا ان مجتمعا عربيا متكاملا قد تكون ونما منذ حقب بعيدة في أعماق التاريخ ولعله كان اول مجتمع يفتتح مدونة التاريخ ويخط اولى سطورها وترسبت فى وجدانه على مدى الزمن من مدركات الفكر ماصاغ روحه التى طبعت تاريخه بطابعها القاهر الغلاب ، وبقيت تشده اليها الى وقتنا هذا ، وان هذا المجتمع قد نما وتكامل قبل ان يعرف بمسماه العام الذى أصبح علما عليه وعلى شعوبه بأسمائها الخاصة ، فمن المحقق ان العرب قد ظهروا على صفحة التاريخ قبل أن يعرفوا باسمهم بزمن طويل .

ويرى المؤرخ العراقي «جواد علي» مؤلف «تاريخ العرب قبل الاسلام» ان احدا لايستطيع «الجزم بتعيين الوقت الذى استعمل فيه العرب أنفسهم كلمة «العرب» علما عليهم : بدوهم وحضرهم • على به علامة فارقة تميزهم عن بقية الاقوام لعدم وجود نصوص مدونة لدينا تبين بجلاء ان العرب حضرهم وبدوهم كانوا يسمون انفسهم عربا ، والنص الوحيد الذى لايمكن ان يشك فى صحته انسان هو القرآن الكريم ، فهو اول نص بالعربية لايعلق به غبار الشكوك والظنون استعمل الكلمة علما ، ولهذا رأى د . ه . ملر – ان الرسول هو اول من خصص الكلمة وجعلها علما لقومية سكان شبه الجزيرة ، وهو يشك فى صحة ورود كلمة – عرب – علما لقومية فى الشعر الجاهلي وفى الاخبار المدونة فى الكتب ، غير ان هذا الرأى فى نظرى رأى ضعيف لايستند الى دليل ، اذ كيف تعقل مخاطبة القرآن قوما بهذا المعنى لو لم يكن لهم سابق علم به ؟ وفى الآيات دلالة واضحة على ان القوم كان لهم ادراك لهـذا المعنى قبل الاسلام وانهم كانوا ينعتون لسانهم باللسان العربي وانهم كانوا يقولون للالسنة الاخرى السنة اعجمية: أأعجمى وعربى ؟ هو للذين آمنوا هدى وشفاء – وكذلك انزلناه حكما عربيا – وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا –. ففى هذه الآيات وآيات اخرى غيرها دلالة على ان الجاهليين كانوا يطلقون على لسانهم لسانا عربيا وفى ذلك دليل على وجود الحس بالقومية قبل الاسلام » .

ومع تسليمنا بالحقائق التى ذكرها الدكتور جواد على الا اننا لانسلم معه بما سلم به من «وجود الحس بالقومية قبل الاسلام» عند العرب ، واقرب الى الدقة العلمية ان نسميه «الحس بالوجـــود الاجتماعى» . فقد كان العرب – وتعنى بهم عرب الجزيرة – اشتاتا متنافرة مابين جماعات بدوية قبلية وجماعات حضرية مستقرة فى ظل شكل من اشكال النظم السياسية البسيطة – ولم تكن هناك وحـــدة تجمع هذه الشتيت المتنافر من الجماعات السياسية المتباينة سوى الاحساس بالانتماء الى وجودانسانى واحد هو الوجود العربى .

ولم تكن لغة هذا الوجود الانسانى الواحد واحدة بل تعددت اللغات واللهجات بتعدد المواطن والمجتمعات . ولم تتقارب اللهجات العربية – وقد دعاها علماء العربية «لغات» الا قبل ظهور الاســلام ببضع مئات من السنين ، وحتى ظهور الاسلام كان هناك بعض الاختلاف بين السنة القبائل ولســان قريش ، وكانت لهجة قريش قد غلبت على غيرها من اللهجات عند ظهور الاسلام .

ولم تبرز الامة العربية كاملة متسقة القسمات بينة الملامح على مسرح التاريخ الا بعد ان عمت اللغة العربية كلغة تربط سكان الجزيرة العربية بعضهم الى بعض ، وكانت سيادة لهجة قريش المرحلة الاخيرة فى تطور اللغة العربية فى اطارها الاخير الذى امتد الى وطن العروبة ، وكان اول انتشار لها خارج الجزيرة العربية انتشارها على يد الدويلات العربية التى قامت فى الشام والعراق كالانباط الذين وصل ملكهم فى عهد الحارث الرابع عام ٤٠ م ، الى دمشق ، واللخميين للذين وفدوا الى تخوم العراق فى القرن الثالث بعد الميلاد وأقاموا ملكهم فى الحيرة بعد ذلك بزمن ، والغساسنة الذين وفدوا الى الشام فى نفس الوقت الذى نزح فيه ، اللخميون الى العراق ، وكانت بين الاثنين حروب على التخوم التى تفصل بينهما فى بادية الشام ، وفى بعض تلك الحروب قاتل الشاعر لبيد أحد أصـحاب المعلقات السبع الى جانب الغساسنة فى موقعة مرج حليمة وكان قد وفد الى بلاطهم ونال عطاءهم .

وفى تلك الاونة طوت لهجة قريش غيرها من اللهجات العربية الاخرى وغدت لغة الشعر والخطابة وفى سوقها عكاظ كان فصحاء العرب يتبارون شعرا ونثرا وعلى استار الكعبة علقت المعلقات الســبع مكتوبة بماء الذهب كاروع ما جادت به قرائح الشعراء العرب حينذاك وما زالت المعلقات من عيـون الشعر العربى الى وقتنا هذا ، وبلغة قريش نزل القرآن الكريم وانتشرت دعوة الاسلام وعلى اساسها استقرت الامة العربية فى اطارها الذى استوت عليه بعد ذلك فى الهلال الخصيب وفى شمال افريقية .

وكانت تلك هى الصورة الجديدة التى بدت بها الامةالعربية وهى غير الصـورة القديمة التى بادت ولم تبق منها غير سماتها الجنسية التى غدت بها مناطق الشرق الادنى منـذ امد بعيد والتى لا تشك فى انها طبعت تلك المناطق بروحها الماثل فى تشابه حضارات تلك البقاع والتى بقيت فى وجدان الشعوب السامية يميزها بسماتها المعروفة عن غيرها من الشعوب الآرية والمغولية .

وتتميز تلك الصورة الجديدة عن الصورة القديمة بطابعها الصحراوى وهو طابع تتميزت به اديان الشرق الادنى السماوية وغير السماوية فهو ماثل فى اليهودية كما هو فى المسيحية والاسلام ومن قبل فى ديانة رع وعشـتروت ، هـذا على افتراض أن الهجرة العربيـة الاولى والتى تعرف بهجـرة الساميين قد خرجت من بيئة زراعية ريانة قبل أن يحل الجـدب ببلاد العرب الى بيئات زراعيـة أخرى فى وديان الانهار وحملت معها كل مقومات بيئتها الزراعية .

وسيبقى هذا الطابع الصحراوى ماثلا فى الامة العربية في تحضرها وانتشارها بعد الاسلام والى الوقت الحاضر بكل ما فيه من محاسن البداوة ومساوئها .

●

وقد ادرك ابن خلدون هذا الطابع وعرف آثاره فوصف العرب بانهم لا يتغلبون الا على البسائط واذا تغلبوا على أوطان اسرع اليها الخراب ، ولا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة او ولاية او اثر عظيم من الدين وانهم ابعد الامم عن سياسة الملك . ولعلنا بدافع الاستعلاء وهو بعض فطرتنا ، لا تتفق مع ابن خلدون فيما قال ، الا ان التاريخ ينبئنا بصدقه فان أعظم علماء العرب ومفكريهم كانوا من أصول أعجمية ، وحين انتهى الحكم والسلطان اليهم اتخذوا من الاعاجم أعوانا على ادارة الملك وسياسته فلما ضعف امرهم انتهى الحكم والسلطان الى الوزراء وامراء الجند من الاعاجم ووقف جند الاعاجم يذودون عن بيضة الاسلام امام الصليبيين والمغول الا ان هؤلاء الاعاجم كانوا قد استعربوا وغذتهم لدماء العربية بفيض من القدرة والحيوية كما تمثلوا روح العروبة باكثر مما تمثلها العرب مما تميز به العرب على غيرهم من الشعوب القدرة على الانطلاق والتفاعل فبقدر ما تأخذهم العزة بالاصل والعنصر فيأنفون من زواج بناتهم بالاعاجم لا يستنكف رجالهم أن يلقوا بدمائهم الى كل أعجمية بالزواج او التسرى وبقدر ما يانفون من طباع الغير كانوا يتألفون الناس بطباعهم ولا يقيمون حواجز بينهم وبين غيرهم فاستطاعوا أن يتمثلوا غيرهم ولم يستطع غيرهم ان يتمثلهم وبينما كانوا يمتصون ثقافات غيرهم كان غيرهم يمتص لغتهم ويستبدل بها لغته .

وبهذه القدرة والحيوية استطاع العرب أن يتمثلوا غيرهم عندما انثالت جموعهم مع موجة الفتوح الاسلامية الباهرة الى البقاع المجاورة فكانت حركة الاستعراب التى صهرت كل الشعوب التى امتدت اليها واتت على كل ما كان من فروق عقلية واجتماعية بين الخلطاء واستوت الامة العربية خلقا جديدا نما فيه الفكر العربى متأثرا بالثقافة الاسلامية وتعاليم القرآن ، وكانت غلبة النازحين غلبة فكرية الا انها خضعت لكل نواميس التطور الاجتماعى فى البيئات الجديدة ، فكانت حركة الاستعراب فى البلاد التى تتصل بالأرومة العربية – او مايعرف بالأرومة السامية كما دعاها « شلوتسر » – وكما قلنا من قبل – اقوى منها فى غيرها من الشعوب التى امتد اليها الاسلام ولا تتصل بالاورمة العربية القديمة ، فبينما وقفت موجة الانتشار العربى دون الشعوب الارية فى فارس والهند في البداية وفى تركيا من بعد فلم تستعرب وان اخذت تكتب لغاتها بالحروف العربية وان تأثرت اعظم التأثر بحضارة الاسلام العربية ، اذ نجد شعوب الشرق الادنى التى استقبلت الهجرات السامية الاولى قد استعربت تماما وأصبحت من أمة العرب وبهذا الانتشار وما صاحبه من حركة الاستعراب تكونت والى ما شاء الله امة عربية سوية الملامح بينة القسمات متميزة الثقافة ، لها فكرتها الخالصة التى طبعت روحها بطابعها المتميز ، وهى فكرة نمتها الصحراء وغذتها بطابعها البدوى الفريد الذى عرف به العرب فى الجاهلية ، فلما اعتنقت الاسلام بقى فيها طابع البداوة تغذيه تعاليم الاسلام بقيم جديدة قومت من أخلاقها فقضت على عاداتها السيئة وهذبت علاقاتها الاجتماعية وجمعتها حول فكرة واحدة هى العقيدة الاسلامية .

فالاسلام دين العالمين بعث به محمد عليه الصلاة والسلام للناس كافة لا يفرق بين قبيل وقبيل او بين امة وامة ، الا انه هو الذى وحد الامة العربية فى دولة لها كيانها السياسى وهو الذى حمل العرب الى بقاع جديدة استعربت واصبحت جزءا من وطن العروبة ، وهو الذى صاغ الاطار الفكرى والعقلى للحضارة العربية .

والاسلام هو الاطار الكبير الذى تعلق فيه العرب بآمالهم القومية حتى انهارت الخلافة الاسلامية باختفاء السلطة العثمانية من التاريخ عام ١٩٢٤ فقرت الوحدة العربية فى أذهانهم بدل الوحدة الاسلامية وأصبحت الدولة العربية المتحدة مناط آمالهم ، وهو الذى حملهم على الرضا بحكم الموالى والترك واعتزاز العباسيين بهم على أبناء أرومتهم كما حملهم على الرضا بقيام الخلافة العثمانية وتعلقهم بها تعلقهم بالخلافة العربية مناطا لآمال المسلمين ووحدة الاسلام فالاسلام لم يفرق بين عربى وعجمى الا بالتقوى وان بقيت الروح العربية تسود عالم الاسلام ، ولاء من المسلمين للعرب الذين بعث النبى من بينهم وللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم وهذا الولاء هو الذى امد فى عمر الخلافة العباسية بعد ان تغلب الاجناد من الترك على سلطة الخليفة ولم يعد له من الامر الى جانبهم شيء فبقيت الخلافة صورة ورمزا ورباطا لعديد من الدويلات الاسلامية التى قامت في عالم



الاسلام فلما انتهت الخلافة للعثمانيين كان العرب قد هان أمرهم من قبل ولم يعد لهم فى مناصب الدولة ماأصبح للفرس من قبل وللترك من بعد .

وبالرغم من ولاء المسلمين للخلافة العربية فان الدولة العباسية قد هونت من شأن العرب وقدمت عليهم الموالى حتى دخل الترك فى خدمة الدولة على يد المعتصم بالله العباسى حين اتخذ منهم جنده وولاته فهان أمر العرب وانزووا فى غمار الحياة العامة بعيدا عن مناصب الدولة فلما قامت الخلافة العثمانية كان العرب قد تقبلوا انتقال السلطة من أيديهم الى أيدى غيرهم وغدا انتقال السيادة بدورها الى غير العرب أمرا عاديا .

الا ان الاسلام ولغة القرآن بقيا يشدان السيادة الجديدة الى الفكر العربى والروح العربية ولم تفقد الامة العربية روحها الخالدة ورباطها المحكم فى ظل السيادة العثمانية الجديدة بل ان العثمانيين قد وحدوا من جديد صفوف العرب فى حكم مركزى وطيد بعد ان كانت قد تقسمته دويلات متفرقة لم يكن يربطها بعضها الى بعض غير رباط الولاء للخلافة فى بغداد .

وكما كان للامويين من اعتزاز بالعرب على الموالى ماحمل الموالى على «الشعوبية» كان لاعتزاز العثمانيين بالترك على العرب ماحمل العرب فى النهاية وبعد سنوات من الاستسلام الى اليقظة التى ادت الى نزعة القومية العربية . والشعوبية والقومية مترادفان لمعنى واحد فالشعوبية مصطلح جرى على لسان عصره بالمعنى الذى جرى به مصطلح القومية فى القرن التاسع عشر ويعنى اعتزاز الامة بوطنها الاصلى ولغتها وثقافتها وانتسابها الى جنسية تدل عليها ودولة من بنيها تسوسها وتقوم بالحكم فيها مما يتمثل اليوم فيما يعرف « بالدولة القومية » .

ولم تكن الشعوبية نزعة الى الانفصال عن الدولة بعيدا عن الحكم العربى والتبعية للخلافة الاسلامية فى البداية فكل ماكان ينشده الموالى هو المساواة بالعرب فى الحقوق والامتيازات ومايقابل تلك الحقوق والامتيازات من واجبات والتزامات ولم يكن ذلك شأن الموالى وحدهم وانما قام البربر فى الاندلس وفى شمال افريقية يطلبون هذا الامر ذاته من الامويين وثاروا من اجله عليهم وكذلك لم تكن النزعة القومية العربية فى البداية نزعة الى الانفصال عن الحكم العثمانى والتبعية للخلافة العثمانية وانما كانت بدورها نزعة الى المساواة بالترك فى ظل الخلافة العثمانية التى تجمع المسلمين فى رباط واحد ، هو الولاء لوحدة الاسلام وللخلافة الاسلامية التى غدت رمزا على ذلك حتى بين الشعوب التى لا تدين بالسيادة للخليفة العثمانى كمسلمى الهند والافغان وجاوه والملايو ولم يكن اعتزاز الامويين بالعرب على الموالى فى فارس او البربر فى شمال افريقية من قبيل الاعتزاز القومى فقد جب الاسلام كل نزعة الى الشعوبية والقومية ولكنه كان من قبيل التمييز العنصرى وهو نوع من التمييز يؤدى الى قيام الطبقة الحاكمة على هذا العنصر المتميز فى الدولة التى تضم أشتاتا من العناصر المختلفة ولا يؤدى الى النزعة القومية ما لم تبغ هذه العناصر الانفصال عن الدولة فاذا تطلعت الى الانفصال غدا الاعتزاز بالعنصر اعتزازا بالقومية وقد رضى الموالى والبربر بحكم العرب ايمانا منهم بان العرب وحدهم هم أولى الناس بالخلافة الاسلامية فلما انتقلت الخلافة الى العثمانيين بقى الولاء للخلافة الاسلامية ولوحدة المسلمين يجب كل نزعة للقومية بين العرب وبين غيرهم من العناصر الاسلامية الاخرى وبقى هذا الولاء قويا حتى بعد أن ضعف شأن الخلافة العثمانية فلما سقطت بكاها المسلمون فى كافة بقاع العالم الاسلامى كما بكاها العرب بأحر الدموع .

فالفكرة الاسلامية قد حجبت كل نزعة الى القومية بين العرب طوال قيام الخلافة الاسلامية

عربية أو عثمانية ، وطبعت الروح العربى بطابعها الغلاب ، طابع الاخوة الاسلامية التى عاش العرب فى ظلها سادة العالم الاسلامى ، وحكامه ، فلما اديل من حكمهم الى حكم مسلمين آخرين من الموالى والترك لم ير العرب فى هذا افتئاتا على روح الاسلام فقد ربط الاسلام بينهم وبين غيرهم من موالى فارس وشعوب الترك من سلاجقة وعثمانيين برباط الاخوة الاسلامية وحمل الفرس والترك لواء الاسلام عاليا خفاقا كما حمله العرب من قبل .

وبقيت الفكرة العربية تدور فى فلك الوحدة الاسلامية والرباط الاسلامى لا تعدوه ، وحين أحس المسلمون والعرب بامتداد موجة الاستعمار الاوربى اليهم زاد ولاؤهم للخلافة العثمانية فقد كانت الامل الباقى لتكتل البلاد العربية والاسلامية ضد الاستعمار الاوربى ، وعلى هذا الامل قامت فكرة الجامعة الاسلامية ، وبهذا الامل راد المصلحون الاوائل آفاق البعث الاسلامى والحركة العربية، وكان نداء الافغانى نداء لبعث الوحدة الاسلامية وتجديد شباب الخلافة ، كما كان نداء الكواكبى — وان راى الكواكبى — أن تكون الخلافة للعرب لا للعثمانيين ولا لغيرهم ممن ليسوا عربا ، ولم يكن اتجاه الكواكبى قوميا بقدر ما كان بعثا لولاء المسلمين القديم للخلافة العربية الخالصة .

وحين بدات الحركة العربية كانت تستهدف الابقــاء على الكيان العثمانى لا بحكم الولاء للعثمانيين ولكن ولاءا منهم للخلافة الاسلامية وللرباط الاسلامى، ولان الدولة العثمانية قد أصبحت السياج الواقى للعالم العربى من امتداد موجة الاستعمار الاوربى اليه .

فحركة البعث القومى عند العرب لم تبغ الانفصال عن الدولة العثمانية ، وهــذا أول فرق بينهما وبين اتجاه الحركة القومية فى اوربا حيث قامت الدولة القومية على اساس التحرر من سلطان الامبراطورية والكنيسة والقضاء على النظام الاقطاعى الذى ساد فى نهاية عصر الامبراطورية الرومانية المقدسة وبقى قائما بعد زوالها فهو اتجاه شعوبى اشبه بما كان من اتجاه الموالى نحو احياء القومية الفارسية ، اما القومية العربية فلم تبغ هذا الاتجاه الشعوبى وانما كانت تبغى الوحدة العربية فى قومية واحدة بعيدا عن الشعوبية والاقليمية .

لذلك بقيت الحركة العربية فى اطارها الفسيح لا تتعداه وهو الابقاء على وحدة الامة العربية فى اطارها الاسلامى الذى يتمثل فى الخلافة ولم يتجه العرب اتجاها قوميا خالصا بنشد وحدة الامة العربية فى وطنها الكبير الا بعد سقوط الخلافة ، ولم يحل بين هذا الاتجاه والظهور على مسرح الاحداث غير انشغال الشعوب العربية ، بمحاربة الاستعمار ولكنه كان يبدو بين كل آونة واخرى فى القضايا المشتركة التى تهم العرب جميعا كقضية فلسطين ، فقد كان العرب يدركون ان قضية فلسطين تمس كيانهم جميعا كامة وانها ليست قضية اهل الفلسطينيين وحدهم .

وكان الشعور بالذات أول بوادر الوعى القومى الوليد عند العرب ، ففى هــذا الكيان العثمانى العام اخذ العرب يدركون أن لهم كيانا خاصا يعلو على هــذا الكيان العثمانى العــام وكانت « جمعية بيروت السرية » التى تاسست عام ١٨٧٥ أول تعبير عملى لشعور العرب بكيانهم الذاتى ، فحملت على الحكم التركى فى منشوراتها السرية وطالبت بالاعتراف باللغة العربيــة كلغــة رسمية للبلاد وعدم استخدام المجندين العرب الا داخل بلادهم ، كما اتهمت الاتراك باغتصاب الخلافة من العرب فكان هذا الاتهام بدوره تعبيرا عن احساس العرب بكيانهم الذاتى وهو الاحساس الذى عبر عنه الكواكبى فى كتابه « ام القرى » وهو الاحساس الذى راود من قبل مصلح الاســلام الكبير « محمد بن عبد الوهاب » حين راى فى اجتماع القوى الدينية والسياسية للعرب ما يكفل للاسلام استعادة مجده القديم ونقائه الماضى .

ولم يتعد شعور العرب بكيانهم الذاتى الاحساس بالمظالم التى تقع عليهم من جانب الحكم التركى ، وهو الاحساس الذى كان يثقل على الترك أنفسهم من طغيان السلاطين واستبدادهم ممـا

حمل جمعية الاتحاد والترقى على القيام بثورتها العسكرية ضد السلطان عام ١٩٠٨ .

ولقيت حركة الاتحاد والترقى من تعضيد العرب ما حملهم على تكوين جمعية الاخاء العربى العثمانى اشادة بالاتجاه الجديد واتحاد الامال بين الترك والعرب .

ولم يكن ولاء العرب للترك الا ولاء للخلافة الاسلامية ـ كما قلنا ـ سواء وليها عربى او تركى ولم يكن حبهم للاتراك الا حب المسلم لأخيه المسلم فهو الحب يجتمع على الولاء للاسلام ولم ير العربى أن الترك وغيرهم خير منه ، فان أقوى ما يميز الروح العربية من خصائص هو اعتزاز العربى بذاته وشرفه بأرومته ، ولم يعرف التاريخ أمة حفلت بالانساب ونقاء الاصل مافحل بهما العربي واعتزازه بذاته هو الذى عزف به عن الاهتمام بمظاهر السلطان والحكم فلم يأبه لانتقال الحكم الى العناصر التركية من مماليك وعثمانيين ماداموا يحيون حياة عربية ويتثقفون بثقافة العرب وتطبعهم الفكرة العربية بطابعها الفلاب ، ولم يغضب العرب من الترك الا حين ادركوا ان الترك يعلون من قدر انفسهم عليهم ، وحين ظهر اتجاه الترك الى النزعة الطورانية بدأ العرب يحسون الفروق التى تفصل بينهم وبين الترك وكان هذا من أقوى العوامل التى حركت الشعور بالذات لدى العرب وانهم فى هذا العالم الاسلامى أحق بولايته والقيام عليه وان الواجب يقتضيهم حماية تراثهم والحفاظ عليه .

وبدأت الحركة العربية كفاحها المنظم فتكون « المنتدى الادبى » عام ١٩٠٩ بعد الغاء جمعية الاخاء العربى العثمانى ، وفى نفس العام تكونت « الجمعية القحطانية » وان لم تتعد دائرة التفكير الى العمل الايجابى ثم تكونت « جمعية العرب الفتاة » وقد كونها سبعة من الطلاب العرب عام ١٩١١ ممن يتابعون دراستهم فى باريس وظلت باريس مقرا لها حتى انتقلت قيادتها الى بيروت سنة ١٩١٣ ثم الى دمشق خلال الحرب الاولى . كما أسس السيد محمد رشيد رضا جمعية « الجامعة العربية » فى القاهرة عام ١٩١٠ كما أسس بعض السوريين المقيمين بالقاهرة حزب « اللامركزية العثمانى » عام ١٩١٢ ويدعو الى قيام حكم لا مركزى فى الدولة العثمانية وعلى غراره وفى نفس اتجاهه تأسست «جمعية الاصلاح» فى بيروت عام ١٩١٣ ، كما ألف الضابط عزيز على المصرى عام ١٩١٤ جمعية من العسكريين العرب دعاها «جمعية العهد» وترمى ـ كما قال لى بنفسه ـ الى احياء مجد الدولة العثمانية باصلاح نظام الحكم سواء فى ولاياتها العربية او الاوربية . بقيام حكم فيدرالى يحقق للولايات العثمانية حكما ذاتيا فى ظل الدولة وتحت لواء الخلافة .

وبلغت الحركة العربية ذروتها عندما عقد بعض شباب العرب «مؤتمر باريس» عام ١٩١٣ وكانوا على صلة وثيقة برجال «جمعية العرب الفتاة» ودعوا اليها الجمعيات والهيئات العربية الاخرى ، وطلبوا الى حزب اللامركزية العثمانى فى القاهرة ان يتبنى الدعوة ويرأس المؤتمر على اعتبار ان اهدافه هى التى يرمى العرب الى تحقيقها فى مختلف الولايات العربية فى الدولة العثمانية وجاء فى ذكر الاسباب التى حملتهم على التفكير فى عقد المؤتمر ماجره تجاهل مطالب الاصلاح في البلاد العربية من اشاعة الفوضى وتعرضها للتدخل الاجنبى .

وبالرغم مما لقيه العرب من عنت الاتراك واستبداد الاتحاديين ظلوا يتطلعون في امل ورجاء الى هذا الرباط المقدس الذى يربط بينهم وبين الترك ويقف جميع المسلمين فى بقاع الارض على الولاء له ، فلم يفكروا فى الانفصال عن الدولة العثمانية ولم تتجاوز حركتهم القومية المطالبة بالحكم الذاتى فى اطار الدولة العام .

وانتهت الحرب الاولى بالقضاء على الدولة العثمانية وتقسيم البلاد العربية بين الدول المستعمرة وأصبح العالم العربى وهو خاضع للاستعمار الانجليزى والفرنسي والايطالى وبدات معركة الكفاح في سبيل الاستقلال فشغلت العرب عن وحدتهم ، الا ان جذوة القومية بقيت كامنة لبعث جديد حلت فيه الفكرة العربية الخالصة محل الفكرة الاسلامية فكان واقعها المعاصر وكفاحها الجديد لتحقيق ذاتها وكيانها الموحد ، وادرك الاستعمار تلك الروح الكامنة فى العرب فأراد ان يحولها عن مجراها الاصيل الى التشيع لوحدات تخدع الامة العربية عن املها فى دولة قومية بقيام وحدة ظاهرية ترضى الشعوب العربية وفى الوقت ذاته تقوى الرباط الاقليمى وتدعمه ، فكان تأييد بريطانيا لقيام «جامعة الدول العربية» يتمثل فيها مايتطلع اليه العرب من وحدة وتبقى على الكيان الاقليمى لكل دولة على حدة ، وهو كيان تتشيع له وترتضيه العناصر الحاكمة فى كل دولة بدلا من ان تذوب سلطتها فى دولة موحدة .

ولكن بريطانيا التى اوحت بقيام «جامعة الدول العربية» ومهدت له ، رات أن الجامعة تسير في سياسة استقلالية لاتحقق اهداف بريطانيا السياسية وان سوريا ولبنان حريصتان على استقلالهما

وان مصر والعراق تبغيان تصفية الاحتلال البريطانى والالتزامات التى ترتبت عليه والتحرر منها نهائيا والتخلص من المعاهدات التى تربط بينهما ، وفشلت محاولاتها فى ربطهما بعجلتها فقوبل مشروعاتفاقية « صالح جبر – بيفن » فى العراق بثورة شعبية كما قوبل مشروع « اتفاقية صدقى – بيفن » بنفس ما قوبلت به اتفاقية « جبر – بيفن » فى العراق . واخذ المغرب العربى يمور بالثورة على الاحتلال الفرنسى .

وتنكرت بريطانيا للوحدة العربية بعد أن لمست مشاعر العرب نحوها وانهم يصرون على تصفية كل اثر للاستعمار البريطانى فى المنطقة وان الجامعة العربية لا تملك غير التعبير عن تلك الآمال التى تجيش فى صدور العرب وانها غدت فى يد العرب أداة لمقاومة النفوذ الاستعمارى فى العالم العربى فأخذت تكيد لها وتعمل على تحطيمها فاحيت من جديد مشروع الهلال الخصيب وسوريا الكبرى وأيقظت آمال الهاشميين حتى تضرب بهم وحدة العرب وغذت عوامل الاثرة والانانية بين الحكام العرب ، وتشيعت للشعوبية والاقليمية ثم رمت الامة العربية باسرائيل حيث اعلنت انهاء انتدابها على فلسطين قبل أن تهيىء لها نوعا من الاستقرار والنظام لتتركها لقمة سائغة للصهيونية ، وارتكبت جريمة أخرى حين منعت عرب فلسطين من التسلح لمواجهة ذلك الموقف الطارىء امام العصابات الصهيونية التى جهزتها بالسلاح والعتاد . وتلى ذلك مهزلة الحرب فى فلسطين التى انتهت باغتيال بقعة عزيزة من بقاع الوطن العربى وقيام دولة دخيلة فوقها .

الا أن مأساة فلسطين كانت الصدمة التى أيقظت الامة العربية على الواقع المرير الذى جره الاستعمار عليها ومن ثنايا المأساة تبين العرب طريقهم الواضح واخذ التاريخ العربى مجراه الصحيح من الوحدة والاتساق مرة اخرى ، وان حلت الفكرة العربية محل الفكرة الاسلامية ، وغدت عبارة « القومية العربية » مدلولا على امة ترتبط بوحدة التاريخ ووحدة الثقافة ولكل منهما جذوره البعيدة فى القدم ، الا ان القومية العربية لم تستهد فكرتها المعاصرة الا على يد جمال عبد الناصر فهو الذى تبنى الدعوة الى القومية العربية خالصة من الشعوبية والاتجاهات الاقليمية ، ووضع لها فلسفتها ومعانيها التى تقوم عليها والتى ترتبط بواقعها المعاصر ، فهى فى حاجة – كما يقول : الى ان تسلح نفسها بقدرات ثلاث تستطيع بواسطتها ان تتصدى لمعركة المصير التى تخوض غمارها اليوم وان تنتزع النصر محققة أهدافها من جانب ومحطمة جميع الاعداء الذين يعترضون طريقها من جانب آخر :

وهذه القدرات الثلاث هى

أولا – الوعى القائم على الاقتناع العلمى النابع من الفكر المستنير والناتج من المناقشة الحرة التى تتمرد على سياط التعصب والارهاب .

ثانيا – الحركة السريعة الطليقة التى تستجيب للظروف المتغيرة التى يجابهها النضال العربى على ان تلتزم هذه الحركة باهداف النضال وبمثله الاخلاقية .

ثالثا – الوضوح فى رؤية الاهداف ومتابعتها باستمرار وتجنب الانسياق الانفعالى الى الدروب الفرعية التى تبتعد بالنضال الوطنى عن طريقه وتهدر جزءا كبيرا من طاقته وان الحاجة الى هذه الاسلحة الثلاثة تستمد قيمتها الحيوية من الظروف التى تعيشها التجربة الثورية العربية وتباشر تحت تاثيراتها دورها فى توجيه التاريخ العربى .

وان عهودا طويلة من العذاب والامل بلورت فى نهاية المطاف أهداف النضال العربى ظاهرة واضحة صادقة فى تعبيرها عن الضمير الوطنى للامة وهى :

الحرية والاشتراكية والوحدة

«لقد أصبحت الحرية الآن تعنى حرية الوطن وحرية المواطن»

«واصبحت الاشتراكية وسيلة وغاية هى الكفاية والعدل»

« واصبح طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية لعودة الامر الطبيعى لامة واحدة مزقها اعداؤها ضد ارادتها وضد مصالحها ، والعمل السلمى من أجل تقريب يوم هذه الوحدة «ثم الاجتماع على قبولها ، تتويجا للدعوة والعمل معا» .

«لقد كانت هذه الاهداف نداءات مستمرة للنضال العربى ولكن الثورة العربية الآن تواجه مسئولية شق طريق جديد امام هذه الاهداف» .

فى هذا الطريق عمل جمال عبد الناصر طوال حياته حتى سقط شهيداً فى معركة من معارك القومية العربية .

حسين فوزى النجار



عبد الناصر والاشتراكية العلمية

د. ابراهيم سعد الدين

بعد أن يلعن الميثـاق فى افتتـاحية فصله السادس عن حتمية الحل الاشتراكى لحل مشاكل التخلف الاقتصادى فى مصر على ضـوء ظروف الواقع المصرى والآمال العريضة للجماهير والطبيعة المتغيرة للعالم فى النصف الثـانى من القرن العشرين ، وبعد أن يحلل الظروف التى أمكن فيها تحقيق التقدم عن طريق التجارب الرأسمالية فى الغرب وعدم امكان تكرار هذه التجارب بالاضافة الى عدم ملاءمتها لروح العصر يعلن الميثاق :

« ان الاشتراكية العلميـة هى الصيغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح للتقدم وأن أى منهج آخر لا يستطيع بالقطع أن يحقق التقدم المنشود » .

ومنذ أعلن الميثاق هذا النص فقد أصبح معنى الاشتراكية العلمية فى الميثاق - الوثيقة النظرية الاولى التى تبين فكر عبد الناصر حول كيفية بناء المجتمع الاشتراكى - موضعا لتساؤلات عديدة . لقد برزت هذه التساؤلات منذ اللحظة الاولى داخل المؤتمر القومى للقوى الشعبية الذى ناقش الميثاق ذاته . كما برزت التساؤلات من مصادر متعددة داخل الجمهورية العربية المتحدة وخارجها ، فتلقى الرئيس فى نفس فترة مناقشة الميثاق وقبل نهاية المؤتمر برقية من طالب لبنانى يثير فيها تساؤلا عن المقصود بهذا النص على ضوء مناقشات الرئيس السـابقة . كما أثير فى حـديث للرئيس مع الصـحفيين العـراقيين الذين كانوا يزورون



الجمهورية العربية المتحدة فى فبراير عام ١٩٦٦. وناقشه الرئيس نفسه في عدد من خطاباته وتصريحاته المتعددة خاصة خلال الفترة بين ٦١ - ١٩٦٦ . وكان التساؤل يثور دائما حول مدى التطابق بين الاشتراكية العلمية فى المعنى الذى حدده الميثاق وبين الماركسية وعن ما هية الخلافات بينهما .

ان قصر التساؤل على هذه الناحية يعود اساسا الى أن اصطلاح الاشتراكية العلمية هو الاصطلاح الذى أطلقه انجلز على النظرية الماركسية تمييزا لها عن محاولات سابقة لطرح شكل للتنظيم الاجتماعى الاشتراكى وصفها انجلز بأنها اشتراكية خيالية . وقد استمر هذا الاصطلاح لصيقا بالماركسية اللينينية حيث تستخدمه الاحزاب الماركسية اللينينية ليس فقط للتعبير عما ورد فى كتابات كل من ماركس وانجلز ولينين من نظريات وتعميمات ومنهج للبحث ، وانما تتضمن أيضا ما تصل اليه الاحزاب الشيوعية والاجتماعات الدولية لهذه الاحزاب من نتائج تتعلق ببناء المجتمع الاشتراكى من واقع التجربة والدراسة للتطور المستمر للظروف الجديدة التى تواجهها هذه الاحزاب .

وكان من الطبيعى ازاء هذا النوع من التساؤلات أن تتركز الردود على طبيعة الفروق - الموجودة فعلا - بين الفكر الاشتراكى الذى يعبر عنه الميثاق وبين الماركسية، وهو ما سنلخصه فيما بعد ،دون أن نبذل عناية كبيرة لشرح معنى العلمية والمقصود بورود هذا التعبير فى ميثاق العمل الوطنى . على انه يلاحظ انه على الرغم من اللبس الذى يثار احيانا بسبب هذا التعبير - والذى حرص جمال عبد الناصر دائما على تجنبه - وانه من ناحية أخرى أصر دائما على تأكيد ان الاشتراكية العلمية هى منهجنا وانه لا منهج سواه يمكن أن يؤدى الى تحقيق التقدم والقضاء على التخلف . ففى بيانه الى مجلس الامة فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦٤ يؤكد عبد الناصر على هذا قائلا :

« طبعا والميثاق قال ان الاشتراكية العلمية هى الصيغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح . وانا عاوز أكرر هذا الموضوع أنا برضه علشان أتكلم فيه » .

وبعد أن يوضح ما يقال من ان الاشتراكية العلمية هى الكفر وان اشتراكيتنا عربية وليست علمية يرد على ذلك قائلا :

« كل واحد علشـــان ينجح لازم يمشي بطريقة علميـــة اذا كنا عاوزين اشتراكية سليمة ناجحة لازم تكون بطريقة علميـــة والعكس للطريقة العلمية هى الطريقـــة الفوضى فاحنـــا اشتراكيتنا هى اشتراكية علمية • قايمة على العلم وليست قايمة على الفوضى » •

ثم يفرق بين كون اشتراكيتنا علمية وبين انهـــا مادية فيقول :

« ما هواش أبدا اشـــتراكية مادية ، ما قلناش أن احنـــا اشتراكيتنا اشتراكية مادية ، وما قلناش ان احنـــا اشتراكيتنا ماركسية ، وما قلناش ان احنا خرجنا على الدين » •

من هنا ومن مناقشات الرئيس فى اللجنـــة التحضيرية وفى المؤتمر القومى للقوى الشـعبية حيث يشير الى ضرورة الدراسة العلمية لمشـاكل مجتمعنا باعتبارها الاســـاس الوحيد الصحيح لاستنباط الحلول الصحيحة لمشاكل هذا المجتمع يتبين التأكيد على علمية الاشتراكية باعتبـــارها صفة اساسية للمنهج الاشتراكى الذى يطبق فى الجمهورية العربية • ويعنينا فى هذا المقال ان نوضح الاهمية الكبرى لهـــذا الربط بدلا من الاقتصار كما هو العادة على بيـــان الفروق بين التطبيق الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة وبين الماركسية •

أولا : فى التفـــريق بين الاشتراكية الخيـــالية والعلمية :

قد يكون من المفيـــد فى مثل هذا المبحث ان نوضح الاسباب التى حدت الى استخدام اصطلاح الاشتراكية العلمية كوصف للماركسية • لقد استخدم الاصطلاح اول ما استخدم بواســـطة انجلز مميزا به الماركسية عن ماسبقها من كتابات ونظريات اشتراكية وصفها انجلز بانها خيالية • وكان انجلز يشير بذلك الى ان الكتاب الاشتراكيين ابتـــداء من مور فى عام ١٥١٦ وحتى كتابات سان سيمون وفوريبه وأوين كانوا قد توصلوا الى نتائجهم استنادا الى خبراتهم وتجاربهم الخاصـــة وبأعمال فكرهم المستقل لتحـــديد الكيفية التى يجب ان ينظم بها المجتمع مستقبلا تحقيقا لرفاهية الانسان وسعادته وقضـــاء على الاستغلال فى المجتمع البشرى • وان أغلب هؤلاء المفكرين كانوا يعتمدون فى اقامة النظام الاجتماعى الجديد على اقناع ذوى الســـلطة فى تبنى وتأييد خططهم الاصلاحية • وعلى العكس من هذا الاسلوب تناول ماركس وانجلز المجتمع القائم بالدراسة والتحليل بهدف التعرف على القوانين التى تحكم حركة هذا المجتمع • وجاء اعتقادهما بحتمية الانتقـــال الى الاشتراكية كاســـتنتاج مبنى على الدراســـة الموضوعية لحركة المجتمع وخاصـــة دراســـة المتناقضـــات التى يتضمنها النظـــام الرأسمالى وطبيعة الصراعات الناشـــئة فيه • وتبرز هذه الفكرة بوضوح فى البيان الشيوعى الذى يقول :

« ان ما توصـــل اليه الشـــيوعيون من استنتـــاجات نظرية لا يقوم بأى حال من الاحوال على الافكار والمبادىء التى اخترعها أو ابتدعها هذا المصلح العـــالمى أو ذاك ، ان هذه الاستنتاجات انمـــا تعبر فقط – وبكلمات عامة – عن علاقات حقيقية نابعة عن صراع طبقى قائم فعلا ، نابعة عن حركة تاريخية تســـير وتتحرك تحت ســـمعنا وبصرنا » •

ومهمـــا اختلف الامر حول الاستنتاجات التى وصلت اليها الماركسية ومدى صحتهـــا فليس هنـــاك من جدال فى ان رواد الماركســـية قد استخدموا التحليل العلمى للظواهر الاجتماعية محاولين استنتاج قوانين عامة لحركتها • ويكفى للتدليل على مثل هذه الدراسة ان نشير الى كتاب ماركس الشهير – **رأس المال** • وكتابات انجلز عن تاريخ الحركة العمالية فى بريطانيـــا وعن أصل العائلة والملكية الخاصة وغيرها من الاعمال الهامة كما يكفى ان نشير الى الدراسات الجدية التى قام بها لينين عن الواقع الاجتماعى والاقتصادى فى روسيا فى كتابه عن الرأسمالية فى روسيا وعن التطور العالمى للرأسمالية فى كتابه الشهير عن الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية ، وقد خلص ماركس وانجلز ولينين من دراساتهم الى استنتاج قوانين عامة للحركة وقوانين أخـــرى عن حركة المجتمع الرأسمالى بالذات وكيفية انتقـــاله الى النظام الاشتراكى • وقد تمت هذه الدراســـة العلمية للمجتمع الرأسمالى فى ظروف تاريخيـــة محددة • وقد أدى التغيير فى بعض هذه الظروف الى ضرورة بحث الظواهر الجديدة ودراســـتها دراسة علمية واستنبـــاط القوانين المعبرة عن الظواهر الجديدة فى المجتمع • وكتاب لينين عن الامبريالية هو مثال على مثل هذا التجديد •

والقوانين التى استنبطتها الماركسية مثلها مثل غيرها من القوانين العلمية الاخرى قابلة للتأكيد كما انها قابلة للاثبات العكسى • ومن هنا فان رواد الماركسية يشيرون فى أكثر من موضع ان محك صحة أى نظرية بما فيها النظريات التى يصلون هم اليها هو مدى مطابقة هذه النظريات والقوانين للواقع كما يستبين ذلك من التطبيق العملى لهذه القوانين ووضعها موضع التجريب •

واذا كانت العلمية هى صفة ترتبط فى الاساس باستخدام اسلوب ومنهج علمى فى دراسة حركة المجتمع • وفى الوصول الى نتائج قابلة للتأكيد أو النفى كنتيجة لهذه الدراسة فان صفة العلمية تستمر قائمة كوصف للاشتراكية ما دامت تعتمد على الدراسة العلمية للظواهر الموضوعية وتطبق فى هذه الدراسة منهجا واسلوبا علميين وسواء فى ذلك خلصت هذه الدراسات الى نتائج مشابهة أو مخالفة لنتائج سبق الوصول اليها بواسطة باحثين آخرين • ان الاختلاف بين النتائج قد يعود الى أسباب متعددة • فبافتراض وحدة المنهج وأسلوب البحث العلمى فقد ينتج الاختلاف عن بروز عوامل جديدة لم يمكن اخذها فى الحسبان بواسطة باحثين سابقين • أو قد ينتج من ان البحث المتعمق فى ظاهرة ما قد يوضح ان التعميم السابق الوصول اليه والذى صيغ فى قانون علمى عام هو حالة فقط من ضمن حالات متعددة مما يطرح ضرورة اعادة صياغة القانون السابق ليكون أكثر دقة فى التعبير عن الظواهر المتنوعة والمتعددة والمتشابكة • وكما يأتى الخلاف نتيجة لمثل هذه العوامل الموضوعية فقد يعبر الخلاف أيضا عن مدى دقة هذا الباحث أو ذلك ومدى مهارته فى التحليل والملاحظة والتعمق فى معرفة اسباب الظواهر أو لغير ذلك من الاسباب •

وككل النظريات العلمية فان القوانين التى تتضمنها الاشتراكية العلمية والمنهج الذى تستخدمه لا يصبح حكرا على من سبق له استنباطه ، ولا ملكا فقط لهؤلاء الذين يلتزمون التزاما كاملا بما وصل اليه من نتائج • فالعلم كما هو معلوم ملك للجميع • ومن هنا فقد تأتى اضافة قوانين علمية جديدة الى القوانين القائمة بواسطة من لا يلتزمون بالنظرية واستنتاجها التزاما حرفيا • وكما يمكن أن تأتى الاضافة او التعديل نتيجة لبحث يتعلق بالظواهر الاجتماعية موضع البحث عامة • فقد تنتج كذلك خلال تطبيق المنهج العلمى لدراسة مجتمع محدد بالذات أو دراسة ظاهرة جزئية معينة من ضمن الظواهر التى تكون الشكل موضع الدراسة •

وتأسيسا على هذا الفهم فان الاشتراكية تبقى علمية اذا كانت الحركة الاشتراكية تستند فى برامجها وتخطيطها للمنهج العلمى مطبقة هذا المنهج على دراسة حركة التطور فى مجتمعها ومستنتجة من هذه الدراسة النتائج الضرورية التى تساعدها فى وضع حركة المجتمع الى امام • حتى وان كانت بعض النتائج التى تصل اليها موضع اختلاف أو جدل • ما دام هذا الاختلاف ليس نتيجة نظرة مسبقة تحاول أن تخفى الحقائق الموضوعية حفاظا على صالح خاص لطبقة أو جماعة بشرية معينة •

ثانيا : الميثاق واستخدام المنهج العلمى فى دراسة تطور المجتمع :

ان الميثاق كما سبق الاشارة اليه هى الوثيقة النظرية الرئيسية التى لخص فيها عبد الناصر خلاصة تفكيره وتجربته حول الثورة المصرية والعربية بمضمونها الاجتماعى ومن هنا فان دراسة هذه الوثيقة من ناحية اسلوبها فى تناول القضايا الرئيسية التى يتعرض لها هو الذى يوضح معنى العلمية فى الميثاق •

فقد صدر ميثاق العمل الوطنى بعد أن قدمه الرئيس للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فى مايو ١٩٦٢ متضمنا دراسة علمية لتطور النضال المصرى ومستنبطا للدروس التى يجب الافادة منها من هذا النضال ، ومحتويا على المبادىء العامة التى تحكم التطبيق الاشتراكى فى مجتمعنا ومحددا لخطة العمل الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى مجتمعنا فى الفترة بين ١٩٦٢ ـ ١٩٧٠ •

وقد صدر الميثاق بعد فترة من التجربة قاربت عشر سنوات وصفها عبد الناصر فى مناقشاته فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية بأنها كانت فترة تجربة وفترة ممارسة «**كانت فترة مشينا فيها بالتجربة والخطأ**» ذلك لأن الشعب الثورى بدأ زحفه الثورى كما يعلن الميثاق «**من غير تنظيم سياسى يواجه مشاكل المعركة كذلك فان هذا الزحف بدأ من غير نظرية كاملة للتغيير الثورى**» فالمبادىء الستة التى نحتتها ارادة الثورة من مطالب النضال الشعبى واحتياجاته «**لم تكن نظرية عمل ثورى كاملة ولكنها كانت فى تلك الظروف دليلا للعمل يمثل عمق الارادة الثورية، وقد تطورت هذه المبادىء بفضل النضال الشعبى**



الذى راح يحركها بالتجربة والممارسة وبالتفاعل الحى مع التاريخ القومى تأثرا به وتأثيرا فيه نحو برنامج تفصيلى يوضح طريق الثورة الى أهدافها اللامتناهية » والميثاق على هذا الاساس هو دليل نضال مجتمعنا فى مرحلة التحول الاشتراكى قدمه المناضل عبد الناصر الى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ليكون أساسا لتوحيد نضال كافة القوى الثورية فى مرحلة الانتقال الى الاشتراكية ٠

ان ميثاق العمل الوطنى باعتباره سلاحا للنضال فى مرحلة الانتقال الى الاشتراكية قد عنى بأن يتعرض الى كافة القضايا الاساسية لنضال شعبنا المصرى باعتباره جزءا من امتنا العربية وباعتبارها جزءا من العالم المتخلف اقتصاديا والذى ينشد النمو وتحقيق توسيع قاعدة الثروة الوطنية ٠

ولكن الميثاق باعتباره اساسا لتوحيد كافة القوى الثورية فى مجتمعنا قد تجنب فى نفس الوقت حسم عدد من القضايا ذات الطبيعة النظرية العامة التى لا يؤدى حسمها بصورة أو بأخرى الى أية نتائج ايجابية فيما يختص بتوحيد القوى الثورية فى مجتمعنا والذى لا يؤدى حسمها بالتالى الى اغناء كفاح شعبنا ونضاله ٠

والميثاق باعتباره سلاحا لنضال شعب مصر بالذات قد ركز فى الأساس على دراسة تطور نضال شعبنا واستخراج الدروس المستفادة من هذا النضال ٠ وان كان من الضرورى فى نفس

الوقت أن يربط بين هذا النضال وبين طبيعة الثورة الشاملة التى تجرى على مستوى امتنا العربية باعتبار شعبنا جزء لايتجزأ من هذه الأمة. وكذلك كان من الضرورى للميثاق أن يتعرض لقضايا التخلف الاقتصادى والطرق المتاحة لحل هذه القضايا بشكل عام وهو يبحث قضية الحل الأمثل لقضية التخلف فى مصر .

ان الدراسة العلمية لتطور مجتمعنا تتم على أساس من منهج شمولى يرى مصر باعتبارها جزءا من العالم المتطور والمتغير ولذلك يدرس الميثاق قضايا التطور المصرى فى ضوء التطور العالمى المعاصر . وحاول أن يتعرف على أثر التغيرات الشاملة والعميقة فى الظروف الدولية على طبيعة النضال الوطنى فى منطقتنا .

ان هذا المنهج هو الذى يشير اليه عبد الناصر فى افتتاح الدورة الاولى لمجلس الامة فى مارس ١٩٦٤ عندما يوضح أنه قد خرج من المرحلة الاولى للثورة، **وقد ملكنا شيئا هاما كانت له كل الفائدة فى الوصول للتحول العظيم** الى قرب غايتها . **هذا الشىء الهام هو الوضوح الشامل لم تعد جزئيات المشاكل امامنا معارك متفرقة واصبحت الكليات مرتبطة متماسكة تكاد تكون فى متناول أيدينا قوانين للحركة الاجتماعية والسياسية » .**

والميثاق اذ يدرس قضايا تطور مجتمعنا بهذا المنهج يحاول ان يستخرج من هذه الدراسة القوانين العامة التى تحكم العلاقة بين الظواهر التى يدرسها . ولكن اختلاف طبيعة الظواهر التى يدرسها الميثاق تؤدى بالتالى الى اختلاف طبيعة التعميمات التى يخرج بها. فبعضها ينصرف أساسا الى بعض الظواهر المصرية . وبعضها يختص بظواهر عربية على النطاق القومى .وأخرى يراها صحيحة على نطاق العالم الثالث فى مجموعه بينما هناك طائفة أخرى من التعميمات التى يراها الميثاق صحيحة بشكل عام بغض النظر عن طبيعة المجتمع التى توجد فيه هذه الظواهر. ونكتفى هنا بالاشارة الى بعض أنواع هذه التعميمات .

فالميثاق عندما يتحدث عن الملكية الفردية باعتبارها الحل الملائم للمشكلة الزراعية يتحدث عن حل المشكلة الزراعية فى مصر بالذات وعن الظروف الموضوعية لمصر على وجه التحديد .كذلك عند الحديث عن اقامة تحالف قوى الشعب ليحل محل تحالف الاقطاع ورأس المال المستغل يتحدث الميثاق على وجه التحديد عن التجربة المصرية.وعلى العكس من ذلك فان الميثاق يؤكد ان الثورة هى الطريق الوحيد الذى يستطيع النضال العربى أن يعبر عليه من الماضى الى المستقبل . فالحديث هنا هو عن الأمة العربية فى مجموعها وعن الثورة باعتبارها هى الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بها الأمة العربية أن تخلص نفسها من الاغلال التى كبلتها ومن الرواسب التى اثقلت كاهلها . وان عوامل القهر والاستغلال لن تستسلم بالرضا وانما لابد على القوى الوطنية ان تصرعها وأن تحقق عليها انتصارا حاسما ونهائيا .

أما بالنسبة لكيفية تحقيق التطور الاقتصادى فى البلاد المتخلفة فان الميثاق يعمم ليتحدث عما يعتقده قانونا صحيحا بالنسبة للعالم المتخلف بشكل عام . فيتحدث الميثاق عن « **ان رأس المال فى تطوره الطبيعى فى البلاد التى أرغمت على التخلف لم يعد قادرا على أن يقود الانطلاق الاقتصادى فى زمن نمت فيه الاحتكارات الرأسمالية الكبرى فى البلدان المتقدمة اعتمادا على استغلال موارد الثروة فى المستعمرات** » .

ويستطرد الميثاق ليحدد « **ان العمل من أجل زيادة قاعدة الثروة الوطنية لا يمكن أن يترك** لعفوية **رأس المال الخاص المستغل ونزعاته الجامحة** » .

كذلك فان اعادة توزيع فائض العمل الوطنى على أساس من العدل لا يمكن أن يتم بالتطوع القائم على حسن النية مهما صدقت .

ان ذلك يضع نتيجة محققة أمام ارادة الثورة الوطنية لا يمكن بغير الوصول اليها ان تحقق أهدافها . وهذه النتيجة هى ضرورة سيطرة الشعب على كل أدوات الانتاج وعلى توجيه فائضها طبقا لخطة محددة .

وان هذا الحل الاشتراكى هو المخرج الوحيد الى التقدم الاقتصادى والاجتماعى ، وهو طريق الديموقراطية بكل أشكالها السياسية والاجتماعية .

أما عند الحديث عن العلاقة بين الأوضاع الاقتصادية والنظام السياسى والثقافة والتعليم والصحافة فيعمم الميثاق ليتحدث عن العلاقة بين الأوضاع الاقتصادية وسائر هذه الظواهر فى أى مجتمع من المجتمعات فيحدد الميثاق :

« **ان من الحقائق البديهية التى لا تقبل الجدل أن النظام السياسى فى بلد من البلدان ليس الا انعكاسا مباشرا للأوضاع الاقتصادية السائدة فيه وتعبيرا دقيقا**

للمصالح المتحكمة فى هذه الأوضـــاع الاقتصادية » .

واذا كان الميثاق هو تعبير عن تطور المبادىء الستة للثورة « **بفعل التجربة والممارسة والتفاعل الحى مع التاريخ القومى تأثرا به وتاثيرا فيه نحو برنامج تفصيلي يفتح طريق الثورة الى اهدافها اللامتناهية** » . فانه لم يكن من الجائز له أن يتجاهل التجارب السابقة عليه ولا ما وصلت اليه من نتائج . والموقف العلمى الصحيح من هذه التجارب والنتائج هو قابليتها للتأكيد أو الرفض أو التعديل على ضوء الدراسة والتجربة والتعرف على الظروف المتغيرة . ومن هنا يحدد الميثاق ان التجربة الوطنية « **لا تفترض مقدما تخطئة جميع النظريات السابقة عليها أو تقطع برفض الحلول التى توصل اليها غيرها فان ذلك تعصب لا تقدر أن تتحمل تبعاته ، خصوصا ان ارادة التغير الاجتماعى فى بداية ممارستها لمسئوليتها تجتاز فترة أشبه بالمراهقة الفكرية تحتاج خلالها الى كل زاد فكرى** » .

على ان عدم الرفض المسبق لا يعنى بالضرورة التسليم الكامل بالنتائج التى وصلت اليها التجارب السابقة « **والاستغناء بها عن التجربة الوطنية** » .

ويحدد الميثاق بعد ذلك ان التجربة الثورية العربية تواجه مسئولية شق طريق جديد أمام اهدافها . ويشير الميثاق الى ان هذه الضرورة تنبعث أساسا من تغير الظروف الموضوعية التى تتم فى اطارها الثورة العربية فيقول :

« **ان الحاجة الى طريق جديد لا تصدر عن الرغبة فى التجديد لذاته ولا تصدر عن الكرامة الوطنية ، وانما لأن الثورة العربية تواجه ظروفا جديدة ولابد فى مواجهة هذه الظروف الجديدة أن تجد الحلول الملائمة لها** » .

واذا كانت خصائص الشعوب ومقومات الشخصية الوطنية هى احدى أسباب الاختلاف فى طرق حل المشاكل التى تجابهها فان الميثاق لا يعتبر هذا هو السبب الرئيسى لضرورة شق طريق جديد امام الثورة العربية فالخلاف الأكبر الذى يبرزه الميثاق « هو ما تفرضه الظروف **المتغيرة التى تسود العالم كله وتحكمه خصوصا هذه التغييرات البعيدة المدى التى طرأت على العالم** بعد الحرب العالمية الثانية من سنة ١٩٣٩ الى سنة ١٩٤٥ .

ان هذه الظروف تأتى بتغييرات شاملة وعميقة على الجو الذى يجرى فيه النضال الوطنى لكل الأمم » .

واذا كانت هذه الظروف المتغيرة تتطلب ايجاد طرق جديدة للكفاح ووسائل جديدة للحل فليس معنى ذلك اختراع مفاهيم جديدة لأهداف النضال فيذكر الميثاق صراحة ان النضال الوطنى للشعوب والأمم غير مطالب « **بأن يخترع مفاهيم جديدة لأهدافه الكبرى» «ولكن مطالب بأن يجد الأساليب المسايرة لاتجاه التطور العام والمتفقة مع طبيعة العالم المتغيرة** » .

واذا كان الميثاق يرى أن العمل الاشتراكى لم يعد حتما عليه « **ان يلتزم التزاما حرفيا بقوانين جرت صياغتها فى القرن التاسع عشر** » فانه يستند فى ذلك الى أن التقدم فى وسائل الانتاج ونمو الحركات الوطنية والعمالية فى مواجهة سيطرة الاستعمار والاحتكارات وازدياد فرص السلام فى العالم بتأثير القوى المعنوية وبتأثير ميزان الرعب الذرى فى نفس الوقت « **يخلق ظروفا جديدة أمام التجارب الاشتراكية تختلف تماما عن الظروف السابقة ، بل انها تستوجب هذا الخلاف وتحتمه كضرورة** » .

ان نفس هذا الاسلوب العلمى فى دراسة الظواهر هو الذى يستخدمه عبد الناصر فى العديد من تحليلاته لاهم المشاكل التى تواجه مجتمعنا . ويكفينا كمثال ان نعود الى تحليله لطبيعة اسرائيل وعلاقتها بالاستعمار . ويعطى عبد الناصر نفسه فيمه لهذه المشكلة باعتباره مثلا على النظرة الشاملة التى تربط بين الجزئيات فى خطابه الى مجلس الامة فى مارس ١٩٦٤ . ويقول :

«**لم تعد اسرائيل فى مواجهتنا شيئا والاستعمار شيئا آخر يختلف . ولقد كانت هناك محاولات للتجزئة تريد تفتيت المشاكل تصور بالوهم . ان اسرائيل هى مشكلة لاجئين تحل فلا تبقى من مشكلة فلسطين شىء وتصور بالوهم ان القوة التى صنعت اسرائيل يمكن أن تكون صلة بيننا وبين اسرائيل أو حكما أو طرفا محايدا**» .. تحطمت هذه الاوهام، ان خطر اسرائيل هو وجود اسرائيل كما هى موجودة الآن وبكل ما تمثله وأول ماتمثله ـ كما يثبت استقراء التاريخ والتجربة ـ هى انها

بغير الاستعمار لا تكون .. هى له ولخدمته ولاهدافه فى السيطرة والاستغلال . يرتبط بذلك ان وجودها هو امتداد للوجود الاستعمارى ويتبع من ذلك ان انتصار الحرية والسلام فى تصفية الوجود الاستعمارى لا يمكن ان تمضى بأى أثر على الوجود الاسرائيلى ، معركة واحدة متصلة وان اتسع ميدانها ليشمل قارات بأكملها وحين تحقق الحرية انتصارها الكامل فى افريقيا - ولسوف تصل الى ذلك مهما كانت الصعاب - فان شمس الاستعمار القاسية سوف تسقط فى المحيط تجر ذيلها وراءها ولن تهرب اسرائيل من المصير .

وحين نقرر دخول الحرب لمواجهة الخطر الاسرائيلى فان يتعين علينا ان نرى بوضوح ابعاد المعركة وافاقها وان ندرك اننا نحتاج فيها الى أكثر مما يكفى من مواجهة اسرائيل وحدها وانما نحتاج الى القوة القادرة على التصدى لمن وراء اسرائيل أو على الاقل لاصابتهم بالشلل . ويتصل بذلك على الفور ان مشكلة اسرائيل ليست هى مشكلة فلسطين دائما هى - بعد فلسطين - ابعد أثرا وخطرا . ان اسرائيل خطر توسعى حقيقى يخطط لدولة اكبر من حدود الدولة الحالية يعمل ليوم تتحول فيه الشعوب العربية - بين الفرات والنيل - الى فلول من اللاجئين » .

ان صدق هذا التحليل وعلميته تتضح كل يوم فى السلوك العملى لكل من اسرائيل وقوى الاستعمار العالمى وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية . ولم يكن الوصول الى هذا الوضوح الا نتيجة لاستخدام ذلك المنهج الشامل الذى يربط بين الجزئيات ليستخرج منها كما قال عبد الناصر قوانين للحركة الاجتماعية والسياسية .

ثالثا: حول الاتفاق والاختلاف مع الفكر الاشتراكى العالمى :

ان موقف عدم الرفض المسبق لنتائج التجارب السابقة ولا للنظريات أو القوانين المستنتجة من دراسة هذه التجارب ، مع عدم التسليم بالضرورة بصحة كل النتائج السابقة وعدم الوقوف عندها والاقدام على شق طريق جديد لمواجهة الظروف الموضوعية المتغيرة . مثل هذه النظرة تعنى بالضرورة ان هناك نقاط التقاء متعددة مع الفكر الاشتراكى العالمى كما ان هناك نقاط للخلاف معه . ان التركيز عادة يتم على نقط الخلاف دون نقط الالتقاء وذلك اما دفعا لاتهام أو رغبة من البعض فى فصل تيار الثورة المصرية عن تيار الثورة الاشتراكية فى العالم . ولكن الدارس للفكر الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة كما عبر عنه عبد الناصر فى الميثاق وفى كتاباته وخطبه وتصريحاته يتضح له بجلاء وجود عديد من نقاط الالتقاء مع الفكر الاشتراكى العالمى - والفكر الماركسى بالذات فى عديد من النقاط نجملها فيما يلى :

١ - الايمان بالتطور وانه لا وجود لنظام اجتماعى ثابت لا يتغير بتغير الظروف الموضوعية التى أدت الى نشوء هذا النظام .

٢ - ان التطور الاجتماعى تحكمه قوانين علمية معينة يمكن استخلاصها من دراسة تطور النظم الاجتماعية المختلفة .

٣ - ان هذا التطور لا يحدث كنتيجة لدفع خارجى لعوامل غير منظورة وانما يحدث لأن النظام الاجتماعى القائم لم يعد قادرا على حل التناقضات التى تنشأ بين قوى الانتاج من جانب وبين العلاقات الانتاجية والاجتماعية القائمة من الجانب الآخر .

٤ - ان التناقضات تبدو فى المجتمع الطبقى فى شكل صراع اجتماعى بين الطبقات ، وأن التقدم الاجتماعى يحدث خلال حركة الطبقات الصاعدة صاحبة المصلحة فى التغير ضد الطبقات المسيطرة التى تعمل على حماية العلاقات الاجتماعية والانتاجية القائمة رغم التناقض بينها وبين تطور قوى الانتاج .

٥ - ان الأنظمة السياسية والتعليمية والثقافية والصحافة ... الخ فى مجتمع معين تعكس طبيعة الوضع الاقتصادى القائم وانها تكرس لحماية الطبقات المتسلطة اقتصاديا .

٦ - ان حل تناقضات المجتمع الرأسمالى لاتتم الا على أساس من سيطرة الشعب على أدوات الانتاج وتوزيع العائد على أساس من المشاركة فى الانتاج والتخطيط الشامل للاقتصاد وتحقيق السيطرة السياسية للطبقات صاحبة المصلحة فى التغيير .

٧ - ان المجتمع الاشتراكى هو المجتمع الذى



ينتفى فيه كل استغلال من الانسان للانسان وتذوب فيه الفوارق بين الطبقات ويتحقق بناء صناعة حديثة وزراعة متطورة قادرة على رفع انتاجية الفرد وبالتالى على تحقيق مستوى مرتفع لمعيشة السكان .

٨ - ان الطريق الى تحقيق المجتمع الاشتراكى - وعلى الاخص فى مجتمعنا العربى - هو طريق الثورة وان الثورة تتضمن استخدام القوة للاستيلاء على السلطة بواسطة الطبقات صاحبة المصلحة فى اقامة النظام الاجتماعى الجديد واستخدام هذه السلطة السياسية فى تغيير جذرى لأسس النظام الاقتصادى والاجتماعى واعادة تشكيل علاقات القوى الاقتصادية والاجتماعية فيه على أسس جديدة .

٩ - ان اتمام التحول الاشتراكى يتطلب تجنيد طاقات الجماهير الثورية ومشاركتها الواعية فى عملية البناء . وان ذلك لا يتم الا خلال تنظيم هذه الجماهير وتعبئتها وقيادتها بواسطة تنظيم سياسى طليعى يضم العناصر الاشتراكية الصلبة والمؤمنة .

١٠ - ان اتمام التحول الاشتراكى يتطلب بالضرورة فترة انتقالية تتميز باشتداد الصراع بين النظام الاشتراكى الناشىء وبقايا النظام الرأسمالى المنهار وتتضمن بالتالى زيادة فى حدة الصراع بين قوى الثورة وقوى الثورة المضادة .

على ان الثورة المصرية تخالف الاشتراكية الماركسية فى عدد من القضايا الهامة نلخصها فيما يلى :

١ - الموقف من الدين :

فالفلسفة الماركسية باعتبارها فلسفة مادية ترفض الدين اساسا وتنظر اليه باعتباره احد معوقات التفكير العلمى وبالتالى احد معوقات تطور المجتمع وعلى العكس من هذا الموقف يحدد الميثاق بين الضمانات الرئيسية التى تمكن لنضال الشعب «**ايمان لا يتزعزع بالله وبرسله وبرسالاته المقدسية التى بعثها بالحق والهدى الى الانسانية فى كل زمان ومكان**» .

ويؤكد الميثاق مرة أخرى « **ان القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الانسان وعلى اضاءة حياته بنور الايمان ، وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير وللحق والمحبة**».

كما يشير الى « **ان جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة ، وانما ينتج التصادم فى بعض الظروف من محاولات الرجعية ان تستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم ، وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الالهية السابقة** » .

لقد كانت جميع الأديان ذات رسالة تقدمية ، ولكن الرجعية التى أرادت احتكار خيرات الأرض لصالحها وحدها أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين وراحت تلتمس فيه ما يتعارض مع روحه ذاتها لكى توقف تيار التقدم .

فالثورة المصرية ترى للدين دورا ايجابيا خلاقا وتصارع ضد استخدامه بواسطة القوى الرجعية لمحاربة التقدم .

٢ – نوعية القوى التى تقود النضـــال الثورى وطبيعة السلطة فى مرحلة الانتقال :

فالماركسية ترى ان قيـــادة الطبقـــة العاملة للنضال الثورى فى شكل حزبهـــا الطليعى هو قانون عام للثورة الاشتراكية وان تحقيق شكل من اشكال ديكتاتورية البروليتـــاريا شرط عام ضرورى لتحقيق مهام فترة الانتقـــال ، والفكر الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة لا يرى ذلك قانونا عاما ينطبق على كافة المجتمعات ٠ واذا كانت الثورة تتطلب بالضرورة استيلاء الطبقـات والفئات صـــاحبة المصلحة فى اقامة النظـــام الاشتراكى على السلطة واستـخدام هذه السلطة من اجل القضاء على اسس النظام الرأسمالى وبناء النظام الاشتراكى فان طبيعة هذه الطبقات والفئات قد تختلف من مجتمع لآخر طبقا لدرجة نمو قوى الانتاج وتطور الوعى ومدى التفاوت الطبقى وغير ذلك من الأمور ٠ وهى من ثم ترى أن الســـلطة السياسية اللازمة لاتمام التحول الاشتراكى فى مصر هى سلطة قوى الشعب العاملة بفئاتها التى عددها الميثاق ، وهى ما سنتطرق اليه بشىء من التفصيل عند الحديث عن تحالف قوى الشـــعب العاملة ٠

٣ – ان الثورة المصرية لا تلتزم بما تنبأت به الماركسية من أن المجتمع الاشتراكى بصـــفاته السابقة الاشارة اليها هو مرحلة أولى يعقبهـــا تطوره الى المجتمع الشيوعى الذى يتصف بالوفرة الكاملة والقدرة على الوفاء بحاجات كافة الأفراد والذى تتلاشى فيه الدولة تدريجيا ٠

٤ – النظرة الى الملكية الفردية : فعلى الرغم من ان بعض التجارب التى تهتدى بالماركسية اللينينية تسمح فى مرحلة تاريخية معينة ولاعتبـــارات مرحلية ببقاء نوع معين من الملكية الفردية الا ان النظرية الماركسية ترى أن استكمال بناء النظام الاشتراكى تتضمن احلال الملكية العـامة والملكية التعاونية محل كافة اشكال الملكية الفردية لأدوات الانتاج ٠

أما نظرة الثورة المصرية لهذا الأمر فهى تختلف فموقفها من الملكية الفردية لأدوات الانتاج يستند أساسا الى مدى أهمية ودور هذه الملكية فى تحقيق أهداف التنمية الاقتصـــادية ومدى خضوعها للسيطرة الشعبية وعلى ممارســـة دورها دون استغلال وهى ترى امكانية بقاء أشكال معينة من الملكية الفردية لأدوات الانتاج فى اطار المجتمع الاشتراكى مع خضوعها لسيطرة الشــعب عن طريق عملها فى اطار من الخطة الوطنية الشاملة دون استغلال ٠

فتعبر الاشتراكية العلمية كما يرد فى الميثاق اذا يعكس هذا الاســـتخدام للمنهج العلمى فى تحليل أوضاع مجتمعنا واستنباط طبيعة العلاقات بين الظواهر على أساس من هذه الدراسة ٠ كما يعكس هذه المبادىء العلمية العامة التى أوضحها الميثاق وتوجيهات التنظيم الســياسى التى تعتبر ملزمة لكافة أعضائه – أما فيما عدا ذلك من أمور لم يتعرض لها الميثـــاق أو التنظيم الســـياسى بالتحديد ، فانها تبقى مجالا للحوار الفكرى فى مجتمعنا بين القوى الثورية المختلفـة والمدارس المتعددة دون الزام ٠

ابراهيم سعد الدين



الناصرية والعالم الثالث

ما هو المقصود بعبارة « العالم الثالث » ؟

أصبحت عبارة « العالم الثالث » ، واحدة من العبارات الشائعة ، التي تستخدم بكثرة فى الكتابات اليومية الجارية ، وتطلق فى كل لحظة من خلال أجهزة الاعلام المختلفة . وهى ترتبط فى أذهان القراء والمستمعين عامة ، بمجموعة الدول الافريقية والآسيوية والامريكية اللاتينية ، أو بعبارة أخرى مجموعة دول العالم المتخلف أو النامى - اذا أردنا عبارة أكثر لباقة ! - التى استقلت حديثا من نير الاستعمار . ولا شك أن هذه التعريفات المختلفة ، رغم أنها صحيحة فى اتجاهها العام ، فهى تفتقر الى شىء من الدقة التى تحدد الأبعاد الحقيقية لمفهوم العالم الثالث . وربما كان من المفيد - فى بداية هذه السطور - أن نحاول القاء بعض الضوء على نشأة هذا المفهوم ، وعلى استعمالاته المختلفة ، وعلى المقصود منه فى هذا المقال .

ذكر الكاتبان الفرنسيان « جان لاكوتير » ، « جان بوميه » ، فى كتابهما **«ثقل العالم الثالث»** أن أول من استخدم تعبير « العالم الثالث » هو «الفريد سوفى» ، على غرار تعبير **«الطبقة الثالثة»**، الذى كان يستخدم فى عهود الملكية التى سبقت الثورة الفرنسية ، وكان يشير الى مجموع فئات الشعب، التى لا تنتمى الى طبقة النبلاء ورجال الدين . ولقد أطلق الفريد سوفى تعبيره هذا فى عام ١٩٥٦ على اثر المؤتمر المعروف الذى عقد فى باندونج عام ١٩٥٥ ، وكان نقطة تحول هامة فى تاريخ هذه الشعوب المتخلفة أو النامية .

ورغم الاتفاق على الاصول الزمنية التى نشأ فى اطارها هذا المفهوم ، فالواقع أن مضمونه الحقيقى



ج . عبد الناصر



ك . نكروما

أمير اسكندر

يتعرض لخلافات شديدة من جانب عدد من الباحثين لا أولئك الذين ينتمون الى العالم الأوروبى أو الامريكى المتطور فحسب ، بل وهؤلاء أيضا الذين ينتمون الى هذا العالم الثالث نفسه . وفى الفصل الافتتاحى لكتاب « ثقل العالم الثالث » ، عرض الكاتبان الفرنسيان ، لحوار جرى بين مجموعة من الباحثين من سكان العالم الثالث ، حول دلالة هذا المفهوم . وكشف هذا الحوار - بما لا يدع مجالا للشك - ان هذا المفهوم ليس بوسعه أن يحظى بالاتفاق والقبول العام لدلالة محددة له . فهو ليس بالتأكيد كل مجموعة الدول الافريقية والآسيوية والامريكية اللاتينية . فهذه القارات الثلاث تضم فيما بينها بلدا كاليابان ، ليس على وجه اليقين بلدا متخلفا أو ناميا ، وهى تضم أيضا مجموعة من البلدان التى تنتمى الى المعسكر الاشتراكى أو الى معسكر «الايديولوجية الاشتراكية » بصرف النظر عن مدارسها المختلفة . كالصين وكوريا وفيتنام الشمالية وكوبا ، فضلا عن الجمهوريات الآسيوية السوفيتية . والى جانب ذلك لا يمكن القول أن العالم الثالث هو العالم الذى يتصف بالفقر فحسب ، لأن ثمة بلدانا - على حد تعبير لاكوتير - كالبرتغال واليونان وصقلية فى العالم الغربى ، وبلدانا أخرى فى العالم الشيوعى ، لا تزيد فى غناها كثيرا عن غنى بعض هذه البلدان المتخلفة أو النامية . ومن جانب آخر ، لا يمكن القول كذلك أن العالم الثالث هو مجموعة الدول التى تحررت من الاستعمار أو التى خضعت له فى مرحلة من مراحل حياتها ، لأن « افغانستان » مثلا لم تعرف الاستعمار يوما ما ، ومع ذلك فهى جزء من هذا العالم الثالث .

أما « بيير جاليه » فى كتابه « نهب العالم الثالث » (الكتاب له ترجمة عربية ظهرت فى دار



الكاتب العربى ، كما ظهرت له ترجمة أخرى فى دمشق عن وزارة الثقافة السورية) ، فانه آثر أن يكون أكثر تحديدا فى تعريفه للعالم الثالث ،على أسس سياسية واقتصادية • فهو يرى أن العالم ينقسم سياسيا واقتصاديا الى مجموعتين كبيرتين :

(أ) مجموعة البلدان التى اختارت نظاما اشتراكيا ، سواء اكان هذا النظام متحققا أو ما زال فى طور البناء ، ومعياره فى ذلك هو « الاختيار الواقع على نظام تحكمه الماركسية اللينينية » •

(ب) مجموعة البلدان التى ما زالت تدار بقوانين النظام الرأسمالى• وهى تنقسم فى رأيه الى نوعين : أحدهما قطاع البلدان الرأسمالية المتقدمة والمصنعه تصنيعا ممتازا ، وهى تشكل ما يدعى غالبا بالمعسكر الرأسمالى أو الغربى ، وثانيهما قطاع البلدان المتخلفة التى يكون اقتصادها وسلطتها السياسية تحت هيمنة الامبريالية ، وحيث « يكون نظام الاستثمار الرأسمالى فى جملته موضعا للارتياب الشديد » • وهذه البلدان ـ أو العالم الثالث ـ ترتبط فى اعتقاده ارتباطا جدليا بالبلدان الرأسمالية المتقدمة بعلاقات استغلال وتبعية ناجمة فى جوهرها عن الامبريالية نفسها •

ويزيد « بيير جاليه » مفهومه للعالم الثالث تحديدا ووضوحا،فيقول رداً على بعض الاعتراضات التى يمكن أن تنشأ ضد المعنى الذىيحدده لمفهومه أن يوغوسلافيا على الرغم من بعض التحفظات التى تقال على سياستها ـ وخصوصا السياسة الخارجية ـ قد اعطت الأولوية للاقتصاد ، وأن أسس الاقتصاد اليوغوسلافى تحريم الملكية الخاصة لوسائل الانتاج واستغلال الانسان للانسان • ويقول ردا على استبعاد بعض البلدان التى تعلن انتماءها الى الاشتراكية كالجزائر مثلا ، **انه يصنف كوبا مثلا بين البلدان الاشتراكية ويستبعد الجزائر لأنه يرى أن الاشتراكية الجديرة بهذا الاسم هى « الاشتراكية العلمية » وحدها** • وانه على الرغم من أن الاشتراكية الكوبية ما تزال بعد فى خطواتها الاولى ، « فانها تقدم لنا الضمانات الراسخة فى صمودها للمضى فى بناء نفسها على هذه الأسس » •

ومن الواضح اذن ، أن مفهوم العالم الثالث ، لم يستقر بعد على دلالة محددة لدى مجموع الباحثين الذين يستخدمونه • ومع ذلك يبدو أن التعريف الذى قدمه « بيير جاليه » أقرب التعريفات الى الدقة ، مع عدم الاقتصار فى استخدام تعبير الاشتراكية على مجموعة الدول التى حددها ، والتى تنتمي الى ما يعرف باسم « المعسكر الاشتراكى » فقط • فليس ثمة شك أن من بين الدول النامية ، ثمة دول تحاول أن تضع لنفسها مثلا عليا اشتراكية ، وهى تتخذ من الخطوات الاقتصادية على الأقل ، ما يتوجه بها ناحية الاشتراكية • وليس صحيحا أن كل الدول التى تنتمي الى المعسكر الاشتراكى تحرم الملكية الخاصة تحريما كاملا ، فبولندة مثلا ، وهى واحدة من بين دول المعسكر الاشتراكى البارزة ، تسمح بحد أقصى فى الملكية الزراعية يزيد عن الحد الأقصى المسموح به فى مصر !

على أنه ينبغى ـ حرصا على الدقة ـ القول بأن ثمة فارقا واضحا بين هذه البلدان التى ترفع شعارات الاشتراكية فى العالم المتخلف أو النامى، وبين البلدان التى تتبنى الاشتراكية منهجا اقتصاديا وسياسيا وايديولوجيا فى أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وهذا الفارق هو انتماء الدول الاخيرة الى الايديولوجية الماركسية بشكل محدد، بينما ترفض الدول الاولى الانتماء الصريح الى هذه الايديولوجية ، بل وتبدى تحفظات كثيرةـوأحيانا اعتراضات ـ على بعض أسس الايديولوجية الماركسية •

ولذلك ، فان هذه السطور تستخدم مفهوم العالم الثالث بمعنى مجموعة الدول الافريقية والآسيوية والامريكية اللاتينية ، فيما عدا الدول التى تنتمي الى الايديولوجية الماركسية وهى الصين

وفيتنام الشمالية وكوريا الشمالية وكوبا وبالطبع الجمهوريات الآسيوية السوفيتية . وما من شك فى أن هذا الاستخدام ، يتسم بعمومية شديدة ، ولكنه أقرب الى السلامة، وأبعد عن التورط فى التحديدات السياسية والاقتصادية التى لا تنسحب على كل هذه البلدان والتحديدات الايديولوجية التى يبدو من الصعب وضع هذه البلدان فى قوالبها .

واذا كان لابد من وضع بعض السمات العامة التى يتصف بها مجموع هذه البلدان ، فاننا يمكن أن نقول مع عدد من الباحثين أن هذه السمات تتحدد من « **التخلف** » ، وهو السمة الوحيدة التى تندرج تحتها كل هذه البلدان ، فضلا عن ، أن مجموعة هذه البلدان المتخلفة « **مواجهة باختيار** » لطريق النمو الاقتصادى والاجتماعى بها. فبعضها رفع شعارات الاشتراكية ، وبعضها ما زال يسلك طريق النمو الرأسمالى ، وبعضها الثالث ما زال يعيش فى مراحل سابقة على الرأسمالية أيضا ، وأمامه طريق التراكم الرأسمالى كى يسلكه أو طريق تخطى الرأسمالية والاتجاه مباشرة الى التنظيم الاشتراكى،دون المرور بالمرحلة الرأسمالية على الاطلاق .

٢ ـ بعض ملامح التجربة الناصرية :

قبل أن نحاول تحديد مكانة التجربة الناصرية فى العالم الثالث ، ينبغى أن نحاول تحديد الملامح العامة للتجربة الناصرية ، كى نتمكن بعدها من تحديد أوجه التشابه والاختلاف ، بينها وبين غيرها من التجارب التى عرفها العالم الثالث .

(أ) من تحصيل الحاصل أن نقول ، **أن ثورة ٢٣ يوليو بدأت من غير نظرية متكاملة لعملية التغيير الثورى .** فلقد ذكر جمال عبد الناصر ، فى أكثر من خطاب، وأكثر من حديث ، أن الثورة عندما قامت لم تكن تمتلك سوى المبادىء الستة الشهيرة :

١ ـ القضاء على الاستعمار .
٢ ـ القضاء على الاقطاع .
٣ ـ القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .
٤ ـ اقامة عدالة اجتماعية .
٥ ـ اقامة جيش وطنى .
٦ ـ اقامة ديموقراطية سليمة .

وعلى الرغم من أن هذه المبادىء الستة تشكل فى جوهرها شعارات أو اهدافا عامة ، فهى الواقع لا تنطوى ـ أو لم تكن تنطوى ـ على تحديد واضح للطريق الذى كان على الثورة أن تسلكه حتى



تحقق هذه الشعارات والاهداف . ومن هنا نبع ذلك المفهوم الذى اتسمت به الثورة فى مراحل كثيرة من تطورها ، وهو مفهوم الخطأ والصواب . أو بتعبير أكثر تبلورا **مفهوم «التجريبية»** . وكما ذكر الميثاق الوطنى :

« **لقد كان يمكن أن يتحول الحدث الكبير الذى جرى ليلة ٢٣ يوليو الى مجرد تغيير للوزارة القائمة ولنظام الحكم ، وكان يمكن أن يتحول من ناحية أخرى الى ديكتاتورية عسكرية تضيف الى التجارب الفاشلة تجربة أخرى فاشلة ، ولكن أصالة الوعى الثورى وقوته سيطرت على اتجاهات الامور ومنحت العناصر الوطنية ادراكا لدورها فى التوجيه الوطنى** » .

أصالة الوعى الثورى اذن ، هى التى قادت ثورة ٢٣ يوليو الى السير فى طريقها بنجاح . لم تكن هناك نظرية متكاملة . ولم يكن هناك تنظيم شعبى وراءها . ولم يكن هناك تحديد واضح المعالم أو صياغة متبلورة لطريق التطور . كانت هناك أرضية ثورية فى المجتمع . وكان هناك مناخ ثورى وسط الجماهير المصرية . وكان هناك سخط شعبى عارم على كل الاوضاع التى كانت سائدة فيما قبل الثورة ،وفشل للأحزاب ،وفشل للقيادات الأخرى التى كانت تحمل فكرا ثوريا ولا تملك أداة ثورية . كان هناك دور هائم يبحث عن بطل ! وتقدم الجيش المصرى ، أو بتعبير أدق طليعة مثقفة وثورية داخل هذا الجيش ، وقادت النضال الوطنى الكامن وكشفت عنه النقاب أو أزاحت عنه الغطاء .

واذا حاولنا أن نقدم الصورة التقليدية لتطور

الثورات الوطنية ، طبقا للنظريات المتعارف عليها، لقلنا أن كل ثورة تمر فى مجموعة من المراحل : أولها مرحلة التحرر الوطنى ، أى القضاء على الاستعمار بأشكاله المختلفة، وثانيها مرحلة انجاز مهام الثورة الوطنية الديموقراطية وهى مرحلة استكمال التحرر السياسى ، وتحقيق الاستقلال الاقتصادى ، والقيام باصلاحات زراعية جذرية بعد القضاء على العلاقات الاقطاعية ، وخلق قطاع عام تمارس من خلاله الدولة توجيه مشاريع التنمية الاقتصادية • وثالثها مرحلة التحول الاشتراكى أى اختيار طريق النمو اللا رأسمالى بطريقة حاسمة ، كمقدمة ضرورية لعملية البناء الاشتراكى ، وذلك بالقضاء على البورجوازية الصناعية والتجارية ، والتخلص من الملكية الخاصة لوسائل الانتاج الرئيسية ، وفى هذه المرحلة تبدأ عملية التحويل الاشتراكى الحقيقية ، عن طريق الملكية العامة لوسائل الانتاج ، والبدء فى اقامة القاعدة المادية للاشتراكية من خلال التصنيع الثقيل ، والمزارع العامة التى تملكها الدولة كأساس لعملية «تشريك» القطاع الزراعى • وهذه المرحلة الثالثة ، تتسم – فى معظم المجتمعات – تعتمد على سلطة ما يسمى بمجموع الشعب العامل أى العمال والفلاحين ، والبورجوازية الصغيرة ، والبورجوازية المتوسطة • وفى هذه المرحلة أيضا تظهر الطبقات البيروقراطية والادارية على المستوى السياسى والاقتصادى ، نتيجة للاشراف الكامل الذى تمارسه « مؤسسات » الدولة على عملية توجيه الانتاج •

وعند تطبيق هذه الخريطة العامة للمراحل الثورية على ما حدث فى مصر ، نجد أن تطور الثورة المصرية قد مر بعدة مراحل يمكن تقسيمها الى ثلاث مراحل رئيسية :

أولا : المرحلة التى بدأت من يوليو ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٦ وهى المرحلة التى تخلصت فيها مصر من الاستعمار البريطانى ، والمؤامرة الاستعمارية الثلاثية •

ثانيا : المرحلة التى بدأت من عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦١ وهو العام الذى شهد صدور القرارات الخاصة بالتأميم والاصلاح الزراعى ، وما ترتب على ذلك من وضع الأسس للملكية العامة لوسائل الانتاج الأساسية فى مصر •

ثالثا : المرحلة التى تبدأ من عام ١٩٦١ حتى الآن • وهى مرحلة يمكن تقسيمها – ان شئت – الى مرحلتين أو الى فصلين ، أحدهما ينتهى بعام ١٩٦٤ حيث اكتملت قوانين التأميم والاصلاح الزراعى ، وثانيهما يبدأ بنهاية عام ١٩٦٤ ويستمر حتى الآن حيث ترتفع بشكل واضح لافتات الاشتراكية ، ويبدو أن الطريق الى الاشتراكية ،اختيار حتمى – لو صح هذا التعبير – أمام التجربة المصرية •

والمتأمل فى هذه المراحل المتعاقبة للثورة المصرية ، يدرك بطريقة واضحة ، أنه على الرغم من عدم وجود نظرية متكاملة ، أو تنظيم سياسى جماهيرى ، فان الثورة المصرية قد استطاعت بحق أن تنجز على الاقل مهام الثورة الوطنية الديموقراطية ، وأن تبدأ – من خلال اختيارها – للطريق اللا رأسمالى فى وضع القاعدة المادية للتحول الاشتراكى• وهى نفس المعنى الذى ذكره جمال عبد الناصر عندما قال أنه كان على الثورة أن تنجز أولا الثورة السياسية ثم تبدأ فى الثورة الاجتماعية بعد ذلك • والمحصلة النهائية لهذه الثورة هى قطاع عام فى الصناعة والتجارة يبلغ حوالى ٨٥٪ من مجموع الانتاج ، وحد أقصى للملكية الزراعية يبلغ مئة فدان بعد أن حدد فى المرحلة الأولى بمئتى فدان •

(ب)

على المستوى الأيديولوجى ، كان من الواضح أن ثمة خلافات بين الثورة المصرية والفلسفة الماركسية • تحددت فى ثلاث خلافات رئيسة • أولها حول مفهوم دكتاتورية البرولتياريا ،وثانيها حول الملكية الخاصة كمفهوم حرصت الثورة المصرية على تأكيده ، وان كانت قد أضافت اليه معنى الملكية الخاصة « غير المستغلة » • وثالثها مفهوم الدين •

وفيما عدا هذه الخلافات الثلاث ، يمكن القول أن الثورة المصرية قد أفادت من التراث الماركسى ، من زوايا متعددة أهمها : **مفهوم تطور المجتمع نفسه ، ومفهوم الاشتراكية ، ومفهوم الصراع الطبقى ، ومفهوم وحدة الشعب العامل ، ومفهوم الثورة الدائمة • ومجموع النصوص التى وردت فى الميثاق بخصوص هذه المفاهيم يؤكد هذه الحقيقة •**

بيد أن أيديولوجية الثورة المصرية تعرضت لمجموعة من الأخطار يمكن حصرها فى الأخطار التالية •

١ – خطر الالتفاف حول الشعارات ومحاولة تطويقها ، وخنقها ، واحالتها الى مجرد لافتات بلا مضمون حقيقى : ولقد ذكر جمال عبد الناصر •

« ان الرجعية المعاصرة ، أو الرأسمالية المعاصرة ذكية جدا ، لأنها تؤقلم نفسها وفقا لطبيعة

العصر • فبعد سنة ١٩٥٧ ، رفع الرجعيون لافتات اشتراكية ، وكان ذلك فعلا لانهم يكسبون من زيادة الانتاج ، وطالما ان الاشتراكيه شعارات لا غير فلماذا يغضبون ؟ في الواقع انهم يريدون ذلك ، وعلى استعداد لأن يرفعوا شعارات في الاشتراكية اضعاف ما نقوله فيها بشرط ألا توضع الاشتراكية موضع التنفيذ أو يتم تطبيقها • »

٢ ـ **خطر يتمثل في محاولة افراغ شعار الاشتراكية من مضمونه العلمي تحت دعوى أن** اشتراكيتنا هي نسيج وحدها ، وأنها عربية الجذور والثمار •

وقال جمال عبد الناصر :

« **الاشتراكية عموما هي القضاء على استغلال الانسان للانسان • ولكن التطبيق الاشتراكي في كل بلد قد يختلف عن البلد الاخر • وفيه ناس تحب تسميها الاشتراكية العربية على أساس ان دي اشتراكية لها طابع خاص • انا رايي هي تطبيق عربي للاشتراكية مش هيه اشتراكيه عربية • اعتقد ان فيه اشتراكية واحدة ، وفيه مبادىء واحدة للاشتراكية •** »

ولاحظ تأكيد قائد الثورة على فكرة «اشتراكية واحدة» ، و « مبادىء واحدة للاشتراكية » •

٣ ـ خطر يتمثل في محاولة عزل الطبقة المتوسطة ، الرأسمالية الوطنية ، وتخويفها ، بهدف تحطيم وحدة الشعب العامل •

ولقد قال جمال عبد الناصر :

« **الطبقة الرجعية والرأسمالية تحاول أن تبلبل ، وتجذب اليها الطبقة المتوسطة حتى تستخدمها في ضرب الثورة الاجتماعية • ونحن نقول ونوضح لهذه الطبقة المتوسطة أن مصالحها مرتبطة مع مصالح الشعب ، ومصالح العمال والفلاحين أكثر مما هي مرتبطة مع مصالح الطبقة الاقطاعية والرأسمالية •** »

٤ ـ خطر يتمثل في محاولة اضفاء صفة الحياد العقائدي أو الحياد الأيديولوجي ، بمعنى ان الاشتراكية التي ترفع الثورة المصرية شعاراتها ، هي طريق وسط بين الرأسمالية والاشتراكية العلمية ، استغلالا لشعار عدم الانحياز أو الحياد السياسي •

ولقد قال جمال عبد الناصر :

« **سمعت عمن يرى ان نظامنا وسط بين الأنظمة ، وبما أننا في موقف وسط بين الشرق والغرب ، فكذلك يجب أن يكون نظامنا وسط بين الشيوعية والرأسمالية • ثم سمعت عمن يرى انه نظام ابتكرناه ، وأننا نؤمن به لأننا لا نقلد به أحدا • ولست أتصور ما هو أكثر بعدا عن الحقيقة من هذه التعليلات • فالحياد السياسي ليس دوقفا وسطا بين الشرق والغرب • ثم ان اتخاذ موقف وسط في مجالات العقائد الاجتماعية امر مستحيل • كذلك ليس موقفا اختراعا نتفرد به ، وانما هو التعبير عن ظروفنا الخاصة** » •

هذه الاقوال جميعا تؤكد حقيقة واحدة ؛ هي وضوح الخطر بالنسبة لقائد الثورة ، ووضوح الرؤيه بالنسبة لطريقة التغلب عليه ، وازاحته من طريقه ، مما يحمل على الاعتقاد أن مواجهة هذه الاخطار ، قد شكلت ـ لا على المستوى الفكري فحسب بل وعلى المستوى العملي أيضا ـ نوعا من الحصانة الثورية التي ترتفع الى مستوى السمات الايجابية للمسيرة الثورية المصرية ، خاصة اذا قورنت بما حدث في بعض البلدان الاخرى التي رفعت شعارات الاشتراكية ، وحاولت ـ جادة أو غير جادة ـ أن توقع في ظن جماهيرها ، أنها تصوغ تجارب خاصة بها ، لا تنتمي الى التجارب التقليدية في بلدان المعسكر الاشتراكي ، ولكنها تكتسب لحمتها وسداها من تربة العالم الثالث •

٣ ـ **لماذا أخفقت بعض تجارب العالم الثالث ونجحت التجربة المصرية ؟**

ولعل السؤال الذي ينبغي أن يطرح الآن هو: **لماذا نجحت التجربة المصرية ، وأخفقت بعض تجارب العالم الثالث الاخرى ، رغم أنها رفعت نفس الشعارات الاشتراكية ، وأعلت كثيرا من راية تجاربها الخاصة ؟**

تحدث الكاتب الفرنسي «**جيرار شاليان**» ، في كتابه «**مصاعب الاشتراكية في الجزائر**» ، فقال بصدد الاخطار التي تهدد التجارب الاشتراكية في العالم الثالث : «**ان ثمة مزلقين يترصدان كل ثورة تريد أن تتبنى الاشتراكية : أولهما : المبالغة في النزعة الميكانيكية التي تدفع بالثورة الى تطبيق مجموعة من التدابير دون أن تهتم بدراسة الواقع الذي سوف تطبق عليه هذه التدابير • وثانيهما: التمسك بالخصوصية والنوعية الذاتية بأي ثمن، الأمر الذي يفضي الى الدوجماطيقية والانتهازية•**»

والمتأمل في الكلمات التي قالها شاليان ، يدرك الى أي مدى تصدق على كثير من التجارب التي ما كادت تتفتح في بعض بلدان افريقيا وآسيا حتى ذبلت • ومع ذلك فمن الخير أن نقول أن خطر الميكانيكية كان أضعف الخطرين بالنسبة لهذه التجارب • أما الخطر الذي أوردها حتفها• فهو ما أضفته هذه التجارب من خصوصية ونوعية ذاتية على تجاربها • وربما أمكن القول **أن الخطر الاول** لم يكن يتمثل في كثير من هذه البلدان الا في تفكير الجماعات اليسارية وبتعبير

أدق فى التنظيمات الشيوعية التى كانت تحاول تقليد التجربة السوفيتية ــ أو ربما الصينية ــ فى تصورها لمستقبل بلادها. ولكن هذه الجماعات والتنظيمات الشيوعية لم يتح لهـا أن تتولى السلطة بشكل حقيقى ، ولم يقدر لها أن تستولى على أجهزة صياغة القرارات السياسيه والاجتماعية ، وانما ظلت فى الطريق ، تثير ضجيجا ايديولوجيا له تأثيره الذى يتناسب مع حجم نفوذها على الجماهير ، وهو تأثير كان محدودا فى كثير من هذه البلدان ، ان لم يكن فى معظمها.

أما الخطر الثانى فهو الذى وقعت فى حبائله القوى التى استولت على السلطة بالفعل، وتحكمت فى الاجهزة التى تصدر القرارات . ولذلك فان «شاليان» نفسه يضيف بعد قليل قوله : « ان عصاب الخصوصية هذا ، عندما لا يكون وليد الجهل ، فانه لا يعدو أن يكون ، واجهة يراد من ورائها تضخيم بصيص النور ، أو تكبير الشعاع الضئيل واعتباره شمسا ساطعة . هكذا قادت خصوصية « الاشتراكية » الهندية ، وطريقها الثالث ، الهند الى الأبنية الرأسمالية المعروفة لدينا . » ومن ثم فان شاليان يركز على ضرورة مكافحة التفكير الذى يلح كثيرا على الخصوصية . فالخصوصية قد تكون ستارا لليمين لمحاربة الاشتراكية العلمية بحجة عدم ملاءمتها لخصوصية الأحوال فى البلد المشار اليه . ولذلك فان شاليان يلح ــ فى المقابل ــ على « أن الابنية الاقتصادية الاشتراكية تستلزم تصورا نظريا ، تستلزم النظرية الماركسية . واذا لم تكن هناك من ضرورة حتمية فى المرحلة الاولى لاعلانها ، فمن الواجب أن تطبق فعلا على صعيد الممارسة العملية » .

واذا كان شاليان قد أشار الى التجربة الهندية فحسب ، فان المتأمل فى بعض تجارب العالم الثالث الاخرى التى استأثرت طويلا بالضوء ، باعتبارها «التجارب الاشتراكية الجديدة الرائدة»، يصل الى نفس النتيجة التى وصل اليها شاليان فيما يتعلق بالتجربة الهندية .

ما هو المضمون الواقعى للتجربة الاندونيسية فى ميدان البناء الاقتصادى والاجتماعى ؟ . لقد تلقت أندونيسيا حتى عام ١٩٦٦ مساعدات خارجية من الاتحاد السوفيتى والدول الغربية قدرها ٢٫٧ بليون دولارا . ومع ذلك فان هذه المساعدات الضخمة لم تستطع أن تحدث أثرا يذكر فى بنائها الاقتصادى . ان هذه الاموال الضخمة أنفقت على الاسلحة والابنية الفخمة التى تقيمها الدولة ، ولم تحدث أية محاولة جادة لمعالجة أو لمباشرة التطوير الصناعى للاقتصاد الوطنى ، أو لاعادة توزيع الارض على الفلاحين . **ان ٨٠٪ من سكان أندونيسيا يكسبون عيشهم عن طريق الزراعة ، ومع ذلك فان ٦٠٪ من السكان يرتزقون فى جزيرة جاوة . وقد جرى اعادة توزيع بعض الاراضى فى جاوة ، وماديورا عام ١٩٦٠ . ولكن الذين حصلوا على هذه الاراضى تقل نسبتهم عن ١٠٪ من أولئك المعدمين ، وبالاضافة الى ذلك فان هذه الاراضى الموزعة نفسها اسيء استغلالها نتيجة لنقص الادوات والامكانيات .**

ولقد كان هذا كله يجرى على الصعيد الاقتصادى والاجتماعى ، بينما تعلو الرايات من فوق المنابر داعيه الى ما سمى « بالاشتراكية الاندونيسية» ! وخلف هذه الرايات الخفاقة ذات الالوان الصاخبة ، كانت تمارس سياسة محافظة تعلى من شأن **«الاقتصاد الطبيعى»** ، والبناء التقليدى «للقرية الجاوية» . ولقد كان سوكارنو نفسه أكثر اهتماما بالشئون الخارجية منه بالشئون الداخلية .

ولقد كانت أندونيسيا فى بداية الخمسينات بلدا يشار اليه فى كل ركن من أركان العالم ، بوصفه وطن «باندونج» و «البانشاسيلا»، ولكنه خلال عقد واحد من الزمان تحول ــ على حد تعبير **«فالترولاكير»** فى دراسته **«تأملات حول العالم الثالث»** الى مرجع مصور للكيفية التى يسقط بها بلد فى وهدة الافلاس والانهيار !

ودعنا نتأمل أنموذجا آخر من افريقيا هذه المرة هو غانا . ان قصة نكروما فى غانا لاتختلف عن قصة سوكارنو فى أندونيسيا. القائد الوطنى الكبير الذى يحمل أفكارا يسارية غامضه ومضطربة ، والذى استطاع أن يكسب ــ رغم ذلك ــ الاعجاب والتقدير من جماهير أمته خلال النضال الوطنى من أجل الاستقلال ، ولكنه القائد الذى كان حكمه فى النهاية مأساة وطنية حقيقية . وربما أمكن القول أن نكروما كان ينطوى على نوع من التماسك الفكرى يرفعه ــ من هذه الناحية ــ فوق مستوى سوكارنو . **فلقد بدأ اشتراكيا مسيحيا ، ثم اتجه صوب الماركسية الاورثوذكسية ، تلك التى دعاها الماركسية ــ النكرومية ، وهى الماركسية التى قال أنها تنطبق على الشروط الافريقية .** لقد طور نكروما أفكاره فى كتابيه **«الوجدانية»** و**«الاستعمار الجديد»** . فى هذين الكتابين (لهما ترجمة عربية) تحدث نكروما طويلا فى القضايا الفلسفية ، والشئون الدولية ، والاقتصاديات العالمية ، والوحدة الافريقية . ولكنه تحدث قليلا عن

المشكلات الحقيقية لوطنه غانا ! كانت المشكلة الغانية أقل المشكلات وضوحا أمام عينيه !

ماذا كانت النتيجة؟ لم يتجه نكروما الى التطوير الصناعي لبلاده ، بل لم يتجه حتى الى اخراجها من نير الزراعة ذات المحصول الواحد (وهو الكاكاو) . بل ظل يشجع ـ أو ربما بتعبير أدق ـ ظل بعيدا عن مشكلة تطوير الاقتصاد الغاني تطويرا حقيقيا . ومن ثم ظل اسيرا لاسعار البورصة العالمية التي تتحكم فيها قوانين الاقتصاد الرأسمالي العالمي . والمحصلة بالارقام كانت ٢١٠ آلاف طن كاكاو عام ٥٤/٥٥ درت على الاقتصاد الغاني حوالي ٢٤٠ مليونا من الدولارات . بينما ٥٦٠ الف طن من محصول عام ٦٤/٦٥ لم تدر على الاقتصاد الغاني سوى ٢١٠ مليونا من الدولارات ؛ وفي نفس الوقت انفقت نسبة ضخمة من الدخل القومي على تشييد الابنية الضخمة مثل قاعات الاجتماعات الضخمة التي يلتقي فيها رؤساء الدول وملاعب الرياضة ، وتماثيل نكروما نفسه ! .. وملايين من الجنيهات انفقت على الدعاية الخارجية لنكروما ، وعلى تدريب الاجهزة البوليسية التي كانت تعد للعمل لحساب نكروما في الدول الافريقية الاخرى ، جريا وراء سراب الحكومة الافريقية الواحدة أو الوحدوية التي سوف يرأسها وتحكم معظم البلدان الافريقية !

والى جانب ذلك كان الانفاق المذهل على الحياة الخاصة ، والقصور الخاصة ، والرياش الخاص باسرة نكروما نفسه (قصة سرير الذهب الخالص أشهر من ان تعاد مرة أخرى) . ومع ذلك أين كان نكروما ، أو أين كانت الماركسية النكرومية ؛ في لحظاته الحرجة الاخيرة ، تأكد نكروما أنه بدون تحويل غانا الى دولة صناعية قوية ، لا سبيل الى تجسيد مايدعو اليه من «اشتراكية» . وستبقى هذه الاشتراكية شعارا مجوفا بلا محتوى حقيقي . وتأكد نكروما ايضا أنه لا اشتراكية حقيقية بدون اشتراكيين حقيقيين . ولكنه بدلا من أن يتجه الى تصويب أفعاله السابقة ، والاتجاه بسياسة الدولة الى الوجهة العلمية الصحيحة ، قاده طموحه المجنون الى مزيد من مشاريعه غير الواقعية وغير العلمية . ثم عزل نفسه في «قلعته» ، وتحول الى «يسوع المسيح» ، و «الفادي» ، و «المخلص» ، والرجل الذي « سوف يعيش الى الأبد» ، وأحاط نفسه بفرقة من الحرس الشرس ، ووضع اللبنة الاخيرة في بناء الدكتاتورية الفردية ، التي كانت في الوقت نفسه اللبنة الاخيرة في قبره ! . ولم يلمس أحد من أفراد شعبه شيئا من مزاعم الماركسية النكرومية أو أطياف اليسارية . وعلى حد تعبير أحد المراقبين الذين شهدوا سقوطه المدوي عام ١٩٦٦ «كان نكروما يملك من هستريا هتلر ، وغرور موسيليني ، أكثر مما يملك من عبقرية لينين الهادئة والرصينة .. ، فلقد كانت غانا النكرومية دولة ايديولوجية بدون ايديولوجيا ، ودولة تعتمد على دكتاتورية الحزب الواحد ولكن بدون حزب . » !

ولسوف يطول الحديث ، اذا أردنا أن نضرب أمثلة اخرى من هذه البلدان ذات التجارب «الرائدة» و «العزيزة» في ميدان الاشتراكية . حسبنا اذن هذين المثالين . فالأمثلة الباقية لن تضيف جديدا الى مجموعة العناصر التي تسببت في اخفاق هذه التجارب ، وأودت بها الى الانهيار والفشل .

تدابير واجراءات من أعلى ، لاتنهض على قاعدة جماهيرية حقيقية ، ولكن على خيوط واهية تشكل أشباحا تسمى أحزابا وتنظيمات شعبية . أقوال براقة تلقى ، ووعود لامعة تقطع ، وشعارات مضيئة ترفع ، وأصوات صارخة تتعالى ، ثم لا شيء بعد ذلك سوى حصاد الهشيم . أموال هائلة تنفق ، وقروض ضخمة تمنح ، وديون لاحصر لها تتراكم ، ثم لاشيء بعد ذلك تلمسه او تحسه أو يمكن أن تقبض عليه أصابع الجماهير .

لم يكن من الغريب اذن أن يتلاشى صوت سوكارنو الذي هز الجزر الاندونيسية ذات يوم ، بمجرد عزله عن قمة السلطة !

ولم يكن من الغريب أيضا أن تموت أصداء الماركسية النكرومية ، وأوهام التجربة الافريقية الخاصة ، بمجرد سقوط نكروما من فوق سريره الذهبي !

ولم يكن من الغريب كذلك ، أن تضيع أصوات أخرى كثيرة ، وان تتمزق أعلام ورايات أخرى كثيرة ، وأن تبهت شعارات ولا فتات أخرى كثيرة ، وأن تزول آثار أقدام أخرى كثيرة ، وسط الغابات الأفريقية أو الرمال الآسيوية ، بمجرد أن تنهار الواجهات الخادعة من أمام الواقع الحقيقي .

غير أنه لم يكن من الغريب ، في نفس الوقت ، أن تظل ـ الناصرية ـ حتى من غير ناصر ـ صوتا يعلو ، وشعارا يتردد ، وعلما يرتفع ، وقدما يقتفى اثر خطواته ، على طريق البحث عن مصير أمة ، ومستقبل شعب .

ألم يكن صوت الجماهير ، وهي تعبر عن ارادتها في لحظة المواجهة الفاجعة مع الموت ، لحظة التنوير الحقيقية في وعيها الكامن ، لحظة التفجر المنطلق باصرارها الراسخ ، كافيا وحده للدلالة على مغزى التجربة الناصرية بأسرها في العالم الثالث ؟ ..

أمير اسكندر

صوت مصر في الفلسفة الثورية

د. عثمان أمين



يجمل بنا قبل الدخول فى هذا الموضوع ان نقدم بين يدى القارىء بعض ايضاحات تجلو ما قصدنا اليه فى هذا المقال ٠

الايضاح الأول : أن حديثنا عن متضمنات فلسفة عبد الناصر ليس بحثا ولا دراسة بالمعنى العلمى الدقيق بل هو اشارات وملاحظات ، أو على الاكثر نظرات لعلها تزود المؤرخ بمادة لازمة لاستيفاء الكتابة فى سيرة ذلك الزعيم المصرى الذى اخذ على نفسه أن يضع تصميم التقدم فى بلاده وقيادة شعبه الى آفاق التطور ، كما قال الرئيس نيريرى ٠ ولعل هذه النظرات تنفع الباحثين فى تاريخ الحركات الفكرية التى ظهرت فى الشرق العربى منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر وامتدت الى وقتنا هذا ، ولعلها تعين بوجه خاص على استكشاف أبعاد النهضة الثقافية التى بدأت تلقى أضواءها على المجتمع العربى فى العصر الذى سماه الاستاذ البرت حورانى باسم العصر «الليبرالى» ، أى عصر التنوير والتحرير ٠

والايضاح الثانى : ان التاريخ الحقيقى للافراد أو الامم هو ما يمكن أن نسميه باسم التاريخ « **الجوانى** » ، وأعنى به ذلك التاريخ الذى ينظر الى المطامح الكامنة والمثل العليا وما حقه أن يكون، من وراء الوقائع والمنجزات والمتحققات ، ولا يقتصر على رصد الحركات الظاهرة والنظر اليها من الخارج وكأنه يرصد حركات الاجرام السماوية أو يتفرج على مشاهد مسرحية دون ان يتفاعل معها أو يعانيها من الداخل ٠

واذا جاز لنا ان نستعمل لفظ الكوامن أو المتضمنات فى هذا الصدد قلنا : أن هدفنا من الحديث عن الفلسفة الناصرية هو استكشاف «خلفية» المعانى الاخلاقية والاجتماعية والسياسية المتضمنه فى أقواله وبياناته لا تسجيل هذه المعانى أو شرحها وتحليلها ٠

والايضاح الثالث : أن استعمال لفظ الفلسفة هنا ليس استعمالا مبالغا فيه ٠ فالمتتبع لتطور الافكار فى المجتمع العربى المعاصر يتبين أن مفهوم الفلسفة ورسالتها — أى مفهومها من حيث هى نظر يهدف الى عمل ، ورسالتها من حيث هى صانعة التاريخ وحارسة المدنية — قد برزا فى أيامنا هذه بروزا لا يدع مجالا لأى غموض أو ابهام فى أذهان المستنيرين ٠ وليس أدل على هذا من أن الرئيس الراحل حين أراد أن ينشر على الناس آراءه عن حقيقة الثورة المصرية وأهدافها وجد أن « الفلسفة » هى خير ما يعبر به عن تمام وعينا لانفسنا وتعمقنا فى فهم بواعث أعمالنا ، دون الوقوف عند ظواهرها ، فاختار الفلسفة عنوانا لكتابه « فلسفة الثورة » ٠

والايضاح الرابع : ان المذهب السياسى الذى دعا اليه عبد الناصر لم يتأثر بأى أيديولوجية اجنبيه ، كما قال الكاتب توم ليتل ، وانما جاء فكره امتدادا للمفاهيم الاساسية لدى رواد الاصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى فى الشرق العربى ٠ لذلك رأيناه فى « الميثاق » يتحدث عن **محمد عبده ، ولطفى السيد ، وقاسم أمين وغيرهم،** مبينا أن الفترة التالية للاحتلال الانجليزى كانت « من أخصب الفترات فى تاريخ مصر بحثا فى اعماق النفس وتجميعا لطاقات الانطلاق من جديد « لقد ارتفع صوت محمد عبده فى هذه الفترة ينادى بالاصلاح الدينى، وارتفع صوت لطفى السيد ينادى بان تكون مصر للمصريين ، وارتفع صوت قاسم أمين بتحرير المرأة ٠٠٠ » ٠

ونود أن نقرر هنا أن هذه العبارات من الميثاق جاءت فى أوانها حقا ، فكانت انصافا لتاريخ امتنا وتسجيلا لمآثر رجالنا ٠ ونحب أن يقف المتدبرون فى معانى الميثاق وقفة خاصة فى هذه المسألة بالذات ، نظرا الى أهمية الموضوع وصلته بالتربية



الوطنية الواعية التى نريدها للاجيال الصاعدة ·
وهذه الوقفة لازمة جدا فى هذه الآونة ، ايضاحا للحقيقة ودفعا للشبهات عن تقييمنا لجهاد قادة الفكر عندنا · فان من الأخطاء الفادحة ذات العواقب الوخيمة أن يتوهم متوهم أنه يخدم قضية الوطن بمحاولات الهدم والاستخفاف والتشنيع على الرواد الذين حملوا عبء بنائه · ان جميع القرون فى تاريخ الامة انما هى صحائف كتاب واحد وان كل فكرنا وكل كياننا هما النتيجة التى انتهى اليها عمل القرون ·

وان مما يؤسف له ان بعض المشتغلين بالبحوث النظرية أو التاريخية فى ايامنا هذه قد وقفوا من قادتنا الروحيين مواقف سلبية تارة أو هدامة تارة أخرى ، فخدموا بذلك مآرب الاستعمار ، وكانوا أعوانا له من حيث يشعرون أو لا يشعرون· وان الشبيبة العربية الواعية لتدرك فى وضوح ان أهم عمل ينبغى ان نقوم به فى فترة تجميع طاقات الانطلاق التى أشار اليها الميثاق هو العودة الى تراثنا الروحى نتعمقه ونستلهمه ، والاصغاء الى رواد الوعى عندنا نتلقى عنهم ونهتدى بهديهم ·

فاذا بحثنا عن المتضمنات فى فلسفة عبد الناصر وجدناها واضحة فى الركائز العقلية والاخلاقية التى تقوم عليها دعوات من سبقه من رواد الوعى الانسانى فى الشرق العربى ، امثال محمد عبده ولطفى السيد وقاسم أمين ، الذين نستطيع أن نلخص دعواتهم جميعا فى تحقيق شخصية الامة وأصالتها ، هذه الشخصية التى لا تتحقق الا بالتنوير والتحرير وكفالة العدالة والكرامة لكل انسان · لقد كان هدفهم ايقاظ الوعى الانسانى فى النفوس وتنبيه الناس الى الاخطار المحدقة بهم فى الداخل والخارج · وان المبادىء التى دعا اليها كل واحد من هؤلاء المفكرين هى نفسها المبادىء الضرورية لقيام وعى للانسان من حيث هو انسان · فبالوعى الانسانى ترسخ فى النفوس القيم الروحية والمثل العليا والمعانى الجميلة · وبالوعى يشعر الانسان كما يقول الكواكبى « ان الحرية أفضل من الحياة واكرم ، وان الشرف أعز من المنصب والمال · والوعى الانسانى هو الذى ينبه الى الظلم كيف يرفع ويشير الى الكرامة البشرية وقيمتها » ·

ولا نزاع فى ان من متضمنات الفكر الناصرى الاقرار بمكانة الدين فى المجتمع ، وهذا الاقرار



م · عبده

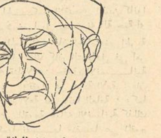
هو المبـدأ الثابت للخلفية الفكرية عنـد هؤلاء الرواد • وهـم جميعا متفقون على أن الدين فى أعلى صـــوره ليس احكاما جامدة ولا كهنوتية ولا اذكارا ، وانما يتيسر بالدين تهيئة الانسان المعاصر لحمل العبء الثقيل الذى يحمله أياه تقدم العلوم فى عصرنا • وقد حدثنا « الميثاق » عن أثر الدين فى حياة الانسان وعن وجوب الاستمساك بالقيم الروحية فقال :

« ان القيم الروحية الخالدة النابعـة من الاديان قادرة على هدايه الانســان وعلى اضـــاءة حياته بنور الايمـان ، وعلى منحة طاقات لاحدود لها من أجـل الخير والحق والمحبه • ان رســالات السماء كلها فى جوهرها كانت ثورات انسانية استهدفت شرف الانســان وسـعادته • وان واجب المفـكرين الدينيين الاكبر هو الاحتفــاظ للدين بجوهر رسالته » •

واذن فالدين ليس دخيلا على قيمنا ولا غريبـا عن تراثنا ولا بدعة مرهونة بزمانهـــا ، بل هو ركيزة لنا فى فكرنا وفعلنا • امدين خصيصة من خصـائص النفس المصرية ، كما بين العــلامة المؤرخ «ارمان • وأول ما بزغ الضمير فى الانسان بزغ فى الأمة المصرية ، كما بين العلامة برستد» •

وليس من قبيل المصادفة ان يذكر «الميثاق» أسماء محمد عبده وقاسم أمين ولطفى السيد • فالواقع أنه فى مستهل هذا القرن كانت الشبيبة المصرية فى حيرة من أمرها ، فأخذت تقلب البصر فى الظلام الكثيف تتلمس بصيصا من نور وتتطلع الى رائد يرشدها ويهديها سواء السبيل • وسرعان ما وجدت رائدها فى شخص الأستاذ الامام ، فى شخص رجل زانته الحكمة وصقلته الثقافة وحنكته التجارب دون أن تفقـــده حدق الذهن وتأجج العاطفة وعزمة الشباب ، رجل عرف كيف يجمع بين القديم والحـديث ، ويؤلف بين العلم والدين ويعيش لأمته قبل أن يعيش لنفسه واسرته •

وحاول الاســتاذ الامام أن يوفق بين منهج التعليم الاسلامى التقليدى وبين المناهج الجديدة المقتبســة من الغرب ، فقـامت بين المدرستين المتعارضتين مدرسة المجددين ومدرسة المحافظين، مدرسة ثالثة قوامها صفوة تلاميذ الامام • وبفضل ما كان للامام من مكانة سامية تهيـأ لهؤلاء أن يقربوا المبادىء الجديدة من أذهان الشعب • ومن حق الاستاذ الامام علينا أن نقول انه هو الذى أمد



م . عبد الرازق



أ . ل . السيد

التفكير المصرى بالوحدة والانسجام وطبعه بطابع الدقة والتحديد ، وأنه هو الذى استطاع بشخصيته وكتاباته أن يكون مصدر الهام لرجال السياسة والاجتماع والدين والفلسفة فى مصر ، فنشأت بفضله أربع مدارس مهمة : اجتماعية وعلى رأسها قاسم أمين ، وسياسية : وعلى رأسها لطفى السيد وسعد زغلول ، ودينية : وعلى رأسها رشيد رضا ، وفلسفية وعلى رأسها مصطفى عبد الرازق .

أما لطفى السيد فقد حمل عبء الدفاع عن دعوة الاصلاح والتجديد التى نادى بها الأستاذ الامام فى العالم الاسلامى الحديث . وجماع تلك الدعوة تنوير الأذهان لتزويد الأمة بأدوات الاستقلال الصحيح القائم على نشر العلم وتزكية الوعى والثقة بالذات والاعتماد على النفس والتشبث بطلب الحرية والشعور بالكرامة الانسانية . وفى ذلك يقول لطفى السيد : ان الحرية الشخصية خلقت مع الانسان ، ومهما كان الرق قديما فان الحرية أقدم منه .. والحرية أم العلم بل هى المقصود من معنى الحياة الانسانية. لذلك لم يخطىء الحكماء الاقدمون الذين كانوا لا يعتبرون العبد شخصا بل يعتبرونه آلة حية أو شيئا من الأشياء المملوكة ، فان الحياة بغير الحرية موت حقيقى . وعلى ذلك كان التساهل فى أمر الحرية الشخصية تنازلا عن حقوق الانسانية وواجباتها أيضا » . ويقول عن حرية الأمة : «ان الطبيعة قرنت حياة الامة بحرياتها العامة . وكما أن حرية الفرد هى المقومة لحياته الانسانية كذلك حرية الأمة وحكمها نفسها بنفسها هى المقوم الأول لحياتها ، بدونه لا تتم لها الحياة » .

لقد نظر لطفى السيد نظرة جوانية حقا حين حدد العلاقة بين الامة وبين الحكومة فقال :

« ان الحكومة من أعراض الأمة، وان الامة تأخذ الدستور لاتعطاه ، لأن الدستور ملك للأمة من يوم كونها أمة ، وأن كل أمة متى أجمعت على تغيير شكل حكومتها تحققت ارادتها من غير نزاع » .

هذه الآراء تشبه أن تكون هى الخلفية الايديولوجية لما نادى به عبد الناصر من « ارادة التغيير الثورى » . وقد بين ذلك فى كلمته فى العيد الثانى عشر للثورة حين قال :

« ان ارادة التغيير الثورى هى التى تدفع البشر دائما فى اتجاه المثل الاعلى وهى التى أكدت انتصارها فى افريقيا وفى مصر وفى الأمة العربية . فى افريقيا أكدت ارادة التغيير الثورى لدى شعوب القارة انها أقوى من الاستعمار .. ان الايمان أقوى من الطغيان .. وان الحق أقوى من الباطل ، والعدل أقوى من الظلم والثوار أقوى من الجلادين : لأن الايمان والحق والعدل والثوار يملكون مثلا أعلى يدفعهم التغيير الثورى نحوه وان ارادة التغيير لدى المؤمنين بالمثل الاعلى أقوى من الأمر الواقع مهما بدأ راسخا راسيا كالجبال » .

وقد بين جمال عبد الناصر أن ركيزة السياسة عنده هى الايمان بالمبادىء والمثل ونصرتها فى مواجهة كل التحديات فقال :

« ان الشعب المصرى اختار طريق المبادىء رغم تكاليفه ، ورفض حتى فى أخطر فترات العنف الاستعمارى ان يساوم على القيم النضالية لكى يحصل من المستعمرين على امتيازات موهومة قدمت اليه بكل قدرة الغواية على عرض نفسها . واننا لنعلم جيدا مدى الاخطار التى يتعرض لها شعبنا وتتعرض لها شعوب أخرى تؤمن بما نؤمن به ، اذ تتربص بها الآن قوى الشر والاستغلال الاستعمارى لتنقض على آمالها وانتصاراتها . ولكننا نؤمن بغير مبالغة فى تقدير قوتنا ولا تهيب من خوض المعركة فى نفس الوقت بأن المبادىء التى ناضلت الانسانية بها ومن أجلها سوف تؤكد سيادتها وتعلى حكمها . واذا كنا نرى فى عالمنا بعض مظاهر الطغيان تمثلها خطط

الانقضاض العدوانى ضد الشعوب فلابد أن نتذكر ان أى قوة عدوانية مهما بلغت واى خطط منقضة مهما اندفعت لا تستطيع أن تحطم ارادة الانسان » .

فارادة الانسان ـ بشرط أن تكون مستنيرة بنور العقل وهداية التجربة ـ كفيلة بأن تحقق مطامع الأحرار فى القضاء على قوى البغى والعدوان .

وكذلك كان عبد الناصر حريصا على أن يبين أن أساس الثورة المصرية تحررها من كل سيطرة أجنبية ، ورد الكرامة القومية الى كل مصرى ويمضى ، فيقول :

« **وقد كنت مصمما على أن أحقق استقلالنا التام ، وان احرسه من كل دخيل مهما كلفنى ذلك . وكانت هذه السياسة معبرة عن الشعور العام الذى بدأ يجتاح كل العالم العربى . ولم يفهم قادة الغرب هذه الحقيقة الا بعد فوات وقت طويل . فقد ظنوا أنهم انما يواجهون اصرار رجل واحد وكانت نظرتهم الى العرب هى نفس نظرتهم اليهم قبل الحرب العالمية الثانية ، فلم يفطنوا الى أنهم يواجهون الآن شعوبا تريد أن تنشىء مستقبلها بنفسها ، ولا ترضى بأى تبعية بعد الآن » .**

وقد جاء الميثاق الوطنى فأعلن اصرار الأمة على انصاف المرأة ورد اعتبارها بمساواتها بالرجل فى الحقوق والواجبات وفك الاغلال التى قيدتها فى عصور الظلم والتخلف ، وباصدار قوانين جديدة تكفل لها وضعا كريما فى المجتمع الاشتراكى الجديد وكان هذا الاصرار على تحرير المرأة ثمرة طيبة لدعوة قاسم أمين التى ناضل من أجلها فى بداية هذا القرن .

فقد نظر قاسم امين الى العيوب والآفات التى يرزح المجتمع المصرى تحت عبئها فوجد أن مرجع ذلك الى ان نصف الامة قد انتابه الشلل التام فى الحياة الاجتماعية ، شلل سببه الجهل والتأخر، اللذان قيدت بها المرأة عندنا . وحرص قاسم امين على أن يبين ان الاسلام ـ خلافا للوهم الشائع ـ لم ينظر الى المرأة نظرة مهانة واحتقار بل رفع من قدرها . واذا كانت المرأة قد عانت شيئا من المظالم فى المجتمع الاسلامى فليس الاسلام فى بساطته الاولى بمسئول عن ذلك وانما المسلمون فى العهود الاخيرة هم وحدهم المسئولون وخلاصة الاصلاح الذى اراده قاسم امين للمرأة المسلمة أمران : يتصل الاول ، بالعادات أو العرف الذى تعامل المرأة بمقتضاه وينظر به الى تعليمها وتربيتها ، والثانى نداء الى رجال الدين ان يراعوا مقتضيات العصر ومطالبه وان يتحرروا فى تطبيقهم لقوانين الشريعة من فهم النصوص على ظواهرها .

ولم يكن دور الثورة المصرية بقيادة عبد الناصر مقصورا على مصر وانما تجاوزه الى مناصرة قضية الحرية فى كل مكان ، ومؤازرة حركات التحرر الوطنى فى افريقيا وآسيا ودول العالم الثالث . وهذه حقيقة لا تحتاج الى بيان : فجميع المؤتمرات التى اشتركت مصر فيها والمساعى التى بذلتها فى المنظمات السياسية الدولية والاقليمية خير شاهد على الدور القيادى الذى اضطلعت به فى هذه الحقبة القصيرة من نضالها . وهذا ما أوجزه الزعيم الراحل فى برقية الى خروشوف (يوليو ١٩٦٤) اعرب فيها عن اعتزازه بدور الثورة المصرية فقال :

« ان الشعب المصرى اذ يسعده أن يرى الثورة التى حققتها جماهيره المناضلة موضوعا للتقدير والتكريم ، يشعر بالرضى فى نفس الوقت بأن الثورة التى حققها على أرضه قامت بدورها فى حركة التحرير الوطنى الباسلة ضد الاستعمار وفى حركة التطوير الجريئة ضد التخلف .. واذا كانت معركة السويس وبناء السد العالى معالم بارزة فى نضال الشعب المصرى فاننا نعتز بها فى الوقت نفسه معالم بارزة فى الحركتين الانسانيتين للتحرير الوطنى وللتطوير فى آسيا وافريقيا . وان شعبنا سيشعر باخلاص بأن كل شعارات الحرية والاشتراكية والوحدة التى رفعها اعلاما فوق نضاله الوطنى والقومى ، وبذل وما زال يبذل الكثير من الجهود لتأمين انتصارها ، انما هى اسهام حقيقى واصيل فى دعم السلام والتقدم فى العالم .. »

هذه لمحات من كفاح الرئيس الراحل وامانيه فى أن تستعيد مصر مكانتها لتلحق بركب الحضارة ، بل لتتقدم هذا الركب كما كان شأنها فى ماضيها المجيد .

وواجب الأحرار فى هذه البلاد ان يواصلوا السير فى ذلك الطريق الثورى ، فى بصيرة ومضاء حريصين كل الحرص على أن يكون منهج الثورة عندهم كما كان عند زعيمهم : أن يفكروا كرجال عمل ، وان يعملوا كرجال فكر .

• عثمان أمين

شخصية لقائد من شخصية مصر

سعد عبد العزيز

من أروع المعانى التى ينطق بها تاريخنا : أن مصر ظلت منذ الازل ، تعمل وتكد آلاف السنين ، من أجل تحقيق هدف واحد : انما هو مكافحة الموت .. وقد فازت مصر ببغيتها .. فكلما ظن الموت انه انتصر ، قام « حوريس » من أبنائها مرددا صيحته : « انهض .. انهض أيها الوطن .. ان لك قلبك ، قلبك الحقيقى دائما.. قلبك الماضى ! »

واذا بالموت يتراجع أمام صوت مدو يصدر من أعماق الوطن : « انى حى .. انى حى ..! ».

وحوريس ليس الا الشباب الذى يعيد الحياة الى حطام الماضى ، فيجعله يتحرك ، ويتشكل ، ويبعث من جديد .. وهكذا ظلت مصر فتية ، متجددة ، يجرى فى شريانهـا النيل فيمنحها حيويتها ، وخصبها ، ونماءها باستمرار ودون توقف .

ولئن كانت محنة مصر عبر تاريخها الطويل، تتمثل فى مدى معاناة شعبها ، ومثابرته ، وقدرته على احتمال جور الجائرين من حكامه الذين أنكروا عليه حقه فيما قدمت يداه من خير عميم، وحصاد وفير .. ولئن كان حكامه السابقين قد تجاهلوا شخصيته الخالدة ، وجهده الجبار الذى نزفه فى تشييد حضارة عريقة أصيلة ، ظلت آثارها تتحدى الزمن والفناء ، فان هذا الشعب لم يكن فى وسعه ـ ازاء حرمانه الطويل ـ الا أن يحلم بالخلاص ، ويكون خلاصه على يد حوريس جديد يعيد اليه روحه الخلاقة ، ويرد اليه شخصيته المجهولة ، ويخلصه من الظلم ، والاجحاف ، والهوان .

وهكذا كانت مصر على موعد مع قائدها الثائر « جمال عبد الناصر » ، الذى جاء وكأنه يحيا تاريخ أمته بأسرها فقد كان تجسيما حيا لآمالها ، وأهدافها ، ودوافعها .

وأحس «عبد الناصر» ـ من أول وهلة ـ أن تاريخ هذا الشعب ، انما يعبر عن تلك الدراما المحزنة الفريدة فى نوعها ، والتى تتسق فى سياقها ، وفصولها ، وأبعادها فى شكل موحد

متماسك ·· وكانت روعة هذا الشعب ، الذى يمثل دور البطولة فى تاريخه ، أنه لم يستسلم لقوانين الدراما التى تحتم على البطل أن ينتهى بالموت ·· فقد بقى يناضل ضد الاضمحلال والموت طول الزمن ، فحتى الاهرام التى شيدها لم يكن بناؤها بدافع من الشعور بالفناء وانما لايمانه بالبقاء ، والاستمرار ·· فهذه المدافن الضخمة لا تمثل ختام حياة ، وانما هى معالم الطريق الى حياة لا تعرف النهاية ·· انها أبواب الخلود التى أقيمت على حدود الأزل ·

وقد يرجع اصرار هذا الشعب على الحياة ، الى الطبيعة الحية البسيطة التى يستمد منها شخصيته ·· فمن الارض الخصبة المنبسطة التى لا تعرف الجدب ، ومن الشمس المضيئة المشعة دائما ، ومن النيل الذى لا ينضب معينه أبدا ، تتالف عناصر الجدل فى تأليف الطبيعة المصرية·

وبدأ «عبد الناصر» يتعرف على ملامح تاريخنا، ويغوص فى أعماقه ، وكأنه يغوص فى أعماق نفسه لكى يكتشف أسرار تكوينه وتشكيله ·· ومن خلال تلك التجربة الباطنة ، استطاع أن يلمس حقيقته ، وبالتالى استطاع أن يتلمس الطريق الذى حتم عليه أن يسير فيه ·· وفى هذا الصدد يقول فى «فلسفة الثورة» : «انها محاولة لاكتشاف نفوسنا لكى نعرف من نحن ، وماهو دورنا فى تاريخ مصر المتصل الحلقات ·· ومحاولة لاكتشاف الظروف المحيطة بنا فى الماضى والحاضر لكى نعرف فى أى طريق نسير فيه ··» ومن ثم ، فقد كان « زعيمنا الراحل » يبحث عن الدور الايجابى الذى قامت به مصر فى الماضى ، أى أنه كان يبحث عن الأصل الذى ينتمى اليه ، ولاريب ان ذلك يوحى ، بالدرجة الاولى بمدى اخلاصه الوثيق ، ووفائه الشديد للفضائل القومية ، سواء كانت مصرية أو عربية ·· فكأنه بذلك يسأل عن هويته : « من أنا ؟ » ، وكأنه يحقق قول «سقراط» (اعرف نفسك) ·· وواضح أنه من خلال اكتشاف «عبد الناصر» لنفسه، استطاع أن يكتشف واقعه المحسوس ، فقد أحس أن صلته بمصر كصلة الابن بوالديه اللذين ورث عنهما خصائصهما النادرة ، حتى اذا نما عوده ، واشتد ساعده ، راح يمتلىء ثقة بنفسه، ويتشكل فى صورة جديدة ·· أى يتشكل على النحو الذى جعل اسمه يقترن بذكرى شىء هائل ، ذكرى تغيير أمة بأسرها ·

وعرف «الراحل العظيم» من ثنايا التاريخ أن



مصر ، انما هى «هبة النيل» ، وأن شعبها انما هو ذلك المعلم الذى أعطى للعالم حضارته الاولى، وانسانيته الخلاقة ، وأن عبقرية هذا الشعب انما تكمن فى صلابة شخصيته ، والحفاظ على ملامحها ، وحيويتها رغم كثرة الخطوب ، والمحن التى تعرض لها ٠٠ ومع هذا ، فقد كان يعى تماما أن تاريخنا لا يعدو أن يكون جملة طويلة واحدة يمكن تلخيصها فيما يلى : شعب حمل من العذاب والسخرة والحرمان مايعجز عن حمله أى شعب فى العالم ٠

وأدرك «ناصرنا» أن أرضنا لم تكن فى أيدينا، وانما هى ملك للدخلاء ، والاجانب والمحتلين الذين رسخت أقدامهم فى مصر حتى صاروا أشبه بالحقائق الثابتة التى لا يجوز عليها تغيير أو تبديل ٠ ومن هذا المعنى المأساوى ، بدأ «عبد الناصر ينطلق فى طريقه الثورى ، فراح يوجه ضرباته القاصمة الى نظام الملكية ، والاقطاع ، والرأسمالية ، والاحتلال ، فكان قادرا على تحطيم تلك الثوابت التى تتوارثها الاجيال ، والتى أصابت واقعنا بالجمود ، والركود ٠٠ فرأيناه يهز هذا الواقع هزة شديدة ، ويدفعه الى الحركة ، والخلق ، والبناء ٠٠ وبذلك أمكنه أن يحول مجرى التاريخ ، تماما مثلما حول مجرى النهر فيما بعد ٠٠ ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان أول مصرى حقيقى أصيل يتولى قيادة بلده منذ الغزو الفارسى ، أى على وجه التحديد منذ ٢٤٩٢ عاما وهذه الحقيقة تكفى وحدها لتفسير مدى شوقنا الى ثورته ، وايماننا الشديد بها ٠

وكان «عبد الناصر» يرى فى تحرير مواطنيه من البؤس ، والفاقة ، والاذلال ، أسمى آيات الحرية ، فلم تكن الحرية فى نظره ، من ذلك النوع النظرى التجريدى الذى يدافع عنه الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء فى كتبهم ، وأشعارهم ، فهذا النوع من الحرية لا تربطه أدنى صلة بالمطالب الملحة للفلاحين والعمال ، الذين يمثلون أغلب سكان بلده ٠٠ ومن هنا كانت حريته ممثلة فى التحرر من الاستعباد ، والاستغلال والسخرة ٠٠ فهى أشبه بذلك النداء العصرى الذى يصدر عن القائد حين يقبل أن ينسجم مع منطق التاريخ وطبيعة المجتمع الذى ينتمى اليه ٠٠ فهو يطلقه فى صالح مواطنيه ، متوجها به الى أهل عصره جميعا ٠

ويعد ايمان زعيمنا الراحل بشعبه ، وثقته به ، وارتباطه الوثيق بالفلاح المصرى على الخصوص ، من أبرز فضائله وأروع سجاياه ، فعنده أن هذا الفلاح انما هو الذى يمثل ذلك الشعب الذى تنكر له حكامه ، وتجاهلوا جهده، وصبره ، وكفاحه الطويل ، ولعل ذلك ما دفع الثائر العظيم الى أن يقول هذه الكلمات فى أول لقاء له بالفلاحين « أنا جمال عبد الناصر ، أفخر بأن عائلتى لا تزال فى بنى مر ، مثلكم أنتم ، تعمل ، وتزرع ، وتقلع ، من أجل عزة هذا الوطن وحريته ٠٠ واذا قلت أننى أشعر بشعوركم ، فلأن قلبى من قلبكم ودمى من دمكم، واحساسى من احساسكم » ٠

ومن الضرورى أن نذكر أن الفلاح المصرى ظل منذ آلاف السنين ـ لا تربطه بالدنيا سوى علاقته بالارض ، والرى ، والزراعة ، فهو يخرج الى الحقل ليمضى فيه سحابة النهار ، ثم يعود الى مأواه عند الغروب ، وهو يتزوج وينجب الأبناء لكى يكونوا له عونا فى عمله الشاق ، وهو ينام وزوجه ، وأولاده وبهائمه فى مكان واحد ، تلك هى وحدة المصرى عبر تاريخه ، انها وحدة الحياة على ضفاف النيل ، وهى أيضا وحدة الشقاء الناجم عن استغلال فرعون ، وكاهن المعبد ، وممثل السلطة ، انها قصة الشقاء التى لا تتغير بتغير الاشخاص ، الملك الاله فى القصر الكبير ، وأفندينا فى القصر العالى ، وجناب اللورد فى قصر الدوبارة ٠٠ المال للحكومة ، والسخرة للشعب ٠٠ كل شىء لصاحب الارض ، أى للمملوك المالك ، والباشا ، والحاكم الرومانى النائب عن قيصر ، والبطليموس ، فماذا كان حظ الشعب من ثروة بلاده على طول تاريخه ؟

لقد كانت مصر فى صدر الدولة المملوكية ، فى عهد السلطان المنصور حسام الدين فى أواخر القرن السابع الهجرى عام ٦٩٧ هـ ، تقسم الى أربعة وعشرين قيراطا ٠٠ أربعة للسلطان ، وعشرة للأمراء ، وعشرة للجند ٠ فأين اذن نصيب الشعب من تلك الحسبة ؟ ٠٠ لقد كانت تلك الحسبة يتوارثها الحكام على طول التاريخ المصرى من عهد مينا حتى بيع أراضى الدائرة السنية فى أواخر القرن الماضى ٠٠ وقد تتغير أرقام «المعادلة» حيث يقوم بتعديلها الولاة والملوك والسلاطين ، وقد يدخل فى الحسبة الباشا العثمانى ، والباب العالى والحاكم الرومانى والخواجات ، وديون الخديو اسماعيل ، لكن تبقى



هذه المعادلة صحيحة لا تتغير . وعلى هذا ، يمكن القول بأن الطغيان الاقطاعي ، والبطش الاجنبي انما هما بمثابة الخطوط التى تحدد الملامح المؤسية المحزنة فى التاريخ المصرى .

ولقد حاول البعض أن يحمل النيل وزر ذلك النظام المؤلم ، زاعما أنه هو الذى بذر فى التربة المصرية جرثومة الطغيان حين أصبحت زراعة الرى هى الحياة فى الوادى ، لكن من الواضح أن النيل لا يمكن أن يمثل لعنة الطغيان ذلك لأن مظاهر الطغيان لم تكن الا انحرافة اجتماعيه من صنع الاقطاع ، وليست من صنع النيل .. وواضح ان مصر انما هى بيئة نهرية لا تعتمد على المطر الطبيعى ، وانما على فيض النهر ، ومن هنا كان الفرق فى حياة المجتمع النهرى ، وطبيعته ، فهذا المجتمع يتألف من الماء ، والفلاح ، والحكومة ، الأمر الذى جعل وظيفة الحاكم هنا ممثلة فى «محكمة مياه» ومن ثم ، كان فرعون فى مصر القديمة يمثل ضلعا أساسيا فى مثلث الانتاج الى جانب الضلعين الطبيعيين وهما الماء ، والشمس، وليس من دواعى الصدف أن كلا من هؤلاء الثلاث قد عبد ، وأنه ، ذلك لأن الديانة ، والميثولوجيا المصرية ، كانت تعطى مكانا بارزا لكل من النيل (حابى) ، والشمس (رع) كآلهة ، أما الملك فهو صانع المطر ، أى صانع الحياة على أرض الوادى . فليس غريبا أن يكون العقد الاجتماعى قائما على « الماء » ، وأن يتضمن هذا المعنى : « أعطنى أرضك ، وجهدك ، أعطك أنا مياهى » ، وليس غريبا أيضا - فى ضوء هذا العقد - أن يكون الحكم الفردى المطلق هو نظام الفرعونية الطبيعى .. ومن هنا جاءت جرثومة الانحراف ، والطغيان ، فقد أصبح الحاكم موزع الماء ومالكه أيضا .. وفى هذا التحول كانت ملكية الارض بالتحديد هى الفيصل .. فأدوات الانتاج تتمثل فى الارض والماء .. فاذا كان الماء دم الحياة فان الارض جسمها ، واذا كانت الارض خامة الزراعة فالماء وقودها .. ولما كان الماء فى يد الملك بحكم البيئة الفيضية ، فقد كان المتغير فى المعادلة هو الارض، فاما أن توزع بنوع من المساواة بين الفلاحين ، واما أن تحتكرها قلة من الاقوياء ، وما كان أيسر على من يتحكمون فى الماء أن يتحكموا فى الارض، فالامتلاك ، والاحتكار انما يتمثلان فى ذلك الشرط : « اعطنى أرضك وجهدك ، أعطك أنا مياهى » ، وبذلك تجمعت خيوط القوة فى يد فرعون حتى استحال الحكم المطلق الى طغيان ، وجبروت ، وكبت ، وأصبحت الفرعونية هى الملكية ، والامتلاك .



في ضوء ما سبق يمكن أن يتضح لنا مفتاح التركيب الاجتماعى فى مصر القديمة ، ففرعون، والكهان ، وكبار الموظفين حتى شيخ البلد ، انما يمثلون جميعا هيكل المجتمع ، حيث الكل هنا يقـوم على قاعدة عريضة من بروليتارية فلاحة مسـحوقة ٠٠ فقد كان الاقطاع هو القـاعدة الاساسية ، والاستغلال المطلق وكانت السخرة، والكرباج ، والتعذيب من وسائل الارهاب منذ الفراعنة حتى العثمانيين ٠

تلك هى ملامح التركيب الاجتماعى لمصر قبل الثـورة ، ذلك التركيب الذى صار فى قـوة رسوخه أشبه بالثبات النمطى على مر العصور ٠

وكان على « القائد الثائر » أن يتصدى لهذا النظام الجائر ، ويعمل على تصفيته حتى يرد الى مصر كبرياءها ، وشموخها ، فقد كان يدرك تماما أن مصر ليست أرض الطغيـان ، وليست أرض النفاق ، كما أن وداعة الفلاح ، وصبره وطاعته، لا يمكن أن تفسر على أنهـا نوع من الضعة أو الاستكانة أو الخوف ، وانما هى خصال فاضلة تمثل خامة الحضارة التى ينتمى اليها ٠٠ وهى الحضارة التى نشأها النيل ، وشوهها الاقطاع٠

كانت مصر قبـل الثـورة تشيخ وتتآكل وتضـمحل ، وكان وجهها الحزين المكدود ينطق بما تنوء به من مشاكل ، وازمات وآلام ٠٠ ولم يكن أمام عبد النـاصر الا أن يبحث عن الحلول الجذرية التى يمكن أن يعالج بهـا أزمة الواقع المصرى ، فقـد راح يستبطن هـذا الواقع ، ويستخلص منه الاسباب والنتائج ، حتى انتهى به الأمر الى التركيز على عنصرين أسـاسيين هما الارض والمـاء ٠٠ ودفعه احساسه الثـورى الى اصلاح ما أفسده الدهر ، فرأيناه ينتزع الارض من مغتصبيها ويعيد توزيعهـا على أصـحابها الحقيقيين ورأيناه يناضل من أجل السيطرة على النيل ، والتحكم فى كل قطرة من مائة حتى يأمن شر فيضه ، وشر جفـافه ، وحتى يولد الطاقة الكهربية التى تحرك المصانع ، ويحد من شوكة الصـحراء ويخضعها للنماء والاخضرار ٠ وكان بناء السد العالى أروع عمل ثورى ظهر فى القرن العشرين ٠٠ انه ذلك البناء الذى أمكنه أن يحقق به عملية (ضبط النهر) ٠٠ وبذلك اسـتطاع عبد النـاصر أن يحل المشاكل التى قامت فى الأقصر وأسوان منذ أربعة آلاف سنة والتى ظل الشعب يواجهها حتى القرن العشرين ٠٠ وحين يقف المرء على قمة السد العـالى يمكنه أن يتأمل المعنى الكبير الذى يمثله هـذا العمل الجبار ، ويمكنه أن يقول لنفسه : اذا كانت جرأة بطلنا قد تصورت هذا المشروع ، فان روحه الوثابة هى التى سـاهمت فى تنفيـذه واخراجه الى حيز الوجـود ، رغم كل العوائق ، والضغوط التى تعرض لها ٠

وفى ضـوء هـذا ، أمكن للثورة أن تكون وسيطا بين الانسان المصرى ، وأرضه ، ووصيا على العلاقة بينهما ، وبالتالى أمكنها أن تعيد تقييم العلاقة بين الفلاح والنهر ٠٠ ذلك التقييم الذى حطم القاعدة الجائرة التى مؤداها « اعطنى أرضك وجهدك ، أعطك أنا مياهى » ٠٠ ومن ثم ، فقد كان هذا العمل الفذ شيئا ساحرا بالنسـبة لجمال عبد الناصر اذ يقـول فى صفحة ٦٥ ، ٦٦ من الميثـاق : « لقد خاض الشعب فى مصر صنوف الحروب المسلحة ، والاقتصادية ، والنفسية لكى يبنى سد أسوان العالى ٠٠ ان هذا السد أصبح رمزا لارادة الشعب ، وتصميمه على صنع الحياة، كما أنه رمز لارادته فى اتاحة حق الملكية لجموع غفيرة من الفلاحين ، لم تسنح لها هذه الفرصة عبر قرون طويلة ممتدة من الحكم الاقطاعى ٠٠ » ٠

ومن هنا استطاع قائدنا أن يغير وجه مصر، وأن يعيد اليها الشباب والنضرة ٠٠ وهو لم يحقق ذلك الا عن طريق وعيه العميق بطبيعة الواقع ٠ وتفاعله الشديد بالاحداث والتجارب التى تجرى فيه ٠ وفوق ذلك ، فقد كان معلمنا العظيم يؤمن بأن «الارادة الثورية» ليس من طبيعتها أن تتعامل



لقد كان عبد الناصر بطلا فى حياته ، وبطلا فى ثورته وبطلا فى معاركه ، وكان أيضا بطلا فى موته ، فهو لم ينكس رأسه أبدا .. فقد مات واقفا ، مثلما تموت الأشجار وهى واقفة

مع الاشياء تعاملا نظريا مجردا وانما هى تسعى دائما الى هدم كل العلاقات التى تشدنا الى التخلف والضعف ، والاستكانة ، فهى تتخذ من الهدم وسيلة للبناء والتشييد ؛ فهى ارادة عملية ايجابية صادقة ، تنسجم وطبيعة الظروف والملابسات التى تحيط بنا ٠٠ فمن الاستحالة مثلا أن نتصور **الاستعمار** ، والاقطاع والفقر والجهل والمرض كأفكار نظرية ، أو مفاهيم كلية مجردة ، وانما هى حقائق ملموسة يعانى منها المواطنون ٠٠ حقائق لها من الكثافة والشدة ما تستعصى على التفكير النظرى ٠٠ ومن هنا كان من العبث ان نقاوم الواقع بالفكر ، وانما الصحيح هو أن نقاومه بالعمل الثورى الذى ينبع من صميم تجاربنا ، لا تجارب الآخرين ٠٠ فالفكر وحده لا يجدى فى تغيير المجتمع ؛ والكلام وحده لا يؤثر فى مجرى الاحداث وانما الانجازات الثورية هى وحدها القادرة على تغيير الاوضاع وتصحيحها ٠

ومن أجل هذا ، كان العمل فى نظر رائد الثورة ، يمثل القوة المؤثرة التى تسعى الى تشكيل المجتمع على النحو الثورى ٠٠ فالعمل بهذا المعنى ، يعد صنعا فى التاريخ أو قل هو صنع التاريخ نفسه ٠ واذا كان «عبد الناصر» قد نادى بأن الثورة مستمرة فى طريقها ، وأنها لن تتوقف أبدا ، فهذا يعنى أن الثورة لم تكن عنده مقصورة على مرحلة زمنية محددة ، تنتهى بانتهاء المهمة التى جاءت من أجلها ، وانما كان يتمثل الثورة فى تلك النبضة الحية ، والانتفاضة القوية التى تدفع الواقع الى حركة دائبة تجعله يلاحق ركب التقدم ، وعلى هذا ، فالثورة عملية تغيير ، وتشكيل ، وخلق دائم لا يتوقف وذلك من أجل انتزاع مصر من عالم التخلف واضفاء الروح العصرية عليها ٠

ذلك ما حدث تماما فى عهد الزعيم الراحل، فقد كانت حياته عملا موصولا ؛ وجهدا مضنيا ، ولا غرابة فى ذلك ، «**فالعمل عنده شرف، والعمل حق ، والعمل واجب ، والعمل حياة** » ، وفى هذا الصدد يقول فى صفحة ٨٤ من الميثاق : « ان العمل الانسانى الخلاق هو الوسيلة الوحيدة أمام المجتمع لكى يحقق أهدافه ٠٠ » ٠ ولهذا أمكن للثورة أن تحقق ارادة التغيير وأن تفرضها على الواقع المصرى الذى كان مخلخلا ، ممزقا ، فقد صار على يديها واقعا حيا ، مليئا ، كثيفا ٠٠

واقع ينوء بما يحمله من أحداث تاريخية جبارة ٠٠ ففي زمن وجيز مركز للغاية ٠٠ زمن يقاس حجمه بأقل من خمس سنوات ، نجد عبد الناصر يقفز فيه ببلده قفزة ثورية هائلة ، فقد أنجز هذه الاعمال على التوالى : « تحطيم النظام الملكى ، تحطيم الاقطاع والرأسمالية المستغلة ، تحطيم احتكار السلاح وعقد صفقة الاسلحة التشيكية ، الاعتراف بالصين الشعبية ، العمل على تمويل السد العالى ، تأميم قناة السويس ، الانتصار على العدوان الثلاثى» ٠٠ واستطاع عبد الناصر أن يخرج من كل هذه المعارك التى خاضها بطلا منتصرا ٠٠ وكانت هذه الانتصارات بمثابة الخطوط التى تحدد ملامح مصر فى شكلها الثورى الجديد ٠٠ مصر التى منحها القائد من روحه ، وحيويته وشبابه ما جعلها تنفض غبار الماضى ، وتنهض من رقادها وتتحرك لتأخذ دورها ومكانتها فى العالم ٠٠ فلا غرابة اذا رأينا الصورة الحقيقية لمصر تتجسد فى شخصية جمال عبد الناصر ، فمن المؤكد أن طبيعة هذا الرجل الفذ قد نحتت من طبيعة مصر ٠٠ مصر الخصبة ، الحية ، الفتية ، فهو مصرى صميم ، مصرى دما ، وفكرا ، ووجدانا ، ومذاقا ٠٠ فرغم أنه كان معروفا عند المستعمرين بأنه شديد البأس ، عنيف الى أقصى حد ، عنيد لا يعرف التراجع أو التقاعس ، الا أنه كان يتميز بالبساطة ، والهدوء ، والتواضع والقدرة على الاحتمال ٠٠ وهذه الخصال جميعا لا يتحلى بها الا رجل مصرى صادق مع طبيعته ٠ وتعتبر ابتسامة عبد الناصر أصدق تعبير عن تلك الطبيعة السمحة الطيبة ٠٠ فهذه الابتسامة التى كانت تعلو وجهه انما هى رمز يوحى بمعنى البطولة ، والتفوق والتضحية ٠٠ انها ابتسامة مرة تصدر عن نفس كبيرة تطحنها آلام المرض ، وآلام الوطن ، وآلام أمة بأسرها ٠٠ ان عظمة عبد الناصر هنا تتمثل فى قدرته على التحمل ، وقدرته على أن يحيل الألم الى حالة من النشوة تبتلع كل الأوجاع ، وذلك يدل على مدى تفوقه على نفسه ، وشعوره بقوة الحياة ٠

ولا نغالى اذا قلنا أن كل فكرة كانت تجول فى ذهن زعيمنا ، وكل خلجة من خوالج نفسه ، وكل خاطرة من خواطره ، انما كانت تعنى الانسانية كلها ، الأمر الذى جعل ثورته ثورة انسانية رحيمة بخصومها ٠ انها ثورة بيضاء فى لون النهار ، أو قل خضراء فى لون الوادى ٠٠ وهنا كانت معجزته الحقيقية ٠٠ فلا يغيب عن بالنا أن كل المكاسب التى حققها عبد الناصر لم يكن يتخذ من العنف سبيلا اليها ، وهو لم يستخدم العنف حتى فى تطبيق اشتراكيته ، فرغم أنه تخلص من الاقطاع ، والرأسمالية المستغلة ، الا أنه لم يستعن بأية وسيلة من وسائل الارهاب ضد الاقطاعيين أو الرأسماليين ٠

ويعد ذلك أصدق صورة عن انسانية مصر التى كان الثائر العظيم خير من يعبر عنها ٠

الى جانب هذا ، كان الزعيم المفكر قادرا على تحليل الواقع المصرى تحليلا دقيقا ، وكان يستنبط من خلال هذا التحليل كل الحقائق التى تمثل القاسم المشترك بين الاشياء ٠٠ وبمعنى آخر كان يسعى الى استخلاص « الحد الاوسط » بين الظواهر ، الأمر الذى جعل تفكيره فى مجال الثورة الاجتماعية ، والثورة السياسية ، يتوافق ومبدأ « لا افراط ولا تفريط » وكأنه بذلك يستجيب لنداء الطبيعة المصرية ٠٠ فمصر التى تمثل فى طبيعتها « التوازن والانسجام » ، انما وجدت فى ابنها الثائر أصدق من يمثلها ٠٠ فهذا التوازن الدقيق بين شمال مصر وجنوبها انما تنطبع آثاره فى تصور عبد الناصر لعالمه الواقعى ٠

ومن جوف هذا المفهوم الكلى انبثقت أغلب المبادىء التى اعتنقها جمال عبد الناصر ٠٠ فلكى يحقق الوحدة الوطنية بين جميع أفراد الشعب رأيناه لا يفرق بين فئة وأخرى ، ولا يعلو من شأن طبقة على أخرى ؛ ومن أجل هذا ، راح ينادى بتحالف قوى الشعب العاملة الممثلة فى الفلاحين،

والعمال ، والرأسمالية الوطنية ، والمثقفين ٠٠ فقد أراد بهذا التحالف خلق مجتمع موحد متآلف خال من التناحر ، والتصارع ، وعلى هذا ، استطاع أن يجعل من ثورته ثورة لكل فئات الشعب العاملة ، فقد امكنه ان يذيب الفروق بين الطبقات دون أن يفرض ديكتاتورية أى طبقة ٠٠ وبذلك يمكن القول أن اشتراكية عبد الناصر انما تمثل بالمعنى الدقيق « التركيب الذى يجمع بين محاسن كل الثورات ، فهى لا تعرف التطرف وانما تقف فى الوسط ، وبالتالى فهى لا تعدو أن تكون نبتا بيئيا أصيلا ٠

واذا كان عبد الناصر قد آمن بأن قوة مصر انما تكمن فى قوة تصنيعها ، وربطها بركب الثورات العلمية ، والتكنولوجية والاشتراكية حتى يمكن استخدام أحدث الكشوف العلمية فى زيادة الانتاج من السلع والخدمات ، وتوزيعها بالعدل بين الجميع ، فانه مع هذا ، نراه لا يهمل الجانب الروحى والمعنوى فى حياة المجتمع بل هو عنده ضرورة ملحة من أجل استقامة الحياة ٠٠ يقول فى صفحة ٩٣ من الميثاق : « **ان انطلاقات الروحية للشعوب تستطيع أن تمنح آمالها الكبرى** اسمى القوى الدافعة ، **كما أنها تسلحها بدروع من الصبر والشجاعة تواجه بهما جميع الاحتمالات ، وتقهر بهما مختلف المصاعب والعقبات ٠٠ واذا كانت الاسس المادية لتنظيم التقدم ضرورية ولازمة ، فان الحوافز الروحية والمعنوية هى وحدها القادرة على منح هذا التقدم أنبل المثل العليا ، وأشرف الغايات والمقاصد ٠**»٠

وفى ضوء ما سبق ، يتبين لنا أن عبدالناصر رغم ثقته بالجانب المادى من الحضارة الذى يعد أمرا ضروريا لكل تقدم ، الا أن ذلك لم يحل دون ايمانه بالقيم الروحية ، والمعنوية التى تمثل فى رأيه كل انسانيتنا ٠ ولعلنا نلمس فى هذا التفسير لمعنى التقدم ، كيف يستجيب قائدنا الى طريقة تفكيره التى تتوافق مع مبدأ « الوسط الذهبى » ٠

ويمكن أن نتبين فى مجال الثقافة ماكان يتحلى به معلمنا العظيم من تحرر وموضوعية ، بعيدة كل البعد عن التعنت والتزمت ، والتعصب ، فنراه يفتح جميع نوافذ المعرفة ، الشرقية منها والغربية لكى نطلع على كل ما يجرى فى عالمنا من ألوان الفكر ، والأدب والفن ، وذلك من أجل خلق وعى انسانى عالمى جديد ٠٠ ومن هنا ، أعطى للثقافة حريتها وانسانيتها ، وبهذه النظرة الواسعة الشاملة أمكنه أن يحقق عنصر التوازن بين جميع ثقافات العالم ٠ كذلك يمكن أن نلمس هذا المعنى فى سياسته الخارجية ، فقد كان أحد الأقطاب الثلاثة (عبد الناصر ، نهرو ، تيتو) الذين نادوا بالحياد الايجابى وعدم الانحياز ، وكأنه بذلك يعبر عن طبيعة الموقع الذى تنتمى اليه مصر ٠٠ وهو ذلك الموقع الذى يمثل التوازن والمحورية ٠ فمصر تقع فى الصحراء لكنها ليست منها ، ومصر فرعونية بالمجد ولكنها عربية بالأب ٠٠ وهى بجسمها النهرى قوة بر ٠٠ ولكنها بسواحلها قوة بحر ، وهى بطريقة أو بأخرى تكاد تنتمى الى كل مكان عربى وافريقى ٠ فهى من حيث المكان تقع فى افريقيا ، ولكنها تمت أيضا الى آسيا بالتاريخ ، وهى بموقعها على خط التقسيم التاريخى بين الشرق والغرب تمثل مركزا حيا ، كما أنها تمديدا نحو الشمال ، وأخرى نحو الجنوب ، وهى الى جانب ذلك توشك أن تكون محورا مشتركا لثلاث دوائر مختلفة صارت مجمعا لعوالم شتى ، فهى قلب العالم العربى ، وواسطة العالم الاسلامى وحجر الزاوية فى العالم الافريقى ٠

واذا كان لهذا كله مغزى ، فانما يكمن فى تلك الحقيقة التى مؤداها أن مصر انما تمثل بمكانها الفذ « الحد الاوسط » بين شعوب المنطقة ٠٠ ومن ثم يعتبر مبدأ « الحياد الايجابى » الذى نادى به عبد الناصر أقوى تعبير عن فلسفة الثورة النابعة من عبقرية المكان والموقع الذى تتميز به مصر ٠٠ كما أن هذه الفلسفة تستمد أصولها من شخصية مصر المستقلة التى تكافح من أجل السلام والتطور والتقدم ، والتى تلتزم بدورها الانسانى والحضارى على مر العصور ٠٠ ومن أجل هذا يقول الميثاق فى صفحة ١٠٧ : « ان شعبنا شعب عربى يرتبط بوحدة مصير الامة العربية ٠٠ ان شعبنا يعيش على الباب الشمالى الشرقى لافريقيا المناضلة ، وهو لا يستطيع أن يعيش فى عزلة عن تطورها السياسى والاجتماعى والاقتصادى ٠٠ ان شعبنا ينتمى الى القارتين اللتين تدور فيهما الآن أعظم معارك التحرير الوطنى وهو أبرز سمات القرن العشرين » ٠ وهكذا صارت الثورة تعبيرا حيا عن وطنيتها ، وقوميتها وانسانيتها ٠

واذا كنا ننظر الى جمال عبد الناصر على أنه ابن مصر الذى حقق آمالها وأهدافها ، فهذا يعنى بالضرورة أنه أيضا ابن الجمهورية العربية



المتحدة ذلك لأنه ليس هناك تعارض بين الوطنية المصرية والقـومية العربية ٠٠ فمصر هي جزء لا يتجزأ من الوطن العربى ٠٠ فهناك من المقومات الأساسية ما يجعل مصر تنتمى الى أمتها العربية منهـا اللغة المشتركة والتاريخ الملتحم والمصلحة المترابطة والعقيدة السـائدة ، وهـذه الاسس متوفرة في القومية العربية بطريقة فريدة ، ربما لم تتوفر في قومية أخرى معروفة ٠٠ بل لا نغالى اذا قلنا أن العنصر العربى انما ينتمى فى حقيقته الى أصل مشترك مع العنصر المصرى ٠٠ فكلاهما أقارب جنسيا منذ ما قبل الاسلام ، بل وما قبل التاريخ ٠٠ فالاختلاط الجنسى المصرى العربى كان فى الحقيقة زواجا بين أقارب بعيدين ، ولهذا قيل انه اذا كان العرب قد عربوا مصر ثقافيا ، فان مصر قد مصرتهم جنسيا ٠

ولقـد أعطى جمال عبد الناصر المثل الأعلى لعروبته من خلال كفاحه الشاق ، وجهاده المضنى حتى آخر لحظة من حياته ٠٠ وحسبنا أن نشير الى انه قد بدأ نضاله الثورى على أرض فلسطين، وختم حياته وهو يناضل من أجـل فلسطين ٠٠ ولقد حمل جمال عبد الناصر أعباء أمته بأسرها طوال حياته دون كلل أو ملل ، واستطاع أن يرفع صوتها مدويا فى آفاق العالم ، واستطاع أن يرد اليهـا عزتها وكرامتها وكبرياءها ، حتى صار معروفا بأنه بطل القومية العربية الذى يريد أن يحطم الحواجز المفتعلة بين الدول العربية بغية توحيدها ، وانصهارها فى دولة عربية كبرى ٠

وبعد ، فقد كان عبد الناصر بطلا فى حياته وبطلا فى ثورته ، وبطلا فى معاركه ، وكان أيضا بطلا فى موته ، فهو لم ينكس رأسه أبدا ٠٠ فقد مات واقفا ، مثلما تموت الاشجار وهى واقفة ٠

سعد عبد العزيز



جمال عبد الناصر.. ومفهوم البطل فى التاريخ

مصطفى طيبه

اذا كانت العبقرية السياسية تقاس بمدى التأثير والتغيير الذى يحدثه القائد فى الظروف التى يعيشها ، فان جمال عبد الناصر القائد هو أحد هذه النماذج النادرة فى التاريخ • لأن تأثيره الفكرى ، والسياسى ، تجاوز وطنه مصر ، وأمته العربية ، ليصبح رمزاً عالميا للنضال من أجل الحرية والسلام •

واذا كان من الصعب تقييم، أو تحليل، الأفاق الواسعة لدور عبد الناصر فى تاريخ هذه المرحلة من عصرنا ـ فى مقال سريع ـ فان هناك بعض العلامات البارزه ، من المفيد أن تكون مقدمة لطرح هذه القضية الكبيرة : أثر عبد الناصر فى التاريخ الحديث •

واذا كان دور الفرد ، أو البطل ، أو العظيم ، فى التاريخ ، محل مناقشات واسعة بين فلسفات التاريخ المعاصره ، فربما تكون ظاهرة عبد الناصر على وجه الخصوص ، قادرة على اغناء هذا الجدل ، بما تقدمه من وقائع ثابتة **تبين بوضوح العلاقة** الوثيقة بين الظروف العالمية ، والقومية ، **والاجتماعية ، وبين البطل القادر على استيعاب هذه الظروف فى فكره ووجدانه ، والتفاعل معها ثم اطلاق قدرات وطاقات أمته فى اتجاه يتفق مع مسيرة التقدم فى هذه المرحلة •**

وكل هذا كلام عام • فمن الممكن أن يظهر مئات الاشخاص ، ذوى الاستعدادات القيادية يعيشون نفس الظروف ، ويتفاعلون مع حقائقها ، دون أن يخرج من بينهم البطل التاريخى المنشود ••• فلماذا ؟

لأن البطل التاريخى ، يملك صفات شخصية لا تقف عند حدود القدرة الفكرية على استيعاب

حقائق عصره والتفاعل معها • انه يملك الى جانب ذلك صفة نادرة • القدرة التنظيمية على تعبئة أمته وايقاظطموحها لتحقيق ما يجول فى وجدانها من آمال وأحلام •

وأكثر من هذا ، **يملك القدرة الاستراتيجية على تحديد الاهداف العامة ، والقدرة التاكتيكية على خوض المعارك الجزئية اليومية لربط هذه الأهداف الجزئية ، بالأهداف الاستراتيجية العامة•**

وأخيرا •• **تأتى صفة أخرى • قدرة البطل على تجاوز المخاطر ، والأزمات ، والنكسات ، وتحويل الهزيمة المؤقتة الى نصر •**

وهكذا تتحدد بوضوح بعض الصفات العامة للقائد أو البطل فى التاريخ• فهو مجموعة صفات وقدرات فكرية ، جماهيرية ، تنظيمية ، متحدة برباط لا ينفصم •

وكل هذا يمثل الوجه الذاتى للمشكلة ، الوجه المعبر عنامكانيات بروز بطل جديد فى التاريخ • ويبقى بعد ذلك الوجه الآخر ، وهو وجود الظروف التاريخية ، والقومية ، والاجتماعية الباحثة عمن يعبر عنها ، تبحث عنه ، وتتجه اليه •

ربما تنتج هذه الصفات قائدا قوميا كبيرا ، ولكنها لا تحقق البطل التاريخى العظيم •

والفارق كبير بين الاثنين• بين بروز زعيم كبير يؤثر بشكل أو آخر فى ظروف أمته ، وبين انبثاق البطل المغير للتاريخ •

ظاهرة القائد جمال عبد الناصر

على ضوء هذه العوامل الأساسية . نستطيع البدء بتناول ظاهرة القائد الراحل جمال عبد الناصر •

كيف استطاع هذا البطل أن يحدث هذا التأثير الكبير فى ظروف وطنه وعالمه ؟

هنا لا بد من استعراض عام لابرز ملامح الظروف الموضوعية التى انبثق من أعماقها عبد الناصر ، انفعل بها ،وتفاعل معها ، واستطاع بقدرته الخارقة استيعاب كل أبعادها ، والتقدم نحو القيادة ليدخل التاريخ كواحد من أعظم أبطاله •

يمكن اجمال هذه الظرو ففى العوامل الآتية:

من الناحية العالمية ، كانت الحرب العالمية الثانية قد أطلقت بعد نهايتها ، حركة التحرر الوطنى •

فالبلاد التى عانت طويلا من عبودية الاستعمار، وابتلت بأهوال آثاره فى شتى نواحى حياتها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والعلمية ، هذه البلاد تحركت فى اتجاه ينشد الخلاص من هذه العبودية •

ومن جهة أخرى اقترن تحرك هذه البلاد المستعمرة بتغيرات أساسية فى العلاقات الدولية•

فلم يعد الاستعمار هو القوة الوحيدة المتحكمة فى مصير العالم • انما برز بعد الحرب معسكر البلدان الاشتراكية ، بقيادة الاتحاد السوفيتى ، يعلن مساندته لقضايا التحرر والتقدم •

وكانبروز هذا المعسكر ، يعنى الغاء الانقسام العالمى القديم بين دول استعمارية تسعى لاقتسام مغانمه ، وتتصارع الى حد اشعال الحروب العالمية لتحقيق هذا الهدف ، انهاء هذا الانقسام القديم، وانبثاق توازنات جديدة ، قوامها المعسكر الاشتراكى من ناحية ، والمعسكر الرأسمالى الاستعمارى من ناحية أخرى •

وفى غمار هذا الانقسام العالمى الجديد ،وتكوين الاحلاف المعبرة عنه، كان وميض حركة التحرر الوطنى. يواكبها جنين شعار جديد ، يتسم بالغموض والتردد ، اسمه الحياديين المعسكرين العالميين •

ولقد صاحب هذه الظروف ، مقدمات الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة ، معبرة عن نفسها فى تفجير الطاقة الذرية ، وظهور السبرناطيقه — علم التحكم والتوجيه فى الآلات — بكل ظواهرها الخارقة المتمثلة فى الحاسباتالالكترونية ،والتيسير الذاتى للآلات — «الأوتوميش» • ومع هذه العوامل العالمية ، تيارات فكرية ، عديدة ومتناقضة ، استطاعتالتأثير على القسم الأكبر من مثقفى الدول المستعمرة أو المتخلفة •

تلك هى أبرز سمات التطورات العالمية عندما بدأ جمال عبد الناصر اعداده لثورته الكبرى •

ومن الناحية العربية : كان العالم العربى تطحنه الخلافات ، وينوء تحت أقدام الاستعمار ،

السافر ، أو المستتر . وكانت الشعارات المناوئة لفكرة القومية العربية ، تحتل مكان الصدارة . ابتداء من شعار الهلال الخصيب ، حتى فكره الوحدة الاسلامية ، كبديل لحركة القومية العربية الباحثة عن البطل القادر على بعث شعارات الوحدة على أسس ومضامين تقدمية .

ومن الناحية الداخلية ، وهى التى تمثلت فى ظروف وصراعات المجتمع المصرى .

كانت مصر وقتئذ ـ أوائل الخمسينيات ـ بالغليان . **كانت حبلى بالثورة** .

فالاحتلال الطويل لأراضيها ، جعل من قضية التحرر الوطنى أمل أجيالها الطويلة وشبابها الجديد .

وفى قمة السلطة،كانت السراى ترمز للتحالف الوثيق بين أعداء الشعب . الاستعمار ، الاقطاع، الرأسمالية الكبيرة .

وكانت أحزابها القديمة ، وخاصة أكبر هذه الاحزاب وأغناها رصيدا بالنضال الشعبى ـ الوفد ـ قد استنفد طاقاته الوطنية والثورية ، وانتهى بفضل سيطرة اليمين على قيادتها ، قوة تهادن ومساومة وتمييع للنضال الشعبى .

أما التيارات اليسارية ، فرغم اسهامها فى النضال الشعبى بعد الحرب العالمية الثانية ،كانت عاجزة عن القيام بعمل حاسم يفجر تناقضات المجتمع ، وتكون الثورة نتاجا لهذا التفجير .

وحاولت الاتجاهات اليمينية المتطرفة ، بقيادة جماعة الاخوان المسلمين ، ركوب موجة السخط الجماهيرى ، واجتذاب الشباب لصيدة شعاراتها العاطفية المجردة من التحديد ، بهدف استبدال واجهة الاستبداد الاقطاعى الرأسمالى القديم ، بواجهة أخرى بلا تغيير شامل لجوهر هذا الاستبداد .

ومن أعماق هذه الظروف كلها ، أدرك جمال عبد الناصر أين توجد الحلقة الرئيسية القادرة على تفجير الثورة .

فمن مكانه الفريد فى الجيش،عانى مع الضباط الوطنيين خيانة الحكام أثناء حرب فلسطين .. وتأكد من خندقه فى الفالوجا ، أن سخط الضباط على فضيحة الأسلحة الفاسدة ، واقحام مصر فى حرب بلا استعداد ، انما هو جزء من قضية أكبر . قضية التحرر الشامل للوطن بأسره وليس تحرير الجيش فحسب من قياداته الفاسدة .

هكذا اقترن الوعى بعالمه ووطنه بالبحث عن أداة التغيير . وبنظرة عامة للقوى السياسية المختلفة ، أمن بأن أداة التغيير والثورة يجب أن تخرج من أداة السلطة نفسها ، وعصاتها الغليظة الموجهة ضد الشعب : أى الجيش ! .

كان تنظيم الضباط الاحرار هو الأداة المنشودة .

ولكن المشكلة ليست فى تكوين هذا التنظيم أو ذاك ، انما فى القدرة على تحويل هذا التنظيم الى قوة قادرة على بلوغ الهدف . وكان الهدف هو : الثورة .

العوامل الشخصية :

من خلال هذه المعالم الرئيسية ، المعبرة عن الظروف الموضوعية نستطيع استخلاص هذه الحقائق العامة :

أولا : أن النظام فى مصر كان يعانى أزمة حادة .. لا علاج لها الا بالثورة . وأن هذه الثورة كانت تبحث عن القائد القادر على خلق أداتها ـ أى التنظيم الثورى ـ وقيادة حركتها حتى النصر .

ثانيا : وكانت حركة الأمة العربية تعانى هزيمة مريرة، نتيجة الاغتصاب فلسطين ،وسيادة التيارات الاستعمارية والاقليمية ، بلا مقاومة تذكر . وكان الوطن العربى يبحث فى حيرة عن قيادة جديدة .. تقود مسيرته ، وتحدد أهدافه، فى ظروف عالمية ، ومحلية ، بالغة التعقيد ،

ثالثا : وكانت حركة التحرر الوطنى العالمية، تتجه بحكم طبيعة الهدف المشترك ، والعدو المشترك ، الى التقارب ، والبحث عن خط جديد بعد الاستقلال ، يضمن الحفاظ عليه ، وسط عالم تمزقه الصراعات والأحلاف .

وبكلمة خرى ، كان هذا العالم الجديد ـ العالم الثالث ـ يبحث هو أيضا عن بطل ،أو أبطال ، يوحدون صفوفه ويصوغون شعاراته .

رابعا : كانت الثورة التكنولوجية الحديثة ، والتيارات الفكرية العالمية ، تشكل تحديا خطيرا ،



يحتاج لقائد يستطيع ملاحقة التقدم العلمى الهائل ، ويحقق الملائمة بين المحافظة على التراث الوطنى ، والانفتاح فى نفس الوقت نحو آخر ما وصلت اليه حضارة وفكر العصر .

خامسا : أن الظروف المحلية – مصر – والعربية والعالمية ، كلها كانت تجتاز مراحل صعبة ومعقدة ، لا يمكن مواجهتها الا بثورة فى مستوى هذه الظروف ، بقيادة بطل يملأ المكان الباحث بشوق عن هذا البطل .

وتأتى صفات عبد الناصر الشخصية ، لتعبر عن هذا اللقاء الفريد بين الاحتياجات الموضوعية للتطور التاريخى ، وظهور القائد القادر على التصدى لهذه الاحتياجات .

ولقد عبر عبد الناصر بعمق عن هذه الحقيقة فى كتاب فلسفة الثورة عندما قال : « ان ظروف التاريخ مليئة بادوار البطولة المجيدة التى لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست أدرى لماذا يخيل الى دائما أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها ، دورا هائما على وجهه ، يبحث عن البطل الذى يقوم به » .

هكذا عبر جمال عبد الناصر بعمق عن هذه الضرورة التاريخية .

سادسا : ولكن البطولة لا تأتى بلا توفير كل الشروط اللازمة للبطل . الظروف الموضوعية مهما كان نضجها ، لا تخلق وحدها البطل بطريقة عشوائية ، انما توجد عند الانسان القادر على القيام بهذا الدور . ودروس التاريخ مليئة بامثلة عديدة لهذه الحقيقة .

الثورة الوطنية فى الهند وجدت بطلها أولا فى صورة غاندى ، بقدراته الروحية الخارقة على توحيد أمته .



ثم انتصب بعــده نهرو بتمثيله الواعى لكل أبعــاد عصره ، وقيادته العظيمـــة لأمته بعد الاستقلال .

والثورة الاشتراكية فى روســيا كان يمكن تأخيرها لسنوات . **فالضرورة التاريخية لا تعنى بحال حتمية تفجر الثورة فى عام بعينه ، او يوم بالذات .**

ولكن بروز عبقرية لينين ، عبقريته الفكرية ، والسياسية ، والتنظيميـــة ، مع توفير الظروف التاريخية الباحثة عن بطل ، حقق النصر لهــذه الثورة ، والنصر على جميع العقبات والتحديات التى واجهتها .

ونفس الامر بالنسبة للثورة الصينية .
عشرات من القـــادة ظهروا قبل ماوتسى تونج ولكنه الوحيد الذى استطاع اكتشاف أهم حلقات الثورة المؤدية الى النصر ، فى صورة **القـــانون الفريد للثورة الصينية ، وهو الزحف من الريف الى المدينة .**

وعشرات الامثال فى التاريخ ، تعبر عن حقيقة واحدة .لا يكفى توفير الظروف الموضوعية لتنطلق الثورة .

لابد من القيادة الشـــخصية العبقرية المتحدة والمعبرة عن هذه الظروف .

وكان عبد الناصر بحق هو البطل الذى يبحث عنه تاريخ وطنه ، والمنطقة التى يعيش فيهـا ، عندما برز الى الوجود .

فصفاته الشـخصية لاتقف عند حدود الوعى بضرورة الثورة . ولا تنتهى عند القدرة على خلق التنظيم القادر على تفجيرها . انما تجمع الى جانب هذا كله ، احساس عميق بمشكلات عصره ،وآمال امته ، واحلام شعبه فى الحرية، وقدرته على مواجهة أقصى الظروف والتحديات والأزمات بشـــجاعة وحسم .

وعندما تتحدد ضرورات التاريخ فى اجتياز مرحلة صعبة ، مع بروز الرجل القادر على القيادة فى هذه المرحلة ، هنا بالتحديد تتجسد العــلاقة بين الفرد والتاريخ .

فالبطل لا يصنع التاريخ وحده.. انما يتحرك التاريخ بطاقات الجماهير ، تحكمه ـ أى التاريخ ـ قوانين موضوعية ، يجىء البطل ليفهمها ويحرك أمته فى اتجاهها .

عبد الناصر اذن نتاج لظروف عديدة .

انه المعبر عن احتياجات العالم الثالث لسياسة مستقلة تضمن الاسهام فى خلق عالم يســوده السلام ، والحرية ، والعدل والتقدم .

وهذا الخط الذى ساهم عبد الناصر فى صياغته للعالم الثالث ـ الحياد الايجابى ـ لم يخلقـــه عبد الناصر ، انما العكس هو الصحيح . بمعنى أن احتيـــاجات هذا العالم الى بطل جديد فى مستوى مشاكله وهمومه ، هو الذى خلق جمـال عبد الناصر .

ونفس الامر بالنسبة للقومية والوحدة العربية ٠٠ فعبقرية عبد الناصر تكمن فى أنه عبر بعمق عن أهداف أمته العربية فى التحرير والوحدة ٠

انه لم يخلق فكرة الوحدة العربية ، ولـكن هذه الفكرة وضرورتها القومية والتاريخية ، هى **التى أسهمت فى خلق دور عبـــد الناصر كبطل تاريخى ٠**

يقول جمـــال عبد الناصر فى كتاب فلسفة الثورة « لقد بدأت بعد أن اســتقرت كل هذه الحقائق فى نفسى ، أومن بكفاح واحد مشترك ، وأقول لنفسى : مادامت المنطقة واحدة ، ومستقبلها واحد ، والعدو واحد مهما حاول أن يضـع على وجهه من أقنعة مختلفة ، فلماذا نشتت جهودنا ؟٠

ويبلغ عبد الناصر قمة ايمانه بالوحدة العربية، حين ينسب اليها بطولة مصر ، بطولته هو ٠يقول فى خطابه الذى أعلن فيه تاميم قناة الســويس « اننا نشعر أننا عضو فى الكيان العربى الكبير، ان هذا الشعب يشعر بوجوده متفاعلا فى الـكيان العربى الكبير » وعلى الصعيد الوطنى ، فان عبد الناصر لم يخلق من الخواء ثورة مصر عام ١٩٥٢٠ ولكن الثورة المستعرة عند الجماهير ، الباحثة عن قائد لها ،هى التى خلقت بطولات جمـــال عبد الناصر ٠

وكل هذا ـ كما قلت ـ لا يعنى الربـــط الميكانيكى بين الاحتياجات التاريخية وبروز البطل لا يعنى أن الضرورة التاريخية قادرة وحدها على خلق البطل بلا توفير لشروط وصفات البطـولة الحقة فى تكوينه ٠

البطل ٠٠ والاختيار الصعب

ان انفجار الثورة لا يعنى وحده احداث التغيير الثورى ٠ انفجار الثورة مجرد مقدمة لهذا التغيير فالاستيلاء على السلطة ليس نهاية المطاف ، انما بداية لمعركة أشق من معركة الاطاحة بالاعداء من السلطة ٠ ولقد واجه عبد الناصر بعد الثـورة مئات العقبات والتحديات ٠ ما كان يمكن تجاوزها لولا تمتعه شخصيا بصفات البطل التاريخى ٠

كان عليه أن يواجه تيارات فكرية ، تدعوه الى التمسك بالتراث الدينى ، واعتباره وحده طوق الأمان لتحقيق أحلام مصر ٠ وبكلمة أخرى كانت هذه الاتجاهات تدعوه الى رفض كل قيم الحضارة الحديثة ، لأنها : **رجس من عمل الشيطان ٠**

وكانت هنـــاك اتجاهات فكرية غربية تتخذ الموقف المضاد ٠ ارفض هذا التراث كله ، **لأن الموتى لا يملكون ســـوى قبورهم ٠٠** والاندفاع لتبنى حضارة الغرب الرأسمالى ، والارتبـــاط بسياسته وأحلافه ٠

وكانت هناك اتجاهات مختلفـــة بين هذين النقيضين ٠ بعضها يحاول بعث مصر الفرعونية، بعيدا عن مصير أمتنا العربية ٠

وكان هناك الكثير ٠٠ فماذا فعل القائد أمام هذه التيارات ؟ ٠

من اليوم الاول ، صاغ مجموعة من المبـادىء العامة ، تضمن ربط قضـية التحرر الوطنى ، بقضية التحرر الاجتماعى ٠

وفى بوتقة التطبيق ، نمى وتطور فكر عبد الناصر ، ليصل الى قمته فى الميثاق ، ثم برنامج ٣٠ مارس ، فضلا عن خطاباته العديدة للمزيد من التوضيح لهذه القيم ٠

وكم كانت قاسية ، وعظيمة تجارب القائد فى عالم تحكمه تناقضات معقدة ٠ فمن باندونج فى أندونيسيا ، بدأ دوره كبطل من أبطال التحرر والتقدم فى العالم الثالث ٠ هناك اشترك فى صياغة الأهداف العامة لهذا العالم الجديد ، بما يحقق طموحه فى الحرية والتقدم ٠

وعبر مسيرة طويلة من النضال فى هذا الميدان واجه خلالها أقصى الضغوط والمؤامرات الاستعمارية تأكدت فائدة التلاحم المصيرى بين بلدان هذا العالم رغم كل عوامل الخلاف والانقسام ٠

ومن خلال تجربته المباشرة فى المعارك الحربية ضد اسرائيل، وتجربة عدوانها المتتالى ضد الارض المصرية ، ورفض الغرب الاستجابة بطلباتنا المتكررة من السلاح ، ولدت العلاقات المصرية مع العالم الاشتراكى بقيادة الاتحاد السوفيتى ٠

ولدت هذه العلاقات من خلال المعارك الطويلة والدامية ضد الأعداء ٠

ومن صفقة الأسلحة فى عام ١٩٥٥ مع المعسكر الاشتراكى ، الى المساعدات الاقتصادية ، ثم مواجهة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، ثم السد العالى ٠٠ الخ ٠ من هذا الالتحام برز دور عبد الناصر كبطل تاريخى يعى بعمق التلاحم بين حركة التحرر الوطنى والحركة الاشتراكية العالمية٠

ثم دعم هذا الدور وأكده ، الوعى بأبعاد الثورة العلمية والتكنولوجية المعاصرة ، والايمان بضرورة اللحاق بمنجزاتها ، بالاستناد الى القوى المتقدمة الوحيدة فى العالم ، الراغبة فى مد شريان هذه الثورة لدول العالم الثالث ، وهى المعسكر الاشتراكى ٠

من هذا التلاحم فى معارك التحرر الوطنى ، ومعارك البناء الاقتصادى ، ومعارك استيعاب التقدم العلمى والتكنولوجى ، تشكلت العلاقات الشامخة بين مصر الثورية والعالم الاشتراكى ٠

ثم يأتى هذا الدور الكبير الذى لعبة عبد الناصر فى أمته العربية ٠ ومن الصعب حصر مقومات هذا الدور عن طريق عرض كمى لأعماله الكثيرة ٠

فالتغيير الذى أحدثه البطل يبرز فى عدد من الظواهر الكيفية٠ تتمثل فى اسهامه الكبير لتحرر



أمته من الاستعمار ، وتحررها من الاحلاف العسكرية ، وربطها بالعالم كقوة كبرى مستقلة، بعد قرون طويلة من العزلة ، والتبعية ، والاحتلال •

وفى مصر بالذات ، يصل البطل للذروة • فهو لم يكتف بقيادته الثورةضد الاستبداد والاستعمار انما قاد فى نفس الوقت الثورة ضد الاستغلال رافعا الشعارات النبيلة للاشتراكية كحتمية تاريخية ، وكضرورة ثورية لتحقيق أمانى الجماهير فى العدالة الاجتماعية . « **ان الحل الاشتراكى لمشكلة التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى مصر - وصولا ثوريا الى التقدم - لم يكن افتراضا قائما على الانتقاء الاختيارى وانما كان الحل الاشتراكى حتمية تاريخية فرضها الواقع وفرضتها الآمال العريضة للجماهر كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم فى النصف الثانى من القرن العشرين •**

بصمات حاسمة

هذه المعالم السابقة تستهدف ابراز حقيقة رئيسية : **الأثر الكبير لعبد الناصر يتجاوز حدود وطنه وأمته •**

ومن هنا تبرز عبقريته • فتاريخ هذه الفترة من العالم يحمل فى طياته بصمات عميقة نادرة •

فماذا يقدم هذا النموذج الفريد للمؤرخين وفلاسفة التاريخ من دروس ؟

فى اعتقادى أن هناك اضافات ثمينة يضيفها البطل عبد الناصر لمفهوم البطل فى التاريخ •

التاريخ ليس مجرد حركة دائمة لا تتوقف ، تجرى لغايات مرسومة سلفا •

وليس التاريخ مجموعة من المصادفات البعيدة عن ضرورات التطور والتقدم فى هذه المرحلة أو تلك من تاريخ العالم •

والتاريخ لا يصنعه الافراد وحدهم• ولا تصنعه الحتميات الصارمة القادرة وحدها على تحديد اتجاهه ، أو أحداثه ، بتوقيت حاسم مهما خلى المسرح من البطل •

كل هذه الافتراضات لا تقف على قدميها أمام ظاهرة عبد الناصر كبطل تاريخى •

هناك مجموعة من العوامل والشروط لابد من توفيرها حتى **تتحول امكانيات التحول التاريخى الى حقيقة واقعية •**

لا بد **أولا** من وجود ظروف **اجتماعية تبلغ حد الرفض الكامل للجماهير فى استمرار النظام القديم •**

ولا بد **ثانيا** من توفير **شروط الأزمة الثورية الشاملة ، عن طريق احساس الحكام القدامى باستحالة استمرار حكمهم بالوسائل التقليدية •**

ولا بد **ثالثا** من وجود **التنظيم القادر على الاستفادة من هذه الظروف ، وتفجير تناقضاتها الرئيسية ، عن طريق التمهيد للثورة •**

ولا بد **رابعا** من **وجود القيادة الواعية بهذه الظروف ، وباتجاه حركة التاريخ الصاعدة الى الامام واستيعاب هذه الحقائق فى اتجاه الثورة•**

ولا بد **خامسا** من **تمتع هذه الشخصية القيادية بصفات تمكنها من اختيار طريقها بحسم ، والتصدى لكل العقبات والتحديات •**

من هذه المعالم كلها تخرج شخصية البطل فى التاريخ • وكان جمال عبد الناصر من أروع أمثلة هذه الحقيقة •

وعندما نتذكر مواجهة البطل لظروف مصر الصعبة خلال الاعوام الاولى من الثورة ، وقدرته على التمسك باتجاهه وسط أحلك أيام الظلام ، نستطيع تبيان مكوناته الشخصية •

وعندما نتذكر ظروف العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، وصيحته القتالية المتجاوبة مع الجماهير ، نتلمس صفة جديدة من هذا التكوين •

وحين نتأمل من جديد اجتيازه لمحنة الانفصال الرجعى فى سوريا عام ١٩٦١ ، تومض اشراقة جديدة •

أما موقف البطل بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ، وقدرته على الانتقال من الهزيمة للاستعداد للنصر فهو يبرز سمات أكثر عمقا فى هذه الشخصية •

وفى كل هذه الظروف ، فى غمار انتصاراته أو هزائمه ، كان دائما يحس بالجماهير ، بنبضها وطاقاتها ، وبقدرات هذه الجماهير على الافلات من المحنة الى الانطلاق •

وكما قلت من قبل ، ليس هذا المقال تأريخا ، أو تقييما لدور عبد الناصر فى التاريخ الحديث ، فتلك مهمة كبيرة لا أملك التصدى لها •

انها مجرد علامات سريعة ، لبعض سمات هذا البطل ، فى علاقتها بظروفها الوطنية ، والقومية، والعالمية ، عرضتها من خلال منهج يؤمن بالتفاعل الحى بين ضرورات التطور التاريخى ، وبروز القيادة القادرة على التعبير عنها •

مصطفى طيبه

جمال عبد الناصر .. زعيما

كمال رستم



العظماء من أمثال الزعيم الرائد جمال عبد الناصر لا تجود بهم الامم والشعوب كل يوم ولكنهم يظهرون فى فترات متباعدة لاداء ادوارهم المقدوره لهم ثم تنطوى صفحتهم ليصبحوا بعد ذلك حديث الاجيال المقبله !

وليس من الضرورى ان يكونوا قد اتموا رسالتهم التى جاءوا لا بلاغها والتبشير بها ، بل يكفى ان يضعوا العلامات على الطريق لتستهدى بها الانسانية فى مسيرتها نحو تحقيق الاهداف العليا التى جاءوا من اجلها ٠

ولكن جمال عبد الناصر لم يقف عند حد ابلاغ الرسالة والتبشير بها ٠٠ حقا كان عمره قصيرا ولكن حياته كانت خصبة حافلة ، تخللتها احداث جسام تردد صداها وانعكست آثارها على العالم اجمع ، وغادر دنيانا الفانيه بعد ان قطع شوطا بل اشواطا بعيدة فى طريق النضال من أجل تحرير شعبه وكل الشعوب المناضلة فى افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية بل وفى كل ركن من اركان المعمورة انبعث منه صوت يدعو الى الحق والحرية والتقدم والسلام القائم على العدل ٠

وهذا المقال لن يبحث فى الانجازات الضخمة التى قام بها جمال عبد الناصر على المستويين المحلى والعالمى فليس هنا مجال تعداد هذه الانجازات ، ولكنه سيقتصر فقط على تقديم محاولة تستهدف التعرف على ظاهرة زعامة جمال عبد الناصر فى ضوء تقسيمات الزعامة التى وضعها علماء علم النفس الاجتماعى لنرى هل تندرج زعامة عبد الناصر تحت واحد من هذه التقسيمات أم انها تتميز بخصائص ذاتية وظروف موضوعية تشكلت منها تركيبة خاصة جعلتها تند عن هذه التقسيمات بتفردها واعجازها ٠

تعريف الزعامة :

يعرف **برنارد . م . باس** الزعامة بأنها نوع من التفاعل الذى يحدث بين الشعب فأية محاولة من عضو الجماعة لا تستهدف تغيير سلوك (ويتضمن هذا السلوك الاتجاهات والقيم والمشاعر) وأحد أو أكثر من أعضاء الجماعة هى محاولة للزعامة ولا تقتصر الزعامة على مجرد المحاولة، بل على المدى الذى بلغه التغيير المقصود. فأى عضو فى الجماعة يمكنه ان يقوم بدور الزعامة فى أى موقف . وبالرغم من ان أى شخص يستطيع ان يؤثر فى الجماعة بنجاح يمكن ان يوصف بانه يمارس نوعا من الزعامة فان هذا النوع من التأثير يحدث خلال بنية النظام الاجتماعى . فاذا استمر سلوك الجماعة كما كان من قبل فان ذلك يعنى أن النظام يتميز بخاصية الثبات والدوام لفترة من الزمن . (١)

ويرى **دانييل كاتز ، وروبرت . ل . كاهن** أن اصطلاح الزعامة ينطوى على ثلاثة معان كبيرة : خاصية وضع ، سمات شخص ، ونوع سلوك . وهذه المعانى الثلاثة تستخدم معا بمعنى أنها تستخدم للدلالة على شخص يمتلك صفات معينة ويشغل مركزا معينا ويتصرف بطرق معينة . (٢)

ومن جهة أخرى يعرف **بول بيجورز**(٣) الزعامة بأنها عملية أثارة متبادلة، تحكم النشاط الانسانى الذى يتابع قضية عامة عن طريق التفاعل الناجح للاختلافات الفردية المناسبة، الا أن هذا التعريف يؤدى الى المحصلة التالية وهى أن الزعيم هو أى فرد تساعد أفكاره على تحديد الاتجاه نحو الاهداف المشتركة للجماعة وهذا .. يمكن قوله على النحو التالى : الفرد هو زعيم فى أى موقف اجتماعى تؤثر فيه أفكاره وأعماله على أفكار وسلوك الآخرين . وهذا المعنى يقلل من تأكيد دور الزعيم بينما يؤكد دور الزعامة .

والجماعة الديموقراطية فى أعلى مراتب تطورها لا تتكثف الزعامة فيها بل تنتشر بين أعضائها وكلما عظمت درجة الانتشار أزداد تأثير الجماعة وازدادت ديموقراطيتها .

فاذا كانت الزعامة هى كما قلنا عملية تأثير فى الناس عن طريق الأفكار فمعنى ذلك أنه لن تكون هناك نهاية لعدد الزعماء الذين تتمخض عنهم الجماعة، ومثل هذا النوع من الزعامة لا يكون عملا خارقا يستطيعه فرد ويقصر عنه آخر . انه سلوك يتعلم ويستطيع أى فرد أن يتقنه بالدراسة الصحيحة والتطبيق السليم .

والأفراد فى الجماعة يختلفون عطاء وتأثيرا : فبعض الافراد يعطون الجماعة قدرا من أنشطتهم ومهاراتهم أكثر من غيرهم ، كما أن البعض أكثر تأثيرا وفعالية . (٤)

ومنذ فجر التاريخ المدون ، والزعامة تستأثر باهتمام المؤرخين وهم يؤكدون الدور الذى تلعبه فى شئون الناس وفى مجرى التاريخ ، فالأبطال العظام والسياسيون الدهاة ورجال الدولة الكبار، كل هؤلاء يمثلون نمطا وآخر من أنماط الزعامة وهذه النظرة تنطوى على المبالغة فى تقدير الدور الذى يلعبه الزعيم الفرد فى الجماعة بينما هناك وجهات نظر أخرى يكشف عنها تاريخ البحث فى الزعامة . فمن المباحث الهامة فى هذا السبيل البحث الذى يعتمد على التفريق بين الزعماء Leaders وغير الزعماء Non-leaders والبحث الذى يتناول الأفعال التى تؤدى الى تحقيق أهداف الجماعة أو الى تماسكها وتقويتها. وهناك البحث الذى يستهدف التعرف على تأثيرات الموقف وتكوين الجماعة على سلوك الزعامة ، ومن هذا الخط أتجه البحث الى العناصر البناءة للزعامة .

والمعتقد الآن أن ثمة أشكالا لها صفة الدوام النسبى لتفاعل الجماعة تنمو وتمد الجماعة بسياق تمارس من خلاله الزعامة ، أما النظرة المتطورة للزعامة فهى تلك التى تضع التأكيد على العلاقة بين الزعيم والتابع ، والتى ترى أن سلوك الزعيم يعتمد على السلوك المكمل للأتباع بينما ترى بعض الدراسات المعاصرة فى الزعامة أنها تعيين لأدوارها التى ينهض بها بعض الأفراد من الجماعة. وهذه النظرة للزعامة يمكن تفسيرها فى ضوء نظرية التبادل التى تحلل عملية الزعامة على أساس « المكافأة والثمن » للزعماء والاتباع .

أن القول بأن سلوك الجماعة ينبع من الصفات الشخصية للزعيم لا يعطى اهتماما كافيا لمعطيات بنية الجماعة وموقفها بالنسبة الى سلوكها . والذين يفسرون الزعامة فى ضوء الأفعال التى تؤدى الى تحقيق أهداف الجماعة أو تماسكها وتقويتها يحددون من الأفعال التى تعمل على تحقيق الاهداف : وضع اقتراحات العمل ــ تقييم التحرك نحو الهدف ــ منع الأنشطة التى لا صلة لها بالهدف ــ تقديم الحلول الفعالة لتحقيق

(١) Henry Clay Lindgreen : An Intr. To Social Fsychology.

(٢) المرجع السابق .

(٣) Faul Pigors : Leadership or Domination.

(٤) Secord & Backman : Social Psychology.

الهدف • أما الأفعال التى تعمل على تماسك الجماعة وتقويتها فتتضمن : تشجيع أفراد الجماعة – أطلاق التوتر – أتاحة الفرصة لكل فرد لأن يعبر عن نفسه •

والجماعة الديموقراطية تنجح اذا ما أعطى الشعب الحقائق الضرورية التى تمكنه من اتخاذ القرارات ، ومثل هذا الشعب يكون فى وضع أفضل بكثير من وضع الشعب الذى تحبس عنه الحقائق، الا أنه ها هنا تكمن نقطة الضعف، ففى أغلب الأحيان تتخذ القرارات بطريقة أنفعالية ، واذا كانت الجماعة الديموقراطية ترى أن كل عضو فيها هو قائد ، أو يمكن أن يكون قائدا فأنه يتعين عليه بالتالى أن يزود نفسه بالمعلومات التى تتعلق بمشاكل الجماعة • واذا كان مطلوبا منه أن يتخذ القرارات الذكية وأن يقدم اقتراحات فعالة للعمل تتحقق معها زعامته أو قيادته للجماعة فانه يجب أن يتقبل المسئولية ، وهذه تستدعى بالضرورة المعرفة: معرفة الجماعة وأهدافها ومعرفة الوسائل المختلفة التى يمكن بها وعن طريقها التعرف على الأهداف والالمام الشامل بالمساحة التى تتحرك من فوقها الجماعة ، ومن هنا تتضح العلاقة الوثيقة بين الديموقراطية والتعليم • (٥) ومن السهل جدا أن ينسب الى الزعيم أو القائد كل من أخطاء الجماعة وفشلها فى الوقت الذى يصدر فيه النجاح أو الخطأ عن الجماعة ذاتها • والكثيرون يعتقدون أن الزعيم أو القائد يطرح شخصيته على الجماعة ، ولكن فى أحيان كثيرة يكون العكس هو الصحيح • وأسطورة الزعيم الذى « يولد زعيما » أسطورة عفا عليها الزمن وترفضها المباحث الحديثة لعلم النفس الاجتماعى ، وقد عمرت هذه الاسطورة طويلا بسبب الوراثة وبسبب الحالات الكثيرة التى يخلف فيها الابناء والآباء فى الزعامة ، يضاف الى ذلك أن هؤلاء الأبناء كانوا يتدربون على الزعامة منذ بواكير أيامهم ، فلم يكن من قبيل الصدفة مثلا أن أنتقل أرسطو الى مقدونيا ليقوم بتعليم الأسكندر الشاب ، كذلك لانستطيع أن نغفل عاملا هاما كان له أكبر الأثر فى استدامة الزعامة فى أفراد بعينهم وهذا العامل هو الثقافة التى كانت وقفا على أفراد قلائل اتحصرت الزعامة فيهم • (٦)

اما نظرية « **الرجل العظيم** » التى بلغت أوج الذيوع والانتشار على يد كارلايل فى القرن التاسع عشر ، فقد كان فريزر قد قال بها فى « الغصن

(٥) Secord & Backman : Social Psychology.

(٦) Paul Pigors : Leadership or Domination.

الذهبى » عند كلامه على الزعماء المستبدين الذين كان يرى ظهورهم ضرورة ملحة يقتضيها الخروج من حالة البداوة الى حالة الحضارة ، ومن هنا امتلأ التاريخ بقصص « **الزعيم العسكرى** » – الذى يمتلك القوة والتأثير للاصلاحات المدنية والاقتصادية ، وهذه النظرية « نظرية الرجل العظيم » لم يناقشها المؤرخون الا مؤخرا حيث بدءوا يناقشون فكرة أن الزعماء قد يظهرون بطريقة أوتوماتيكيه استجابة لقوى بالغة التعقيد يعجز الانسان عن التحكم فيها • وحتى توينبى المدافع الأكبر عن فكرة تفاعل القوى فى التاريخ لم يتردد فى قبول فكرة فريزر •

أنماط الزعامة :

يختلف علماء علم النفس الاجتماعى فى تصنيفاتهم للزعماء والقادة بحيث نجد ان هذه التصنيفات تضيق عند البعض بحيث يكادون يحصرونها فى نمطين عامين أو ثلاثة ، بينما نجد ان هذه التصنيفات تتسع عند البعض الآخر بحيث تندرج تحتها عشرة أنماط على نحو ما سنشير اليه فى السطور التالية :

يعتمد سيكورد وباكمان (٧) فى تصنيفهما للزعماء والقادة على الأدوار التى يقومون بها ، فمن الأفراد من يمتلكون القدرة على الاتصال أخذا وعطاء بينهم وبين الجماعة التى يعيشون بين ظهرانيها ، وهؤلاء الافراد هم الذين يقدمون الاقتراحات والمعلومات والرأى • ومن الأفراد من يقتصر دورهم على أعطاء الأفكار وبذل أقصى ما لديهم من قوة فى ادارة النقاش وتوجيهه • هذان النمطان من الزعماء يعرف أولهما باسم زعيم العمل Task Leader ويعرف الثانى باسم الزعيم الاجتماعى الانفعالى Social-emotional leader الأول يقود الجماعة نحو الحل والثانى يرفع من روحها المعنوية ويحررها من التوتر عندما تتأزم الأمور • وزعيم العمل يحتل مكانة عالية فى مجال المبادرة والاستقبال والارشاد ولكنه لا يكون عادة محبوبا بعكس الزعيم الاجتماعى الانفعالى الذى تنطوى قلوب الجماعة على الحب الكبير له • ان زعيم العمل يرضى حاجات الجماعة الضرورية لاتمام العمل ولكنه يستثير عداءهم له بسبب نفوذه وحديثه الطويل عن العمل وضرورة التركيز عليه وكلما ازداد ضربه على هذا الوتر ازداد التناقض الوجدانى الذى تستشعره الجماعة له وبالتالى فهم يحولون بعض حبهم له الى شخص آخر أقل منه نشاطا وحديثا وأكثر منه تعبيرا عن

(٧) Secord & Backman : Social Psychology.

مشاعره السلبية . أما حب الجماعة للزعيم أو القائد الانفعالي الاجتماعي فيرجع إلى أنه يمثل القيم والاتجاهات التي أقلقتها أو هددتها أو كبتتها احتياجات العمل .

أما برنارد . م . باس (٨) فهو يقدم تصنيفه للحديث عن المركز الذي يشغله الزعيم أو القائد، وعنده أن هذا المركز كلما كان قويا مؤثرا في سلوكنا ، وهذا طبيعي طالما أن وضعنا منهم هو وضع التابع أو المرءوس . والزعماء أيضا قد ونحن عادة نتوقع من الزعماء أن يحاولوا التأثير أنعكست آثاره على الزعيم فيزداد قوة وتأثيرا ، يتجاوز دورهم دور التأثير في الجماعة الى الاتصال بالجماعات الأخرى لمصلحة الجماعة ، وقد يعملون على أن يكونوا الوسائل التي عن طريقها تصل المعلومات الى الجماعة ، أو قد يرضون حاجات الجماعة المتطلعة الى مثال الأب ومنابع الطمأنينة ، باس عشرة أنماط للقيادة أو الزعامة هي :

١ ـ الزعيم أو القائد الاداري
٢ ـ الزعيم أو القائد البيروقراطي
٣ ـ الزعيم أو القائد صانع السياسة
٤ ـ الزعيم أو القائد الخبير
٥ ـ الزعيم أو القائد كهدف للعداء
٦ ـ الزعيم الأيديولوجي
٧ ـ الزعيم الكاريسمي
٨ ـ الزعيم السياسي
٩ ـ الزعيم الرمزي
١٠ ـ الزعيم الذي يمثل الوالدين

ولكننا سنقتصر حديثنا فقط على الانماط الخمسة الأخيرة ، وهي التي تخدم غرضنا .

١ ـ الزعيم الايديولوجي :

وهذا الزعيم متخصص في الافكار والعقائد أكثر منه في ميدان من ميادين التقنية ، ويهتم الايديولوجي بالنظريات الاساسية التي يستدل عليها بالأشكال المختلفة من السلوك الاجتماعي . ومن الزعماء الايديولوجيين : النبي محمد ، والقديس أوغسطين ولوثر وجاليليو وكارل ماركس وهن أمثلة للأيديولوجيين ذوي التأثير الكبير الذين غيرت تعاليمهم حياة ملايين البشر ، ومعظم الزعماء أيديولوجيون الى حد ما من حيث أن محاولاتهم تعكس نموذجا من العقائد لما يجب ان تكون عليه الاهداف وكيفية بلوغها .

٢ ـ الزعيم الكاريسمي :

كاريسما Charisma لفظة يونانية معناها حظوة أو هبة من الله تمكن صاحبها من امتلاك قوة

(٨) Henry Clay Lindgreen: An Intr. to Social Psychology.

خاصة ازاء تابعيه ـ القدرة على الشفاء أو القيام بالمعجزات مثلا ـ وهذا الاصطلاح أدخله المفكر السياسي الاجتماعي الالماني ماكس فيبر (٩) . وطبقه على الزعماء ذوي الجاذبية الانفعالية القوية، وعندما تقترن هذه الجاذبية بأيديولوجية ما مثلما هي الحال مع النبي محمد ولوثر والقديس فرانسيس ، فان جاذبيتها تتضاعف وتشد اليها حتى الساخطين ، وفي الماضي كان الزعماء الكاريسميون من رجال الدين أما الآن فقد اصبحوا من رجال السياسة . والزعيم الكاريسمي يستطيع اليوم ان يبعث في تابعيه حماسا يتجاوز السياسة الى عقيدة راسخة وايمان لا يتزعزع بقواه الخارقة، ويطلق على هؤلاء التابعين اسم (المؤمنون الحقيقيون) ويرجع نجاح هؤلاء الزعماء الى ان تابعيهم يتطلعون الى التطابق معهم .

٣ ـ الزعيم السياسي :

يجسد الزعيم السياسي شيئا من كل انماط الزعامة التي اشرنا اليها : فهو صانع سياسة وكثيرا ما يكون أيديولوجيا ولديه في القليل لمسة من الكاريسما والسياسيون يحصلون على الاهداف لانفسهم ولاصدقائهم وللناس الذين انتخبوهم بأساليب معقدة من المساومة والمتاجرة ، وان كان البعض لا يرضى عن هذه الاساليب الا انه لامندوحة عنها لبلوغ الاهداف .

٤ ـ الزعيم الرمزي :

ان بعدا هاما من أبعاد دور الزعيم يتمثل في قدرته ليس فقط على تمثيل بلده والتحدث باسمه بل أيضا في تمثيل جماعته رمزيا . ان سفير تايلاند مثلا يعامل باحترام لانه يمثل شعب تايلاند . انه « تايلاند » في البلد الذي يمثل بلاده فيها .

٥ ـ الزعيم الذي يمثل الوالدين :

ان أقدم جماعة يتعامل معها أكثرنا هي الأسرة، والزعماء الأوائل الذين نعرفهم هم آباؤنا، وعندما نذهب الى المدرسة يلعب المدرسون دور الأب ، وهناك ميل خصوصا في سني الطفولة والمراهقة الى أن ننظر الى كل ممثلي السلطة بطريقة تشبه الى حد ما نظرتنا الى آبائنا ، وهذا الميل قد

(٩) Max Weber: The Theory of Social and economic organization, trans. by Handerson and Pearsons.

ويرى ماكس فيبر في كتابه سابق الذكر ان الكاريسما تشير الى صفة خاصة في الشخص يتميز بها عن بقية الناس العاديين ويعامل كما لو كان موهوبا بقوى او صفات خارقة او تفوق قدرة الانسان او في القليل كما لو كان غير عادي .

يصحبنا خلال رحلة حياتنا فيتخذ الزعماء وغيرهم من ذوى السلطة والنفوذ بعض السمات الأبوية ، وعلاوة على ذلك فان أدوار الزعماء تشبه أدوار الآباء. أنهم يكافئون ويعاقبون وينذرون ويعنفون ويشجعون ويوجهون الخ .. وهذه كلها أجزاء من الدور الذى يقوم به الوالدان خصوصا الأب، وهناك نوعان من الزعماء الذين يمثلون الوالدين: أحدهما هو المسيطر المانع المعاقب الآمر وهو ما يطلق عليه اسم « الزعيم الذى يمثل الأب » . والثانى هو المطعم والآوى والمقدر والمعين والمطمئن وهو ما نطلق عليه اسم «الزعيم الذى يمثل الأم» . ومعظم الزعماء بغض النظر عن جنسهم ذكورا كانوا أم أناثا يجتمع فيهم كلا النوعين .

نمط زعامة عبد الناصر :

أين اذن نمط زعامة عبد الناصر من الانماط السابقة ؟

يقول جون . س . كامبل (١٠) : « ان جمال عبد الناصر هو زعيم العرب .... وانه ليس هناك أدنى شك فى قدرته الخارقة على الاستحواذ على عقول وقلوب الجماهير العربية سواء كانت هذه الجماهير هى جماهير العمال والفلاحين أو الطبقة الوسطى أو المثقفين أو أنصاف المثقفين أو العامة . أما نجاحه فمرده فى رأيه الى أن معاركه كلها كانت تعبيرا عن الرغبات الانفعالية العميقة للعرب والتى تتمثل فى تأكيد اعتزازهم بأنفسهم وشعورهم بالوحدة وحقهم فى المساواة وفى السيادة وفى مكانهم تحت الشمس وفى الانتقام لأنفسهم ممن أهانوهم (يقصد الصهاينة الاسرائيليين) ولاسترداد الارض السليبه . وكان التاثير الكلى لذلك خلق موجة قوية من الرأى العام العربى الذى يقف خلف زعيم واحد لم يعرف له العرب مثيلا منذ أيام صلاح الدين . »

اما وولتر لاكير (١١) فبالرغم من حقده الأسود على جمال عبد الناصر وانجازاته الباهرة فانه يعجز عن تفسير شعبية جمال عبد الناصر والتفاف الجماهير حوله واصرارها على التمسك بقيادته هذا التمسك الذىظهر بشكل لم يعرف له العالم مثيلا فى يومى ٩ ، ١٠ يونيو ، ويضطر أخيرا الى القول بأن عبد الناصر «هو الزعيم الكاريسمى الوحيد فى الشرق الاوسط الذى لم تتزعزع مكانته بالهزيمة» .

أما كل من كتبوا عن جمال عبد الناصر من الأجانب - مؤيدين أو معارضين - فانهم يجمعون على أنه زعيم مخلص مثابر ، صلب الرأى أمام ما يعتقد أنه حق فضلا عن امتيازه بشخصية ساحرة قوية جذابة ، بل أن احدهم ذهب الى حد القول بأنه يستطيع أن يجلس الى جمال عبد الناصر ويستمع اليه الى ساعة متأخرة من الليل دون أن يتسلل اليه الملل .

ونقول : ان جمال عبد الناصر هو الزعيم المتعدد الجوانب الذى خرج من تربة مصر وامتدت جذوره فيها الى أعماق بعيدة ، والحت على ذهنه منذ بواكر أيامه فكرة القضاء على أقانيم القهر والتخلف والاحتلال والاقطاع والاحتكار وسيطرة رأس المال .. نفس القضايا التى كانت تشغل اذهان المواطنين وتؤرقهم فى ذلك الوقت . وهنا تجدر الاشارة الى أن الشعب الواقع فى هوة اليأس كان يتطلع الى الزعيم - أى زعيم - يحقق له هذه الأهداف التى كانت تبدو له أشبه بالمعجزات والتى تمت فعلا على يدى عبد الناصر ثم توالت بعد ذلك الانجازات أو «المعجزات» التى حققها للشعب فكان بهذه المثابة وطبقا لتعريف فيبر زعيما كاريسميا ، ويؤكد هذا الرأى تأييد الشعب له ومظاهرته اياه فى كل القرارات التى كان يتخذها حتى وان اقتضت من الشعب تقديم التضحيات الغالية (بالروح بالدم نفديك يا جمال) وتطلع الشعب له كملاذ أول وأخير يلتمس عنده الرأى والنصيحة والتوجيه والارشاد ، ولكن جمال عبد الناصر بشر كذلك بمبادىء كثيرة منها :

١ - القومية العربية
٢ - الحياد الايجابى وعدم الانحياز
٣ - الاشتراكية العلمية

ثم قدم كتابه الخالد « الميثاق » دليلا للعمل الوطنى، فكان من هذه الوجهة زعيما أيديولوجيا .

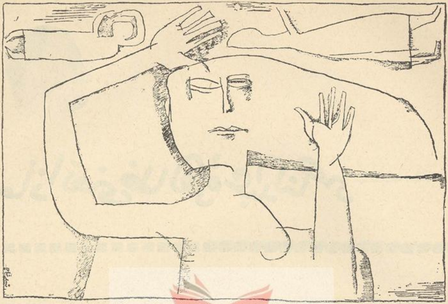
وكان اسم جمال عبد الناصر يعنى فى كل مكان : عدو الامبريالية - رائد القومية العربية - المدافع عن الشعوب المقهورة المحبة للتقدم والسلام القائم على العدل ، فكان من هذه الوجهة زعيما رمزيا .

وكان عبد الناصر طبقا لمقتضيات الأمور كثيرا ما يعد وينذر ويشجع ويعنف ويكافىء ويعاقب ، أما مواقف كرمه وعطفه وحبه وحدبه فهى أكثر من أن تحصى فكان من هذه الوجهة زعيما ممثلا للوالدين .

وكان عبد الناصر خبيرا بالسياسة واساليبها الملتوية وكان يكره هذه الأساليب ويمقتها ولكنه

(١٠) John C. Campbell: Defence of the Middle East.

(١١) Walter Laqueur: The struggle for the Middle East.



بوصفه رجل دولة وقائدا فى وقت معا كان مضطرا للتعامل مع هؤلاء السياسيين وفى بعض الاحيان بنفس عملتهم ، وكانت خبطاته السياسية من مثل عقده لصفقة الاسلحة التشيكوسلوفاكية وتأميمه لقناة السويس واتفاقه مع الاتحاد السوفيتى على تمويل السد العالى ... الخ من أكبر وأمهر الخبطات السياسية باعتراف الأعداء أنفسهم، فكان من هذه الوجهة زعيما سياسيا .

وكان عبد الناصر يرفع من الروح المعنوية لجماهير الشعب ويحررها من توتراتها بما كان يبذل لها من نفسه ومن عطائه فكان من هذه الوجهة زعيما اجتماعيا انفعاليا

لذلك يتبين أن زعامة جمال عبد الناصر قد استوعبت أغلب ، ان لم يكن كل ، انماط الزعامة التى عرفها علم النفس الاجتماعى .

صحيح أن الزعيم السياسى كما قدمنا فيه بعض المقومات التى تصنع الزعيم صانع السياسة والزعيم الايديولوجى كما أن به لمسة من الكاريسما،وصحيح أن واحدا من علماء علم النفس الاجتماعى هو جورج • م • بجل يقرر أنه لاتوجد أنماط خالصة من الزعامة ويستدل على ذلك بالقصة التالية : فى صيف عام ١٨٣٢ قامت ثورة على شاطىء المسيسبى عرفت باسم حرب «الصقر الاسود» وطبقا للعرف المألوف فى ذلك الوقت تألفت جماعة من المتطوعين وأجرت انتخابا لاختيار قائدها وقد أصبح هذا الشاب بهذه المثابة زعيما ديموقراطيا، ولكن بفضل مساندة المؤسسة العسكرية له أصبح زعيما بيروقراطيا وسواء أدرك جنود هذه الجماعة فى ذلك الوقت القوة الشخصية لهذا الرجل أم لم يدركوها فقد أصبح فيما بعد أحد كبار الزعماء الكاريسميين فى التاريخ الامريكى هذا الزعيم هو «ابراهام لنكولن » .

وصحيح أن عبد الناصر كان يرى أن الشعب هو المعلم وهو الرائد .

كل هذا صحيح ، لكن تبقى مع ذلك هذه الظاهرة المعجزة لزعامة عبد الناصر التى فرضت نفسها على المستويين المحلى والعالمى والتى جمعت فى تضاعيفها بطريقة متوازنة كل خصائص الأنماط الأخرى للزعامة بصورة لم تجتمع من قبل فى زعيم واحد، الأمر الذى يجعل من جمال عبد الناصر زعيما نسيج وحده بين زعماء العالم .

كمال رستم



ماذا تعنى ظاهرة عبد الناصر

يوم الخميس الحزين .. وعبر نهر من الدموع، اهتز قلب مصر .. كانت المرة الثانية ، المرة الاولى قبل خمسة وعشرين قرنا ، حين ودعت مصر آخر حكامها الوطنيين .. لست أدري ماذا أقول شعور عميق بالأسى ، واليتم يرقد فى العيون .. ان موت هذا الانسان ـ أقصد رحيله لأننى لا أصدق انه مات ـ يحمل فى طياته معانى كثيرة ، ولا تستطيع الكلمات ـ كل الكلمات ـ أن تعبر عن هذه المعانى ، ولن يكون حديثى هنا سوى مدخل يحاول أن يتلمس الطريق ـ بعض الطريق ـ اليها .

عجيب أمر هذا الانسان ، لقد وصل الى السلطة والثورة حين تصل الى السلطة تفقد الكثير من جلالها ومن بريقها فى نفوس الجماهير ، انها ترتبط بعدد من السلبيات التى دائما ماتصاحب مراحل التحول فى تاريخ الشعوب ، فى عهده أيضا حدثت هزيمة محزنة ، جعلت القيم تختلط فى أذهان الكثيرين .. فما معنى هذا كله ،مامعنى أن يخرج مليون من البسطاء الطيبين الذين لا يملكون غير دموعهم ، كى يودعوا زعيمهم وحبيبهم وبطلهم هذا الوداع العظيم .. الرهيب فى الوقت نفسه ، ما معنى أن يرددوا جميعهم نشيد « **الوداع** » مثلما رددوا قبل خمسين عاما نشيد « **بلادى** » .

ان هذا المشهد سيظل ماثلا فى وجداننا ، نحكيه لأجيال سوف تأتى بعدنا ، يعرفون كيف يكون حب الوطن ، وكيف تكون الوطنية ، كم هى مصر عظيمة ، وكم كان عبد الناصر عظيما .

●

ما معنى هذا كله .. ما الذى جرى فى مصر ؟

اعتقد ان المدخل لدراسة عبد الناصر ـ ولندع العواطف جانبا ـ يأتى من زاوية انه يمثل الحركة بعد السكون ، أو انه يمثل الكم الذى أصبح بعد احقاب عديدة كيفا ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، اعنى ان عبد الناصر كظاهرة واقعة موضوعيا عنوان على مرحلة جديدة ، بدت طلائعها عند الافق ، أو حين يتصل الخط الابيض بالخط الاسود ، وهى ظاهرة مستمرة ، حتى تكتمل دورة هذه المرحلة .

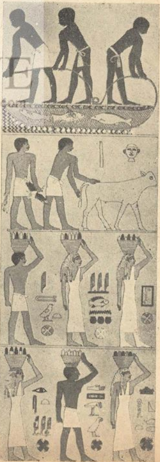
ونحن لن نفهم هذه المرحلة الجديدة ، الا اذا نحن فهمنا المرحلة السابقة لها والتى تستغرق معظم سنوات تاريخنا المترامى ، خلالها تحددت صورة مصر فى أذهان غالبية من كتبوا عنها أو أرخوا لها شرقيون وغربيون ، وهى لا تخرج فى النهاية عن ان مصر شعب من الفلاحين ، يعيش نمط حياة واحدة لا تتغير ، فى أرض استقبلت

عباده كحيلة

أربعين شعبا آخر ، قدموا كي يستعبدوا هذا الشعب · وهي ترتبط عند الرومانسيين بالنخلة والنيل والاهرام ، وتمثل عند آخرين أوضح صورة للاستبداد الشرقي ، ابتداء بهرم خوفو وانتهاء بقناة اسماعيل ؛ تاريخها لا يخرج عن أنه معارك الشارع بين الحكام (الاجانب) ، بينما يغلق الناس محالهم ، ويخفون الى بيوتهم وكان الامر لايعنيهم ·· الخضوع ، السلبية ، النكت ، السخرية ·· لا شيء ، في أوربا عرف الغجر بأنهم مصريون !!

كم هو محزن تاريخ هذا الشعب ، وكم هو مؤلم أيضا !

لست أوافق على هذه الصورة بتفاصيلها ، وان كنت أوافق على بعض ما تتضمنه هذه التفاصيل ، ولكنها شئنا أم لم نشأ صورتنا في الغرب ، أو انها كانت صورتنا الى عهد قريب ، أما أنا فلا أكتب تاريخ مصر ، وانما أريد أن أقول ان هذا التاريخ يتبسط بتبسيط شديد – ورغما عما في التبسيط من مآخذ – له طابع سكوني في معظم مراحله ، أو في المراحل الاخيرة منه على الاقل ، أدى هذا الى الزعم بأن ثمة حتما جغرافيا يحكم مصر ، وأنه لامناص من أن ما سوف يأتي ، سوف يكون قياسا الى ما مضى ·





هذه الصورة تغيرت، اوانها قطعت شوطا كبيرا فى طريق التغيير٠ والتغيير لم يحدث فجاءة، فالجديد ينبت من قلب القديم ، وانما ظلت مصر منذ مطالع القرن الماضى تسعى الى ان تؤكد ذاتها ، وتسعى ايضا الى ان تحقق طموحها فى العصر وحضارة العصر ، وهى فى محاولاتها الشجاعة النبيلة تلك، ظلت تتلقى الضربات من داخلها ومن خارجها، ضربات قاسية عنيفة ، **حتى جاء عبد الناصر نهاية طبيعية وضرورية لنضال هذا الشعب على جميع المستويات ، فقد استطاع أن يفهم نبض العصر لا أن يحسه فحسب ، عرف أيضا كيف يفهم مصر وكيف يعبر عن مصر ، وكيف يخوضان الأعراف معا فى الطريق الى الفردوس ٠**

●

ماذا تعنى ظاهرة عبد الناصر ؟

ان ظاهرة عبد الناصر تعنى بوضوح ان صورة مصر قد تغيرت ، الامر الذى أدهش كثيرين خارج مصر ؛ منذ انتونى ايدن حتى ديزموند ستيوارت، ولعل أول ما يبدو من ملامح الصورة الجديدة ، أن مصر لم تعد مزرعة يديرها دهاقنة المال فى وول ستريت ، ولا دهاقنة السلطة فى قصر الدوبارة وأصبح عبد الناصر هو أول مصرى يحكم مصر منذ غزوة قمبيز ٠٠ كثيرون ينقضون هذه الفرضية ، من حيث أن مصر مصرت حكامها ابتداء بيطلميوس وانتهاء بمحمد على ، وكثيرون أيضا يؤكدون هذه الفرضية ، من حيث ان بيطلميوس كان يستمد الوحى من دلفى، وان محمد على كان يجهل العربية ٠٠ وازاء هذه القضية الخلافية ، يصبح عبد الناصر مصريا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، مصريا حتى النخاع ٠

وتتصل المصرية هنا بالزعامة ، فعبد الناصر أول مصرى بين حكام مصر ، كان فى الوقت نفسه أكبر زعماء مصر ، معيار الزعامة هنا ، مدى المصرية أولا ، ثم مدى التطابق بين الثورة والسلطة ثانيا ، فمن سبقوا عبد الناصر من الزعماء ، لم تكن أصولهم أو أصول بعضهم فلاحية تماما ، أو انه قيلت بصدد أصولهم أشياء ، ثم انهم لم يصلوا الى قمة السلطة فى أدنى تقدير ٠٠ وقمين بالذكر أن افكارهم الطوبائبة كانت بلا شك ستجعل حرارة الثورة عندهم تصطدم بجليد السلطة ، وقد بدا هذا بوضوح ، حين اصطدمت الوزارة الوطنية الاولى سنة ١٩٢٤ بحادثة السردار ، فلم يكن أمامها الا أن تفسح الطريق لأحزاب الاقلية ، ومن الثابت ان اليسار له رأى محدد فى سعد زغلول ٠

وليس ما نقوله هنا نقدا موجها الى هؤلاء الزعماء ، وليس أيضا انتقاصا من اقدارهم ، انما هم عبروا بأمانة عن القيم السائدة فى عصرهم ،

وكانت لهم انجازاتهم الموفقة فى حدود امكانهم ٠٠ هذه الانجازات التى وصلت ما انقطع فى مسيرة النضال المصرى ، حتى عصر عبد الناصر ٠

لن أتحدث بعد هذا عن مظاهر الزعامة عند عبد الناصر ـ عظيمة هى تلك الزعامة ـ ويكفى أن نتذكر يومى ٩ ، ١٠ يونيو ١٩٦٧ ، وتلك الايام الكئيبة التى نعيشها منذ أن نفذ قضاء الله ٠

ان زعامة عبد الناصر نموذج فريد للتوحد بين القائد والشعب ، أو بين الانا والنحن، الواحد فى الكل ، والكل فى الواحد ، بحيث يصعب أن نحدد أين مصر من عبد الناصر ، وأين عبد الناصر من مصر ٠

لم يقف الامر عند حدود البناء الفوقى للمجتمع ولا عند حدود الشكل السياسى له ـ أقصد الدولة ـ فان زعامة عبد الناصر ، قد أعادت تأسيس الحياة المادية لهذا المجتمع فى جوانبه كافة أكاد أقول انها خلقت جغرافيا جديدة لمصر ، ومن الممكن أن نشاهد هذا على نحو مباشر فى جزئيات تحدد ابعاد الصورة (الاشتراكية ٠٠ التصنيع ٠٠ السد العالى) وليس المجال هنا متاحا لحصرها جمعها ، لكنها عموما كفلت وتكفل خلق قيم وأفكار وعادات وسلوك (الاحساس بالزمن مثلا) تجعل المسافة واسعة بين حياة من عاشوا سنة ١٩٠٠ ، وبين حياة من سوف يعيشون سنة ٢٠٠٠ ٠

عبد الناصر بعد هذا أعاد الى مصر وجهها العربى الاصيل ٠٠ وما يتبع هذا من تكاليف أصوات كثيرة ظلت حتى الخمسينيات تدعو الى فصل مصر عن العرب،وهى تجهل ـ او تتجاهل ـ ان الوطنية المصرية لا تتحقق الا من خلال القومية العربية ٠٠ هذه الاصوات أحزنت مفكر القومية العربية ساطع الحصرى،فصرف جزءا كبيرا من طاقته لدفع هذه الدعاوى ٠٠ ولم تتحقق عروبة مصر على المستوى الرسمى الا فى دستور ١٩٥٦ الذى حسم فى النهاية هذه القضية ، وجعلنا جميعا نعيش قضايا العرب ، وجعلهم أيضا يعيشون قضايانا ، وفى سبيل هذا خاض عبد الناصر نضالا عظيما، استغرق الكثير من جهده ووقته واعصابه ، حتى دقائق قبل ان تعصف به يد المنون ٠

ولم يقف عبد الناصر عند حدود العروبة وحدها ، ولا عند حدود الدوائر الثلاث التى تحدث عنها فى « **فلسفة الثورة** » ، وانما تجاوز هذا الى عالم رحب واسع ، فقد تمثل الحقائق الكبيرة فى عصره ، عصر الكتل الدينو صورية عصر جليفر وليليبوت ، عصر من يملكون ومن لايملكون ، فسعى الى ربط مصر بثورات التحرر فى العالم ، وكان احد اقطاب ثلاث ، يمثلون قارات ثلاث ، اسسوا العالم الثالث ٠

لاشك ان هذا كله له تأثيره فى تكوين الانسان المصرى،وفى تكوين مصر بوجه عام ، وسوف يتضح هذا التأثير اكثر فى المستقبل ، حين تؤتى هذه الاعمال ثمارها كاملة ، فلم تعد مصر مفعولا به، وانما أصبحت فاعلا ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة، ولم يعد المصرى انسانا محليا،لايهمه ما يجرى حوله او خارج القرية التى يعيش فيها ، وانما اصبحت لديه اهتمامات ارحب واوسع عربيا ودوليا ، ثم هو قد فرض على العالم ان يحترمه ، مهما كانت التكاليف ، ومهما كان عنف الصراع وضراوته، ومهما اصابنا من نكسات ٠ واصبحت مصر وهى دولة صغيرة محدودة الامكانيات المادية ذات خطر عالى ، بسبب ما لديها من مبادىء وافكار ومثل تدافع وتدعو اليها ، وليس لما لديها من براجماتية ، تصدر عن صالحها وحدها ، دون صوالح الآخرين ٠٠ ثم هى بعد ذلك اثارت انتباه العالم واعجابه ايضا ، ولما تشب بعد عن الطوق، لأن عبد الناصر اصبح رمزا لنضال الشعوب الصغيرة ازاء العصا الغليظة لقوى الماموث الامريكى وطفيلياته التى خلقها فى مناطق عدوانه ٠

هذا ماأضافه عبد الناصر الى مصر ، او هذا ما تعنية ظاهرة عبد الناصر بالنسبة لمصر ، لكن هذه الاضافة او الظاهرة قد لاتعنى شيئا ، اوقد تعنى شيئا واحدا هو دغدغة مشاعر الجماهير ، وخلق النزعات الشوفينية الفاشية عندها ، اذا لم يكن ثمن ما يضيفه عبد الناصر الى العصر

فما الذى اضافه عبد الناصر الى العصر ؟

●

ان قيمة عبد الناصر تتحدد عالميا فى انه أعطى لشعوب العالم الثالث والعالم كله ، المثل فيما يجب أن تكون عليه الثورة ، فلا ثورة بغير تنظير ولكن النظرية من الممكن أن تستمد حياتها من الواقع ٠ والمشاهدان مصر قبل ١٩٥٢ لم تشهد تنظيرا فكريا كالذى شهدته فرنسا قبل ثورتها ، ولا الذى شهدته روسيا يضا قبل ثورتها ، ومع

هذا فانها حققت بعد هذا العام ما عجزت عن ان تحققه فى عشرات من الاعوام ، وتفسير ذلك انها اختارت النظرية من الواقع ، واستفادت فى الوقت نفسه من افكار وتجارب الآخرين ، الامر الذى أثار منذ وقت مبكر اهتمام الكثيرين فى الغرب الاستعمارى ، مثل انتونى ايدن الذى يقرن «فلسفة الثورة» لعبد الناصر « بكفاحى » لهتلر ·· صحيح ان ايدن مغرض ومتعسف من حيث نوعية المقارنة ونتيجتها ، لكنه صادق من حيث حجم التأثير وخطورته ·

لم يرد عبد الناصر – بعد هذا – ان يصبح ٢٣ يوليو انقلابا لاتينيا ، يسعى الى السلطة ، أو فلنقل يسعى الى توزيع الغنائم بين العسكريين والقوى الرجعية ، وانما سعى الى ان يصبح ٢٣ يوليو ثورة تفجر طاقات هذا الشعب ، وتدفعه على الطريق الى عالم جديد شجاع · وهو منذ البداية لم يقف عند حد الثورة الوطنية وحدها ، وانما مزج بين الثورة الوطنية وبين الثورة الاجتماعية ، فيما يعرف بالثورة الدائمة ، بحيث وصف بعض الكتاب الثورة المصرية ، بأنها جمعت بين افضل ما فى الثورة الفرنسية وبين افضل ما فى الثورة الروسية ، فى نموذج يصلح لثورات العالم الثالث ·

كان هذا درسا أعطاه عبد الناصر الى العالم ، واعطته مصر ايضا الى العالم ، دون حاجة الى ان يتم على بحر من الدماء ، على ان هذا كله لم يكن يتحقق لو انصرفت مصر الى همومها الخاصة ، بعيدا عن عواصف السياسة الدولية ، فالحياد (السويسرى) لم يعد ملائما فى عصر توازن الرعب ، واية دولة لن تصير بمنأى عما يمكن ان يجرى حولها من دمار ·· البديل هو الحياد الايجابى (باندونج) الذى نما الى عدم الانحياز (بلغراد) ، ومعناه البعد عن الاستقطاب فى السياسة الدولية ، من حلف الدفاع عن الشرق الاوسط ، الى الحلف الاسلامى ، والسعى فى الوقت نفسه من أجل مد جسور من التفاهم بين العملاقين المتصارعين ، وحل المشاكل الدولية بالطرق السلمية ·

لقد علم عبد الناصر شعوب العالم الثالث كيف تكون شجاعة الثورة،حين حدد فى **السويس** نهاية الاستعمار القديم ، وهو يحدد ايضا فى السويس نهاية الاستعمار الجديد ·· **اليانكى**



شعتاوى



س . الحصرى

اعتى القوى الامبريالية والفاشية فى جميع العصور واكثرها شراسة وصلافة وعدوانا ، ثم هو بعد هذا يلتزم بالحياد ، بل ويزداد تمسكا به واصرارا عليه ·

علمها أيضا كيف تكون حكمة الثورة ، حين تتواءم مع الظروف الموضوعية التى يطرحها الواقع الراهن ، فلا مانع من قبول قرار مجلس الامن ، ولا مانع من قبول المبادرة الامريكية ، دون التنازل عن مواقف مبدئية من قضايا محددة ، وعدم التوانى فى تدعيم قوانا الذاتية مهما كانت التضحيات ·· انه ايضا يبتعد عن الاتجاهات المغامرة ،عن المراهقة اليسارية، وترديد الشعارات الفارغة من المضمون ، ويطرح التناقضات مع النظم والافكار العربية التقليدية جانبا ، من أجل وضع حد أدنى من الظهير العربى والمساندة العربية ويسعى الى التوفيق بين الأطراف المتنازعة فى الجبهة الشرقية ، حتى يتسنى تأمين نضال المقاومة الفلسطينية ، لا ان نزايد على هذه المقاومة ، فيتوه عملها فى دروب فرعية ، تؤدى الى ضربها وجعلها فى موقف لا يختلف عن موقفها سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٧ ·

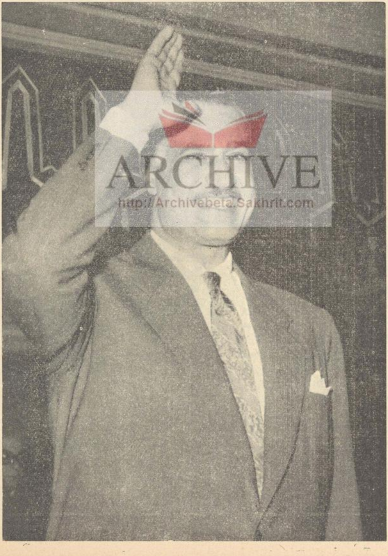
أخيرا علمها عبد الناصر كيف يكون التلاحم بين الشعب والقائد ، كيف تحمل مسئولية ما حدث خلال الايام الستة السوداء من يونيو الحزين ، واحتمل فى الوقت نفسه آلامه فى صمت، ترك المرض يسرى فى اعصائه ، منعنا ان نشاركه آلامه ، وهو الذى عودنا ان يشاركنا آلامنا ·

لقد اضاف عبد الناصر الى مصره ، وأضاف ايضا الى عصره فاكتسب فى النهاية حب الاصدقاء واحترام الاعداء ، وتلك سمة الزعامة ، وعظمة الزعامة معا ، وبين أصدقاء عبد الناصر واعداء عبد الناصر ، يبقى عبد الناصر أكبر زعيم مصرى ، وربما اول زعيم مصرى ايضا ، والارض لا تنجب زعماء كل يوم ، لكنها لا تعقم أيضا بعد انجابهم ، ما دامت توجد مصر ، وما دام يوجد مصريون · واذا كان عبد الناصر قد غاب عنا بشخصه فان الناصرية باقية ، وهى بالتحديد وبتبسيط شديد مجموعة من الافكار والاعمال ، هى بمثابة مرشد على طريق النضال والحياة والمستقبل ·· اما خلفاء عبد الناصر، فهم استمرار لعبد الناصر وبقاء له ·



عبادة كحيله

من فيصل الأول
إلى جمال عبد الناصر



تأليف : د. أنيس صايغ
عرض : تحسين عبد الحي

منذ أيام رحل عنا مناضلنا التاريخي ، **جمال عبد الناصر** ، رحل عنا الى حيث يقابل ربه ، الذى وهبه لأمته ، وأخذه منها لارادة وحكمة لا يعلمها الا هو سبحانه وتعالى • ذهب عنا **عبد الناصر** مشفوعا بدعاء الملايين التى أحبته ، والتفت حوله تنصره وتشد من أزره فى كل معاركه ومحاولاته الايجابية من أجل مستقبل أكثر استقرارا وأمنا للجماهير العربية المقهورة ، فى كل أرض ، وتحت أى علم دمعت ملايين المآقى بحرية كاملة ، وبقدرة فائقة على حزن حقيقى • عندما ودعت بطلهـا الى مثواه الاخير • ومهما قيل ويقال عن المغفور له **المناضل جمال عبد الناصر**، فان التقييم الحقيقى للدور الهام والخطير الذى قام به مناضلنا العربى الراحل ، سوف لا يتسق مع الحقيقة الا من خلال الرؤيا الشاملة للأمور ، تلك الرؤيا التى يجب أن تضع فى اعتبارها باستمرار تلك الظروف والأوضاع المتناقضة التى كانت تمر بها أمتنا العربية منذ البداية التى بدأ منها ومعها مناضلنا الراحل •

ولسوف يقول التاريخ يوما ، ولعدة أجيال قادمة أنه ، وعلى هذه الارض العربية الجريحة ، بدأ **جمال عبد الناصر** عملا جادا وعظيما ، وهو ان لم يستطع أن يكمله فى حياته ، فقد وضع على الاقل الاسس النفسية والمعنوية فى قلب ووجدان الأمة العربية ، تلك الاسس التى استطاعت أن تحافظ على الصروح المادية الهائلة التى أسسها فى حياته ، وتطورت بعد ذلك لتخدم الهدف النهائى الذى عاش من أجله عبد الناصر •

ولن يغفل التاريخ أبدا عن ذكر حقيقة أساسية وهامة ، وهى أن عبد الناصر استطاع وفى ظروف صعبة للغاية أن يؤكد لمعاصريه ، **أن ميزانية**

التاريخ لا تتكون من مجموع الكلمات التى ترن فى الهواء ، أو التى تملأ الصفحات استعراضا للقدرات الذاتية ، ولكنها كانت من أفكار وأعمال لها كثافة الواقع ووزنه •

وعن مناضلنا الراحل ، كتب الدكتور أنيس صايغ ، كتابه ـ من فيصل الأول الى **جمال عبد الناصر** ـ الذى صدر فى منتصف عام ١٩٦٦ والذى يتحدث فيه عن دور مناضلنا العظيم ، وارتباط ذلك الدور بأهداف شعبنا العربى ومؤلف الكتاب ، الدكتور أنيس صايغ ، أحد اولئك الذين يعدون بالملايين من أبناء شعبنا العربى الذين أعطوا لعبد الناصر ولاءهم القومى كزعيم لهم ، وكمناضل من أجلهم « فهو الزعيم العربى الذى تتعدى مسئولياته المعنوية حدود الجمهورية العربية المتحدة ولا ينحصر تأثيره فى الحدود السياسية التى تقوم بين الاقطار العربية ، ولا يعترف الولاء لزعامته بمثل هذه الحدود » •

يقول الكتاب : « لقد تعرضت الأمة العربية بسبب الاحتلال والتفرقة الى أقسى أنواع المهانة وأخطرها ، استبيحت خيراتها وكرامتها ومصالحها وتدنت أخلاقها مثلما استبيحت وحدتها ، وأهلك الاستغلال والاحتكار الاقتصادى غالبية الشعب ، فقد منع المواطن العربى فى مصر من أن يترقى فى الادارة أو الجيش ، ومنع المواطن من أن يتحدث لغة بلاده أو يدرسها أو يدرسها فى الجزائر ، وأصبحت الفرنسية تحل محل العربية ، ومنع المواطن من أن يمتلك أرضا خلفها له أجداده فى العراق ، فكان الاحتلال الاجنبى ، والانحلال القومى مسئولين معا عن تفشى الفقر والجهل والحرمان والكبت ، فعاشت الاغلبية المطلقة من الشعب أسيرة الخوف من هذا التنين الشره السام•



س . زغلول

ولم يكن غريبا أن يرى العرب فى منامهم ويقظتهم فارسهم المنقذ الذى يقطع عنق التنين فيحرر البلاد من الاجنبى ، وينقذ الشعب من المستغلين ، ويوحد الكيانات السياسية ، وكانت شخصية صلاح الدين « القوية العادلة » ماثلة أمامهم ، وقد عقد العرب آمالهم على كثيرين قبل جمال عبد الناصر ، ولكنه كان أول زعيم يحتفظ بولاء الجموع العربية الغفيرة فى كل قطر عربى فيما بين جبال البختيارى فى المشرق العربى وجبال الاطلسى فى المغرب العربى ، وكان أول زعيم يصمد أمام اختبار الزعامة ، ويبقى على ظهر الجواد ممسكا بالسيف بحزم مدة طويلة ، أما الزعماء الآخرون ، السابقون له . فقد اقترب بعضهم من الجواد . وهم بعضهم بركوبه وسقط بعضهم بعد المحاولة ولم يصمد منهم أحد ، واستفادوا من عقلية العصر وأوضاعه وظروفه ، وكانوا فى الواقع ، مرشحى تلك العقلية بظروفها وأوضاعها ، غير أنهم كانوا أضعف من التحدى ، وكان التنين الاستعمارى هو المنتصر .

فعند قيام الثورة العربية الكبرى ، كانت مبايعة العرب للشريف حسين زعيما للثورة مقيدة بخضوعه للارادة القومية ، وتمسكه بالمطالب السياسية التى نص عليها الميثاق أولئك الاحرار نصا واضحا لا لبس فيه ، ولكن لا الحسين ولا ابنه فيصل كانا فى مستوى هذه المطالب القومية التى آمنت بها القواعد الشعبية التى رفعت كلا منهما الى منصب الزعامة . ففرط الحسين فى الامانى القومية ، وهو يفاوض الانجليز ، مراسلة ومشافهة خلال الحرب وفى أعقابها ، وخيب ظن العرب عندما أساء فهم الثورة ، وحولها الى ثورة عائلية خاصة ، عندما أراد استغلالها لمصالحه القبلية الضيقة ، وفرط فيصل فى الامانى القومية نفسها وهو يفاوض الانجليز والفرنسيين فى لندن وباريس ، خلال مؤتمر الصلح وفى أعقابه وساوم على الكثير ليحتفظ بالقليل مما ليس له ، بل مما استودعته الأمة ضميره الوطنى .

ومع ظهور أسرار اتفاقية سايكس ـ بيكو ، ووعد بلفور ، ومع صدور قرارات مؤتمر الصلح وعصبة الامم بحرمان العرب من حقهم فى الاستقلال واتضاح دور الهاشميين فى ذلك وتعاونهم مع أعداء العرب ، تبددت الهالات التى أرغمت أحرار العرب على وضعها حول أفراد الاسرة المذكورة ، وسقط أبطال الثورة عن ظهر فرس الخلاص ، وعادت الجماهير العربية الى البحث عن زعيم ينقذها من مشاكلها القديمة ومن مشاكلها الجديدة التى أسهم الهاشميون فى صنعها ، وصمم الانجليز على



ع . المصرى

تعين فيصل ملكا عربيا ، مهما كان الثمن ، فعندما سقط عرشه فى سوريا صنعوا له عرشا فى العراق ، حيث صنعوا له شعاراته التى استهوى بها الجماهير فى وقت من الاوقات ، وحيث تنافس لورنس والآنسة بل وكورنولس فى المفاخرة بصنع فيصل ، وأصبح فيصل العميد الجديد للأسرة الهاشمية بعد أن طرد الحسين العميد السابق وولى عهده على عن عرشيهما . وحمل الاب الى قبرص مهزوما ، ثم حمل منها الى عمان مريضا ثم الى القدس ميتا ، ونزل الابن الاكبر فى حمى أخيه الأوسط لاجئا ، ووضع العرب آمالهم فى الملك غازى بعد فيصل ليقوم بالدور البطولى المنشود ، ولما استولى بكر صدقى ، ثم رشيد عالى الكيلانى على السلطة ، انعقدت آمال العرب على كل منهما ، ولكن عندما استيقظ العرب من أحلام اليقظة وجدوا أنهم ما زالوا فى انتظار الزعيم .

واستفاد الحاج أمين الحسينى من هذا الشعور العام ، وكانت اليد البريطانية المعتادة على حفظ ميزان القوى العائلية حينا ، وعلى هزه وقلبه لمصلحة جانب دون آخر حينا ، تحرص أن يؤول وضع القوى فى الميزان لمصلحة الانتداب وسياسته فى فلسطين وفى الوطن العربى بشكل عام ، ولسبب أو لآخر وجد « رونلد ستورز » زميل لورنس ورفيقه فى الحرب رغبة فى نفسه لكى يصنع هو الآخر بعض التيجان كما فعل زميله لورنس .. ولكنه لم يكن فى جرأة لورنس ، فصنع عمامة وضعها على رأس الشاب الوجيه أمين الحسينى لكى يكون مفتيا على فلسطين ، وبالحاج أمين الحسينى وصل الحسينيون الى السيطرة المطلقة على فلسطين لمدة ربع قرن ، الى أن خرجوا مع مليون نازح مكتوفى الأيدى ومنطلقى الالسنة ضد أخطاء السياسة العائلية التى ذهبوا ضحيتها وبقى الجواد بلا فارس . وكان الى جانب هذه الزعامات ، زعامات اقليمية لم تحاول أن تجعل من ميدان العمل العربى ميدانها ، اما لأنهم آمنوا بالاقليمية أو لأنهم آمنوا بالعمل أولا فى النطاق المحلى ، ومن هؤلاء سعد زغلول الذى تجنب القضايا العربية كأنها محرمة لا يجوز تعاطيها ، والذى ذهب الى تشبيه الاقطار العربية بمجموعة الاصفار ، ونورى السعيد الذى وضع نفسه فى خدمة المصالح البريطانية الهاشمية ، ولم تطل فرحة العرب بالملك محمد الخامس الذى آثر النفى من المغرب على أن يخضع للضغط الفرنسى ، لأن الموت عاجله قبل أن يستثمر نحوه المشاعر



العربية الودية فى سبيل العرب قاطبة ، مثلما استثمرها فى سبيل المغرب واستقلاله .

أما فوزى القاوقجى ، فقد حلم به عرب كثيرون كصلاح الدين فى القرن العشرين ، عندما خاض الجهاد فى فلسطين فى الثلاثينات ، ولكن فضائح حرب فلسطين بعد عشر سنوات بددت الهالة التى كانت تحيط باسمه ، وأما شكرى القوتلى ، فبعد جهاد طويل ضد الاتراك والانتداب ، أصبح أول رئيس لسورية المستقلة ، وأول مواطن فى أول جمهورية عربية متحدة ، ولكنه أساء الى الاستقلال الذى بناه بمفاسد حكمه ، ثم أساء الى الوحدة التى تنازل عن الرئاسة من أجلها بمفاسد الطبقة التى انتمى اليها والتى كانت مسئولة عن الانفصال أكثر من غيرها ، ولم يعمر رياض الصلح كثيرا حيث قتله القوميون السوريون عام ١٩٥١ ، أما بكر صدقى ، وعبد الكريم قاسم فى العراق وحسنى الزعيم وأديب الشيشكلى فى سورية ، فقد جاء كل منهم الى الحكم ومعه أمانى الملايين تحميه وتدعو له ، ولبس كل منهم ثوب المنقذ ، ولكن الثوب لم يلبث أن تلطخ بدماء الأبرياء ، وأوحال الحماقات والآثام والانحرافات، وكانت خيبة أمل الشعب فيهم أكثر منها فى أى جماعة أخرى من الزعماء الفاشلين .

وهناك زعامات أخرى مثل عبد الكريم الخطابى فى المغرب بطل ثورة الريف ضد الاسبانيين وعبد العزيز الثعالبى فى تونس ، وعمر المختار فى ليبيا – الشهيد الذى أعدمه الايطاليون لثورته عليهم ، وابراهيم هنانو فى سورية زعيم ثورة عام ١٩٢٥ ضد فرنسا ، وطلال ملك الاردن الذى خلعوه عن عرشه لأنه وقف ضد المشاريع البريطانية ليعيش مسجونا ومنبوذا فى المنفى ، وطالب النقيب ورشيد عالى الكيلانى فى العراق . وقد تمتع كل من هؤلاء الزعماء بثقة الشعب ومناصرته فى المحنة ، ولم يتح لأى منهم مجال الافادة من هذا التأييد بعد أن انتهت الجولة الاولى بالهزيمة أو الفشل أمام قوى الاستعمار الجبارة .

بقى رجل مناضل كانت حياته وحدها نسيجا قوميا مناضلا ضد الاستعمار وضد التجزئة ، وهو **عزيز على المصرى** ، فقد تبوأ لأكثر من ثلث قرن – مركز الصدارة فى الحركة العربية القومية الجامعة ، فقد أوحى الى النضال العربى فى اليمن



وفى ليبيا وهو ضابط فى الجيش العثمانى ،وحقق للثائرين أكثر من انتصار ، وأسس وترأس أول الاحزاب الثورية وأوسعها ، وقاد ثورة ١٩١٦ فى أشهرها الأولى ، وتصدى لصيانتها من الاستغلال الهاشمى ، وكان رائد العمل العربى فى مصر بلا منازع ، وأثناء الحرب العالمية الاخيرة ، قام بأول محاولة من نوعها فى ربط النضال الثورى بمصر مع النضال المماثل فى الدول العربية الاسيوية ولقد أعطى عزيز المصرى العروبة فى ثلث قرن أكثر مما أعطاها أى انسان آخر . واعطاه العرب بدورهم محبة وتقديرا عوضا عن تفريط الحكومات العربية فى العهود الملكية فى حقه .

أما عن الأحزاب العربيــة ، فقد كان الحزبان الوحيدان اللذان عملا على صعيد عربى عام فيما بين ١٩٢٠ ، ١٩٤٥ - (وقد تأسسا فى أواسط هذه الفترة) لا يعترفان بالقومية العربيــة ، ويعملان تحت شعارات أخرى - هم - الاخوان المسلمون والحزب السورى القومى، وأعلن الحزبان الحرب ضد الفكرة العربية ودعاتهــا ، ولا تزال بقايا الجماعتين تقف الموقف نفسه تجاه التطور الجديد للحركة القومية العربية ، وبينمــا فشل كل من القوميين السوريين والاخوان المسلمين فى

اجتذاب ولاء عام خارج صفوف الحزب - لا على الصعيد العربى فحسب، بل على الصعيد القطرى أيضا ، كان كل منهما يضع حول المؤسس هالة من التقديس كادت تصل الى حد التأليه أحيانا ، إذ كان الزعيم فى الحزب السورى والمرشـد فى الاخوان المسلمين هو الآمر الناهى فى كل ناحية من نواحى الحياة الحزبية ، وغير الحزبية أيضا . ولا بد أن المؤسسين تأثرا بالاسـلوب النازى - الفاشى الذى كان شائعا عند تأسيس الحزبين فى عبادة الاشخاص ، وقد فرض نظاما الحزبين على الاعضاء زعامة أكثر تسلطا من أى حزب عربى آخر ، بل انهما كانا مدرسة فى تعليم الاستبداد الرئاسى فى الأحزاب .

ومثلما أغتيل حسن البنا وهو فى أوج صراعه على الزعامة مع أحزاب مصر الاخرى ، أعـدم أنطون سعادة فى صيف ١٩٤٩ .

ومن الخطأ الاعتقاد أن مقتل كل من حســن البنا وسعادة هو الذى حرمهما من زعامة أكيـدة للعرب .. لأن سمعتيها استفادتا من قتلهمــا « والحزبان يسميان قتل الزعيمين استشهادا » أكثر مما استفادتا من تصرفاتهما فى حياتهما ،

لما وافق تلك التصرفات من ممارسة أعمال لم تطمئن اليها غالبية الشعب ، من استبداد بالرأى داخل الحزب واحتقار الاعضاء وغير الاعضاء ، ومن اغتيال للخصوم واشاعة للارهاب والفتن ، ومن صفقات مريبة مع الرجعية المحلية والجهات الاستعمارية ·

أما عن الحزبين الآخرين وهما حزب البعث العربى الاشتراكى وحركة القوميين العرب السرية ، فقد فشلا فشلا ذريعا فى تقديم أى نوع من أنواع الزعامة العربية ·

ظل الجواد بلا فارس ، وظلت فكرة القوى العادل اطارا لاتملأه صورة أى من المسئولين العرب وليس من صلاح دين جديد ، سنين طويلة ، وكاد عرب كثيرون أن يفقدوا الامل فى امكان ظهور هذا الرجل المرتجى ، وكانت الآمال تخبو بازدياد الحاجة اليه ، تكرست التفرقة وتأصلت ، وضاعت فلسطين بأهون السبل ، واستحكمت الرجعية بالمواطنين فى الاقطار المستقلة والخاضعة للاجنبى على حد سواء · وقاست الاغلبية من أهوال الجهل والمرض والفقر ، وانحدرت قيمة الاسم العربى فى العالم · وكانت الحياة اليومية للأفراد والجماعات ، مأساة ، ولكن المآسى ــ حتى أخطرها لا تخلو من قلب يرحم أحيانا ، انها تهب ضحاياها سبيلا للانقاذ ، رجلا يبحث فى بطن المأساة عن جذورها فيقتلعها ويخلص الامة منها · مشى **جمال عبد الناصر** طريقا طويلا من بنى مر الى حيث أخذ يقارع التين . . ولم تكن مؤهلات الزعامة فى عبد الناصر الا جسورا سلكها فى تقديم نفسه الى الجماهير ، وفى الكشف عن معتقداته والحديث عنها الى الرأى العام حديثا مخلصا · وعبد الناصر هو أول زعيم عربى خاطب الشعب بلغته مادة وأسلوبا وروحا ، وسمع الناس فى أقواله ما كان فى نطاق ادراكهم وأمانيهم ، ورأوا فى أعماله ما أثبت لهم صحة أقواله · لقد استمعوا من قبل الى خطباء بارعين ، ورأوا رجولات وأعجبوا بأخلاق حميدة ، ولكنهم وجدوا فى عبد الناصر أمرا جديدا ، وجدوا وراء هذه المواهب والصفات قلبا واسعا يشمل الامة ، ومشاعر تنسجم مع مشاعرهم وأهدافا تعبر عن أهدافهم ، كانت مميزات عبد الناصر وصفاته تدعم شعبيته ،



ولـــكنها لم تخلق هذه الشــــعبية ، والذى خلقها هو حقيقة انعكاس الامانى والآمال القومية فى شخصه ، والبرهان على ذلك هو توافر نفس الظروف لغيره من السياسيين •

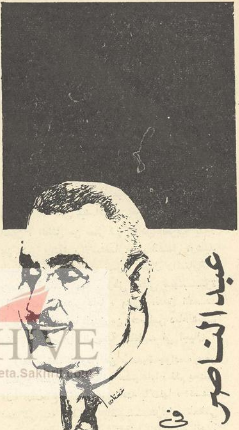
ولكنها عجزت عن صنع زعيم عربى قـــوى ـ طوال قرن ونصف ، محبوبا ومحترما ومهابا مثل الزعيم **عبد الناصر** •

فعبد الناصر هو أول زعيم يقف مع الشـــعب فى جبهة واحدة ، فيتصـــارحان ويتبـــادلان العواطف والحقائق دون خداع من جـــانب ودون تملق من جانب آخر ، وهو أول زعيم يتمتع بزعامة شاملة لها شأنها فى كل قطر عربى مهما كان ذلك القطر بعيدا عن مصر أو خاضعا لحكم يعـــادى مصر وسياستها • وله قواعد شعبية واسعةتواليه بشكل لا مثيل له فى تاريخنا الحديث ، فقد مضى العهد الذى كانتفيه القواعد بلا زعامة والزعامات بلا قواعد ، وزعامة **عبد الناصر** هى أول لقـــاء بين الزعامة والقـــاعدة ، وعبد النـــاصر ، هو السياسى العربى الوحيد فى تاريخنا الحديث الذى ينسب اليه عصر بكامله ، لقد استطاع عبد الله ابن الحسين أن ينسب لنفسه مملكة ، وكذلك فعل عبد العزيز بن سعود ويحى حميد الدين ،ولكن ذلك الانتساب كان شكليا ، يسمى الرجل بلده باسمه ، بحد السيف ، وكأنها ملك خاص ،وكان ذلك الانتساب اجراءا ضيقا يدل على عقليـــة طبقية ونفسية أنانية ، أما عبد الناصر ، فان الآخرين وخصومه بشكل خـــاص ، هم الذين ينسبون اليه التفكير العربى السائد ، والعواطف والمشاعر معا ، فى مدى عقد من السنين ، فى كل قطر بين الخليج العربى المحيـــط الاطلسى ، وذلك أهم بكثير من أن يحمل المواطن جـــواز سفر منسوبا لملك أو أمير ، هناك رق ، وهنـــا مشاركة ، هناك انتماء مصطنع مفروض ، وهنـــا انتساب عضوى طبيعى ، فزعامة عبد الناصر التى ينتمى اليها قسم كبير من عرب هذا الجيل تعتبـــر تجسيدا للأمانى والاهداف التى جاشت وتجيش فى صدور الآباء والاجداد منذ وقت طويل •

وكانت زعامة عبد الناصرتدرك ثقل العبءالذى تدعو الشعب الى حمله من أجل غد أفضل ، غـــير أنها تضع ايمانها فى الشعب ، نتيجة لايمانهـــا بالله لأن الله مع الشعب ومع من يخدم الشـــعب ان فى عبد الناصر صورة من الايمان العربىالمطلق بالله ، ذلك الايمان الذى يحمل صاحبه على العمل بثقة تفوق امكانيات المنطق البشرى ، ومن وحى هذا الايمان مضت زعامة عبد النـــاصر قدما الى الامام ، لقد فعل **عبد الناصر** بعض ما فعله **صلاح** الدين ، انطلق من مصر فى الارض العربية يذود عن الحمى ويتعقب الاستعمار ويلم الشمل ،وشيد النظام الاجتماعى الذى يسوده العدل والمساواة ، ويصلح أساسا لهما ، وظل يعتلى صهـــوة الجواد ثمانية عشر عاما ، ينازل التنين المتعـــدد الرءوس ، فقد نما التنين من امتصاص دماءالشعب وغذاء الاستعمار والرجعية والمفاسد فى أجيال •

ولقد سقط الفارس عن صـــهوة جواده ، وهو يصارع التنين طوال ثمانية عشر عاما ، فلم يحتمل قلبه الشجاع الذى احتوى أمته بأكملها ، انسداد أحد شرايينه المنهكة ، بالمســــئوليات العظمى فتصبب الفارس عرقا ، وتوقف القلب الصامد ، وسقط سيفه من يده ، وهو يصـــــارع التنين الاستعمارى ، سقط شهيد الواجب ، والأمـــة ، والمستقبل • وسيظل الجواد بلا فارس ، الى أن يقف فرسان عبد الناصر فى كل أرض عربية صفا واحدا دفاعا عن كل الأهداف التى نادى بها عبد الناصر ، ولم يمهله القدر ليرى نهايتهـــا • دفاعا عن السلام العربى ، الذى يجب أن يقـــوم على الارض العربية ، حماية للمقهورين ، ضـــد التخلف والاحتلال الاستعمارى الصـــهيونى ، واستعادة لكل أرض سليبة •

تحسين عبد الحى



عبد الناصر في العالم الخارجي

فتحي الابياري

ما هو سر عظمة عبد الناصر ؟

قال أحد الكتاب الأجانب .. ان سر عبد الناصر يكمن فى أنه جمع كل خصال الشعب المصرى فى كيانه . وقال كاتب آخر ان مصدر قوته .. انه يمثل حركة تحرير الشعب المصرى وتقدمه . وقال ثالث .. ان عبد الناصر تجسيد لنضال الأمة العربية ، وكفاحها فى مواجهة الامبريالية وسعيها لتعميق الثورة الكبرى . انه ألمع شخصية فى الفكر العربى الحديث . وهناك عشرات الآراء ، والدراسات فى كتب مختلفة تبحث عن شخصية ناصر .. والثورة المصرية . وقد أصدرت مكتبة جامعة اكسفورد فى يوليو ١٩٧٠ تقريرها عما كتب عن ثورة ٢٣ يوليو ، وعن جمال عبد الناصر ، فبلغ ٢٨٩ كتابا وصدرت هذه الكتب بسبع عشرة لغة . وفى خلال هذه السطور سنحاول التعرف على زوايا سر جاذبية وعظمة شخصية الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .

ففى كتاب « زعماء الدول الحديثة » .. للدكتور ليونولد استاذ التاريخ بجامعة بروكلين، يقول « ان ناصر هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يوحد العرب ، ويشيد لهم مكانا فى الأسرة الدولية » . ويرى أن سر قوة عبد الناصر يرجع الى أسباب عدة : منها مظهره الشخصى، وقوة شخصيته ، وتكوينه الجسمانى ، ونشأته الشعبية . وظهوره فى الوقت الذى تنتظر فيه العرب ظهور الزعيم واهتمامه باصلاح بلاده من الناحيتين الاجتماعية والسياسية. وقدرته الخارقة على أن يكون زعيما .

أما كتاب « ناصر » للمحامية الايطالية الشهيرة « زارا الجاردى » فقد سبب ثورة عند اليهود فى أمريكا ، وقاموا بمحاولات لمنعه من غزو المكتبات الامريكية ، لأن (زارا) كشفت عن التقدم الذى شمل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بفضل حكمة جمال . ووصفت كل الخطوات التى سبقت بناء السد العالى معجزة

الشرق الأوسط ، والمؤامرات التى لعبها الغرب بزعامة امريكا فى نسف هذا المشروع قبل أن يبدأ ، وحاولت ايقافه بكل الوسائل ، حتى استخدم الغرب بالاستعانة باسرائيل ، السلاح والطائرات والمدمرات . وفشلت محاولاتهم . وتم بناء السد العالى رمز الرفاهية للشعب المصرى فى المستقبل ، ولكن ما زال الغرب وتعاونه أمريكا يدبرون المؤامرات ، ويستغلون اسرائيل كمخلبى قط فى استنزاف قوى الشعب المصرى . ولكن ارادة الشعوب المحبة للحرية والسلام .. فوق كل المؤامرات .

وقد أصدر الكاتب الايطالى « دينو فريسكو بالدى » كتابه عن « عبد الناصر » ضمن سلسلة كتبه « أناس مشهورون » بعبارة مشهورة للرئيس الراحل يقول فيها « من السهل بناء مدارس ومستشفيات .. وفى الممكن بناء مصانع ، ولكن بناء أمة عمل صعب وشاق » . وتناول المؤلف فى كتابه حياة الرئيس منذ ولادته والأحداث الهامة التى قابلته حتى ديسمبر ١٩٦٩ ، فقال .. انه بالرغم من الأحداث التى مرت بالرئيس ناصر أثناء حكمه فى الميدانين السياسى والعسكرى ، ورغم المؤامرات التى حيكت ضده . وضد نظامه الثورى فقد ازداد حب الشعب له ، على عكس ما كان يتوقعه المتآمرون . وتناول الكتاب أيضا أحداث ليلة ٩ يونيو ٦٧ ، ووصف مشاعر الجماهير الملتهبة الى درجة دفعت جميع المعلقين والمراقبين السياسيين فى جميع أنحاء العالم الى أن يتساءلوا : ما هى الأسباب التى جعلت الشعب المصرى يتمسك بقيادة عبد الناصر رغم كل الأحداث ؟ ورد الكاتب الايطالى على التساؤل بقوله : **ان عبد الناصر أعطى مصر ما لم يستطع غيره اعطاءه لها طوال القرون الماضية .. أعطاها قلبه .. وعقله .. وحياته ! .**

... وهذا التساؤل والاستفسار عن سر شعب مصر وعبد الناصر يرويه جان وزوجته سيمون لاكوتير فى كتابهما « مصر .. الصاعدة » الذى تزيد صفحاته على الخمسمائة . فيذكران فى الفصل الاول .. كيف أن الغزاة يسيطرون على بلاد العالم الى أن يأتوا الى مصر .. فمصر هى مقبرتهم الأخيرة . وهى كما قال عنها احد الكتاب « مقبرة الغزاة » ، لقد دفن فيها الاسكندر ، وهزم قيصر ، وابتلعت أرض مصر الأتراك والمماليك والفرنسيين والانجليز . وبقى فوق ارضها .. شعب مصر .. الوديع المتشبث بأرضه ونيله ، الذى يبحث عن النكته حتى فى احلك ظروف حياته المأساوية .. ومع ذلك فانه صامد .. صمود الأهرام وابو الهول . ويلتف حول زعيمه عبد الناصر .. يوم تخيل العالم أن ناصر قد سقط ، ولكن شعبه رفعه على الاعناق ، والتف حوله يحميه ، لكى ينهض ويواصل مسيرة النضال ضد الاستعمار .

وحاول جان وزوجته سيمون .. البحث عن الاجابة .. هل يرجع السر الى آلاف السنين من الحضارة العريقة ، وحب هذا الشعب لأرضه وترائه ونيله .. أم ان غزوات المستعمرين كانت مصلا واقيا له ضد الأيام الحالكة السواد . وفى فصول الكتاب المختلفة يروى جان وسيمون قصة الثورة المصرية ، والاعداد لها ، وساعة الصفر ، وانطلاق الشرارة الثورية . ويركزان على شخصية ناصر .. كزعيم .. وقائد يحسم المواقف فى سرعة البرق . وأن سر عظمته تكمن فى أنه يؤمن بالشعب المصرى الذى هو منه ، ايمانا مطلقا .. ذلك الايمان الذى جعله يهب حياته .. وعقله .. وقلبه لكل أفراد شعبه . ويصف المؤلفان شعورهما عندما قابلا الرئيس بهذه السطور « ان أول شىء تلحظه فيه ابتسامته البيضاء الناصعة .. انه رجل طويل القامة وافريقى أصيل .. وهو عندما يأتى صوبك يسير بخطوات واثقة واليد ممدودة لكى تصافحك .. وتزداد الابتسامة اتساعا كلما اقترب منك ، وهو عندما يضحك فالعيون أيضا تضحك ، والصوت ، صوت خفيض ودود ، ولغته الانجليزية رائعة وانيقة ، والاجابة تأتى منه على سؤالك مفاجئة فى صراحتها ، واثقة من كلماتها ، وهو

اذا ما غضب تلمع عيناه بوميض أخضر رأيته فى عيون الفلاحين ـ وهو ينهل من كل الثقافات نهلا .. ابتداء من الكلمة المقروءة حتى الموسيقى. وهو يقرأ الجرائد بنهم واهتمام .. الجرائد الاجنبية والعربية والمصرية » .

.. وعبد الناصر .. هو الذى وضع شعار « ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد » . هذه العبارة بدأ بها الكاتب السويسرى الكبير جورج فوشيه كتابه عن « عبد الناصر ورفاقه » ويبن الكاتب كيف استطاع عبد الناصر أن يدبر تنظيم جماعة الضباط الاحرار السرية ، لكى يعيد لهذا الشعب كرامته وشخصيته . وبدأ المؤلف فى البحث عن الجذور العتيقة التى أثرت فى شخصية عبد الناصر ، فتحدث عن قرية بنى مر ، وعن طريقها كشف حال المجتمع المصرى فى ذلك الوقت حيث كانت تتفشى الامية ، وتزداد الحالة الاقتصادية سوءا . ويقول فوشيه :

« أنه اذا كان عبد الناصر قد ورث عن أبيه عناد فلاح الوجه القبلى وعزته ، فانه قد ورث عن والدته الناحية الاسكندرانية من طبعه : روح البحر الأبيض المتوسط الماهرة ، المجدة فى الاهتمام بكل ما يتعدى الأفق اليومى ، وبالتالى بكل ما هو جديد.. روحا ثورية . والاسكندرانى شخص دولى .. جرىء مطبوع بطابع الفردية».

وباسلوب بارع استطاع فوشيه أن يقدم دراسة عميقة عن البيئة العائلية والمدرسية التى عاش فيها الفتى جمال عبد الناصر .. الذى أصبح بعد ذلك أعظم زعيم شهده العالم العربى ، ومن القادة العظام الدوليين . وتناول المؤلف الكتب التى أثرت فى فكر وعقيدة عبد الناصر .. الكتب الاسلامية ، والتاريخية، والادبية . ثم بداية الاتصال بزملائه الذين سيواصلون النضال معه الى قيام الثورة . وحلل جميع الخطوات والاتصالات التى كان يقوم بها انور السادات بتكليف من لجنة الضباط الأحرار، بكافة العناصر المناوئة للسلطة البريطانية ، وللقصر ، وللأحزاب المنحرفة .

ويتحدث فوشيه عن فلسطين ، واستيلاء اليهود على بعض المناطق ، ثم قيام حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . ويذكر عبارة كتبها جمال عبد الناصر قال فيها : « انه لما بدأت ازمة فلسطين كنت مقتنعا بأن القتال فيها ليس قتالا على أرض غريبة ، وانما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس لمصلحة العرب الذين نهبوا » . ويروى الكاتب المواقف العصيبة التى مر بها جمال عبد الناصر ، وهو يحارب فى فلسطين ، وسط قيادات فاشلة، واسلحة فاسدة ، وخيانات من القصر ، الى ان أصيب فى صدره ، ونقل الى مستشفى المجدل حيث رأى أصدقاءه جرحى ، وعلم بنبأ مصرع الكثيرين منهم . وفى ذلك الوقت كتب عبد الناصر يقول :

« لقد عاهدت نفسى أننى لو صرت مسئولا فى يوم من الأيام فى بلادى فسوف افكر الف مره قبل أن ادفع بجنودنا الى الحرب، لا أدفعهم اليها الا حيث لا يكون مفر .. حين يكون شرف الوطن مهددا.. وما من شىء ينقذه الا نيران المعركة » .

وهذا الوعد الذى كتبه عبد الناصر وهو فى حرب فلسطين ، كان بداية لفلسفته فى الحياة التى تبلورت فى قوله « أحسست أن الانسانية لا تستحق شرف الحياة اذا لم تعمل بكل قواها من أجل السلام » . وفعلا .. كانت آخر أعماله قبل استشهاده هى حقن دماء العرب .. واحلال السلام بين الأشقاء العرب ، حتى يمكن توجيه كل القوى الى العدو الذى يحتل أجزاء عزيزة من قلب الأمة العربية .

ووصف فوشيه بتفصيل وتحليل المعارك والمواقف الحربية التى اشترك فيها جمال عبد الناصر ، وكيف انقذ « عراق المنشية » بفضل رباطة جأشه ، وحسن تدبيره ، رغم حصار دام شهرين ، وكبد الاسرائيليين ٣٠٠ جثة غير



الجرحى والخسائر فى المعدات . وانتهت مأساة فلسطين ٠وعاد جمال عبد الناصر ٠٠ ليبدأ مرحلة جديدة من بناء مصر الحديثة وحاولت المؤامرات ، والدول الاجنبيـــة ان تتكتل لوقف هذا الزحف الثورى فى المنطقة ٠٠ ولكن عبثا ٠

٠٠٠ لان عبد الناصر ٠٠ هو من صميم الشعب المصرى ، وخرج منه ليقوده الى العـزة .. والكرامة ٠٠ والحرية ٠ وفى كتاب «مصر ٠٠ الثورة» « للكاتب الصحفى الفرنسى « كلود استيه ، يصف لقاء عبد الناصر بممثلى الشعب فى المؤتمر القومى فيقول :

« وعندما جلس عبد الناصر بهدوء ، وقف أنور السادات أحد رفاقه الأوائل منذ ١٩٥٢ ليقول تلك الكلمات : ان لقاء الشعب .. شعبنا مع الرئيس عبد الناصر كان احدى اللحظات التاريخية النادرة التى تحدث أحيانا فى تاريخ الشعوب . انه يولد من جديد كعملاق ، ويكتشف نفسه وايمانه وارادته ٠٠ واستمرار حى لبقائه الذى ظل دوما على مدى العصور ٠ » ويستمر انور السادات فى خطابه حتى ينتهى ليسود الصمت ، وعبد الناصر بوجهه الهادىء ، واكتافه العريضة، وملامحه الواضحة يستمع ثم ينظر امامه فى بريق وكل الأوجه ٠٠ كل العيون ترقبه٠ وعندئذ وبعد لحظة من صمت أعقبها تصفيق للتقديم الشاعرى، يقف عبد الناصر ومعه يقف كل المجتمعين .. وبصوته المعروف المميز .. يقرأ ويقسم ولاءه لمصر .

ويتعرض « كلود استيه » الى موقف ناصر من فلسطين والمحيط العربى ، والمحيط الدولى ، والافريقى ٠ وقد حدد عبد الناصر موقف ثورة مصر من هذه المجالات فى فلسفة الثورة ، وكثير من خطبه . وبين الكاتب كيف كان عبد الناصر من اول دعاة الوحدة الافريقية ، وأول من حضر مؤتمـر القمـه الافريقى ٠ ويبرز المؤلف دور عبد الناصر ونظرته لفلسـطين .. حيث كان يعتبرها جزءا من كيانه وعقله ، وسقط شهيدا .. من اجل فلسطين أيضا .

..: ولكن قبل أن يسقط شهيدا .. كان قد حدد للشعب العـربى .. طـريق العزة والكرامة . ويكشف الكاتب الأمريكى « والتون وين » فى كتابه « ناصر العرب ٠٠ البحث عن الكرامة » بعض الجوانب من شخصية عبد الناصر فيقول :

« ان كره عبد الناصر للترف وحب الظهور ، هـو أقـوى ما لديه من مزايا شـخصية ٠ فزيارة واحدة لمنزل عبد الناصر ، تظهر كيف أن الرجل احتفظ بعاداته البسيطة نسـبيا فى حياته بعد انقضاء ست سنوات على تسلمه الحكم ، فما يزال يسكن مع عائلته فى المنزل ذاته الذى كان يشغله ، عندما كان ضابطا بسيطا فى الجيش » ٠

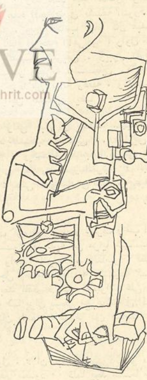
ويقول : « ان عبد الناصر دينامو بشرى ذو نشاط غير محدود ٠٠ قلما يجد متسعا من الوقت

للنوم » فهو فى بيته يعمل باستمرار حتى ساعات متأخرة من الليل » .

... وفى كتاب جون جنتر «فى داخل افريقيا» جزء كبير عن مصر .. وثورتها فيقول « **ان الرئيس عبد الناصر من أهم الشخصيات القائمة فى هذا الزمن ، وقد حقق لمصر ما لم يحققه أحد . انه رجل نزيه الى أقصى حد . ولا يطالب بأى شىء لنفسه . ان عبد الناصر كتب صفحة جديدة فى تاريخ مصر . مليئة بالحيوية والحركة ، فهو رجل قوى ، وله مبادىء أخلاقية ، وله عقيدة فكرية . ان مصدر قوته يرجع الى أنه يمثل حركة تحرير الشعب المصرى وتقدمه** » .

.. ولم تكن ثورة عبد الناصر .. ثورة محلية فحسب ، بل كانت ثورة سلام ، تهدد الامبريالية والصهيونية ، والذين يعيشون على سفك الدماء .. دماء الشعوب . وكانت ثورة جمال الاجتماعية والسياسية دافعا لكثير من أقلام الكتاب والمحللين السياسيين فى الغرب وامريكا .. ان تكتب عشرات الكتب المختلفة ، لالقاء الأضواء على مجتمع الثورة وعلى زعيمها . وفى كتاب « مصر عبد الناصر » للكاتب البريطانى «بيتر مانسفيلد» يوضح المؤلف أهداف عبد الناصر فى اقامة مصر المتحررة من كل أشكال السيطرة الأجنبية . فبدأ الكاتب بفصل عن الحالة الاجتماعية والاقتصادية لمصر فى بداية القرن الحالى . وكيف كانت تخضع لحكم أجنبى ، وتعج بالأجانب وانصاف الأجانب والمرتزقة . وعرض المؤلف لمصر والعالم العربى فى فصلين سمى أحدهما مصر والعرب الاسيويين ، والثانى مصر والغرب . وقال مانسفيلد :

« ان الرئيس جمال عبد الناصر كان يرى ان التحالف مع الغرب معناه استمرار النفوذ الغربى ، والتبعية للغرب . وان هذا كان أساس موقف الحياد الايجابى الذى اتخذته مصر ، وأنه بعد اعلان قيام حلف بغداد ، ومعارضة عبد الناصر له على أساس انه يربط البلاد العربية بالنفوذ الغربى حاز تأييد ومباركة الرأى العام العربى . ومنذ ذلك الحين بدأ ناصر يصبح بطل القومية العربية . واحس العرب أن هذا الرجل هو الزعيم الذى كانوا فى انتظاره . والذى يمكنه التصدى للقوى الاستعمارية وتوحيد العرب فى دولة واحدة . وتأكدت وجهة نظرهم عندما اصبح



عبد النـاصر هدفا لهجوم اسرائيل والصحافة الغربية .

وتحدث مانسفيلد بعد ذلك عن ثورة ٢٣ يوليو الاجتماعية ، فقال « ان هدف ناصر كان امامه مصر المتحررة من كل أشـكال السـيطرة الأجنبية ، والتى تلعب دورا أساسيا فى العالم العربى وفى أفريقيـا . ولذلك بدأ يبحث عن حل سريع ، وهو اعداد برنامج مركز للتصنيع والاشتراكية . وان مشكله السويس ، أعطت دفعة هائلة لمسيرة التخلف من سيطرة النفوذ الاقتصادى الأجنبى . وركز مانسفيلد فى كتابه على القريه والفلاحين فقال .. ان الفلاحين الذين يكونون ٧٠٪ من شعب مصر من أنشط الفلاحين فى العالم ، وان مصر من هذه الناحية ليست دولة متخلفة ، وان كثيرا من رجال الثورة ومنهم جمال ينحدرون من أبنـاء الفـلاحين ، لذلك فان عبد الناصر كان يدرك ظروف البؤس التى عاش فيهـا الفـلاحون ،لذلك بدأ فى اعادة توزيع ملكية الأرض وتخفيض الايجـارات الزراعيـة ، ورفع أجور العمال الزراعيين ، واقامة المجمعات التعاونية التى تشرف عليها الدولة . واهتم أيضا بنشر التعليم فى القـرى ، واقامة المجمعـات الصحية ، وايصال النور والمياه النقية الى قرى مصر . كل هذا كان فى عقيدة عبد الناصر .. الوسيلة العملية لمواجهـة مشـكلة مصر الأولى « البؤس الاجتماعى والاقتصادى لمن يعيش على الزراعة فى مصر » . وكان السد العالى الذى صمد به عبد النـاصر أمام مؤامرات القـوى الامبريالية ، والصهيونية .. هو الدرع الواقى للثورة الاجتماعية . ويرى مانسفيلد .. ان القاهرة ستظل لأسـباب كثيرة مركز الانتاج الثقافى والفكرى فى العالم العربى » .



... وهناك كتب كثيرة .. كتبت عن ناصر .. وجه مصر الثائرة منها «الزعيم» لسان جون . و « ثورة ناصر » ديزموند ستيوارت . و «ناصر» لتوم ليتل ، و « كيف نجح عبد الناصر » للكاتب الهندى كارانجيا ، الذى قال : هناك قلة من الرجال أدوا أدوارا حاسمة فى التاريخ ، وتركوا آثار بالغة الخطورة فى تحويل مجرى التـاريخ الانسانى .. ان اسم عبد الناصر يقف فى طليعة هؤلاء » .

فتحى الابيارى

عبد الناصر
والثورة الفكرية

لقاء فكرى مع مجموعة من المفكرين والأدباء

اعداد :

حسين اللبودى

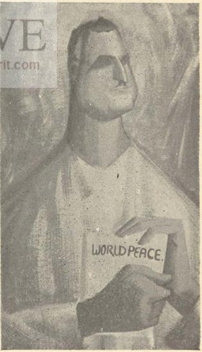
لم يكن عهد عبد النـاصر من تلك العهود التقليدية التى تأتى عبر التاريخ وتنقضى دون أن تثير من القضايا ما يستأهل الذكر والالتفات ، وانما كان من تلك العهود الثـورية التى تجعل من الحركة والتغيير والبناء أساسا لاستمرارها • فهو هذا العهد الذى أشرق على حياتنا استجابة لمطالب شعب أبى الا أن يثور على التخلف والجمود اللذين رانا على صدره قرونا طويلة •

ولما كانت السمة الأساسية لهذا العهـد هى التغيير والثورة على كل ما يعوق تقدمنا ، فقد أقبل على جميع الثقافات والأفكار يدرسها ويحللهـا وينتخب منهـا ما يتفق وظروفه الاجتماعية والثقافية والروحية • وهو فى اقباله على كل هذه الثقافات والأفكار لم ينس ما يربطه بتراثه العريق من وشائج فاقبل عليه بالمثل بالدراسة والمراجعة والمقارنة بما أنفتح عليه من هذه الثقافات والأفكار الجديدة وصلا منه للماضى بالحاضر وتشوفا لاحتمالات المستقبل •

وبرغم كل التحديـات والظـروف البـالغة التعقيد ، استطاع هذا العهد أن يواصل مسيرته ويترك بصـماته جلية على صفحة التاريخ بماحققه من انجازات ، وباتخاذه الاشتراكية سبيلا وأساسا لحل مشاكلنا ، وبتبنيه مبادىء الحرية والثورة على الاستعمار التى كان فيها سندا لكل الشعوب المغلوبة على أمرها •

وبفكرها المفتوح على كل التجارب ، تلتقى الفكر المعاصر فى هذا التحقيق الفكرى بعدد من أعلام الفكر والأدب والفن لهم من الكتابات ما يمكن أن نعده انعكاسا ـ بشكل أو بآخر ـ لهذا العهد وتعبيرا عنه •

وهى اذ تطرح سؤالين أولهما : أهم التغيرات الفكرية التى طرأت على الفكر فى عهد عبد الناصر ، وثانيهما : دور الفكر والمفكرين بعد عبد الناصر ـ تأمل أن يواصل « الكل فى واحد » مسيرتهم على طريق عبد الناصر انطلاقا الى ما هو أعظم وأجل •



أحمد رشدى صالح

● نستطيع ان ندلل على ان الفكر المصرى الوطنى ، قد جرى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، على اساس تجديد حياة مصر ، وتحقيق سيادتها الوطنية الكاملة، واستحداث «تصويب» او « تغيير » فى موقفها من حضارة العالم ، وذلك بان تكون مصر المستقلة، وطنا متحضر بحضارة العصر .

وينطوى تحت هذا التعميم ما بدر من دعوات اصلاحية وريادات فكرية سياسية ، ونزعات للتجديد فى وجوه شتى من الحياة .

والى نهاية الحرب الثانية ، تعود سرعة « ايقاع » الحداثة فى الفكر ، ذلك ان تلك الحرب وضعت مصر — وبشكل حاسم — فى دائرة التأثر المباشر باتجاهات الفكر العالمى — بل فلسفته — الأمر الذى انتهى بالاحزاب المختلفة القديمة الى ان تعيد النظر فى برامجها — ان كانت لها برامج — وتطرح نوعا او انواعا من الفكر الاصلاحى الذى يتسم بالحداثة ، ايجابا أو سلبا .

كما ان السنوات الحاسمة التى بين نهاية الحرب وثورة ٢٣ يوليو ٥٢ ، قد استقطبت تيارات الفكر المصرى الوطنى، وجعلتها « حبلى » بضرورة التغيير — وهو نفس الأمر ، الذى كان ماثلا فى البنية الاجتماعية والاقتصادية ذاتها .

كان على ثورة ٢٣ يوليو أن تستوعب خلاصة ما انجزه الفكر المصرى فى تاريخه الحديث ، وأن تطرح — للمستقبل — حاجة مصر الى الحداثة الحقيقية ، والحضارة العلمية لعصرنا .

واعتقد أن من أهم منجزات قيادة عبد الناصر لهذه الثورة ، انها حركت مصر نحو الاشتباك مع الانسانية من ناحية ، والأمة العربية من ناحية ثانية ، ومع ميراث مصر ذات الخصائص المعروفة من ناحية ثالثة .

فهو اذن ، اشتباك مع الوجود الانسانى والقومى والوطنى ، ومع تيارات الفكر الانسانية والقومية والوطنية .

وفى ظل هذا الاشتباك ، أتيح للفكر المصرى ، ان ينتبه الى أن تاصيل الطابع الوطنى والقومى فى مساره ، هو الشرط اللازم والمؤدى الى انسانيته وحداثته .

هكذا ، اتت كتابات عبد الناصر وخطبه ، وهكذا ، جاءت المحاولات لاختيار الأصلح والانسب من الفكر العالمى ، لحاجات مصر وحياتها .

ومن غير المنطق ، ان ننفى ان هذا الاتجاه، واجه الطريق ممهدا، مستقيما، دائما — فان اشتراك مصر بفكر العالم المعاصر ، يضعها امام عملية اختيار غاية فى الصعوبة — فهى تحرص على الا تفقد اصالتها الوطنية وبالتالى فهى ترفض ان يستوعبها تيار بعينه من الفكر العالمى ، ومع ذلك فهى تحرص على ان تعيش حياة عصرها ، وهذه التيارات الفكرية العالمية تؤثر من ناحية التصور ومناهج التطبيق — غاية التاثير فى مصير الانسان المعاصر .

ثم هناك مشكلات التخلف التى فرضت على مصر ، والأمة العربية من عصور سابقة ، وهى مشكلات ضاغطة وطاردة ، لكل اشتقاق لحداثة الفكر أو عصرية اساليب العمل العام .

ولقد فتح عبد الناصر ، بفكره المكتوب، وبخطبه كذلك، ميدان التفاعل واللقاء ، والاختبار ، بين هذه العوامل جميعا .

وكان من نتائج ذلك ، ان تمت مشروعات وأعمال كبرى وحدثت أيضا مناقشات جادة بل كان بعضها على جانب كبير من الأهمية ، بصدد نقل حياة مصر من العصور الوسطى الى العصر الحديث .

وكما ان الدراسات العلمية ، قد تأكد دورها فى صياغة هذا التجديد للحياة ، فقد حدث فى الدراسات الانسانية ما يحمل على الاحساس ، بنفس النتيجة .

وفى ظنى ، ان من اهم ما طرا على الدراسات الانسانية ، الالتفات الى الميراث الشعبى الروحى — من عادات وتقاليد وتعابير .

وفى الثمانية عشر عاما الاخيرة من حياة مصر ، ظلت هذه الدعوة ، من اعلى الاصوات ، الجديدة ، التى ترمى الى الكشف عن مقدرات الانسان المصرى ، وهو يشتبك مع حضارة العالم من حوله ، ينهض بدوره كجزء اساسى — بل قاعدة اساسية — للامة العربية كلها .

وما حدث من انجازات فى هذا المجال ، يرتبط بما حدث من انجازات العلوم الانسانية والتجريبية الأخرى .

ويدخل — فيما اصطلح على تسميته — ببناء الفرد وبناء المواطن ، فى بلد ليس امامه الا أن ينمو بنفسه من تخلف العصور الوسطى ، علما وفكرا وتأملا ، وعملا وصناعة وانتاجا ، وعلاقات وأسلوب حياة .

● وانى أرى ان واجب المفكرين والمثقفين فى المرحلة القادمة هو العمل على ترسيخ كل ما أرساه عبد الناصر ، وما حققه من انجازات فى شتى الميادين .

احمد رشدى صالح

السؤالان يفترضان اولا ان مرحلة من مراحل تاريخ الامة قد تحددت بحيث يمكن ان تصبح على نحو مستقل موضعا للنظر والتحليل • وهذا فى حد ذاته موضع للنظر • ودون ان ندخل فى مشاكل التحديد التاريخى للعصر وفلسفته فاننا نستطيع ان نقرر ان جمال عبد الناصر بفكره ومبادئه ما زال وسيظل الى امد طويل مصدرا مباشرا للقوى المحركة فى نفوسنا ، نحن الذين نعد من جيله والى ما تبقى لنا من سنوات العمر ، كما سيظل الزعيم المحرك لابناء ثورته الذين سيحققون الكثير من اهدافه واحلامه ويصلون بها الى غاياتها الحضاريه الطبيعيه • وعندئذ تتحدد معالم العصر حقا ويصبح مرحلة محددة من مراحل تاريخ الامه بمثل ما حدد جمال بثورته مرحلة سابقة من تاريخنا المعاصر ، لقد تحدد طريق المستقبل، وما زال عبء انجازه مسئولية على عاتق الامة امام تاريخها • فالحقبة لم تغلق برحيل الزعيم •

ويلى ذلك ملاحظة منهجية اخرى ، فالانجازات الفكرية لا تتغير قيمتها فحسب بتغير العصور والمجتمعات ولكن طبيعة هذه الانجازات تتغير كذلك • فلقد تمخضت سنوات الثورة ــ الثمانية عشر التى ننظر فيها الآن عن عدد ليس بالقليل من الاعمال الثقافية الفردية ذات الشان الكبير • ولكن قيمتها ــ مهما كانت ــ تتضاءل امام ما احدثته المبادرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى قادها الزعيم ، ففجر بها فى ضمير الامة وفكرها وانجز من خلالها ما يجب ان يعد من الانجازات المميزة الكبيرة حقا• وتاريخ الثقافة بمعنى نشاطات الفكر والادب والفن يعتبر الى حد بعيد تفصيلات متفرعه عن الانجازات العامة• بل ان دراسة الأعمال الفردية فى الفكر والادب والفن لن تقوم على اساس حقا حتى نستخلص القيمة الثقافية لهذه الانجازات الاعم • وهكذا يجب ان ننظر اولا الى المؤسسات والاتجاهات الاجتماعية والايديولوجية التى اقامتها الثورة أو بدأتها وان يكون نظرنا اليها لا باعتبار انها مغلقة كاملة التحقيق ولكن باعتبار قدرتها على النمو وقدر سيطرتها على مواضع التغير فى فكر الأمة وثقافتها •

ونتجه بعد ذلك الى التساؤل عن كيف سيكون تحديد هذه الانجازات وكيف يختارها الفكر ويرتبها حسب اهميتها • هذا فى الحقيقه هو اصعب ما يثيره سؤالا مجلة الفكر المعاصر من صعوبات منهجية • فمثل هذا التحديد يفترض مقدما تكامل الدراسة لتاريخ السنوات الماضية وتوفر نظرية عامة أو فردية للمؤرخ أو المفكر الذى يتصدى لهذا الامر • ولست بحاجة للاعتراف بقصورى فى الامرين فهو امر مقرر ، ولكننا جميعا بحاجة الى الدعوة لتحقيقه وبلورته خلال تخطيط فكرى يتراكم اثره وتتكامل عناصره • والى ان يتم ذلك فان اى اجابه ، مهما كانت ، لا تعدو ان تكون تطلعا فكريا فيه الكثير من التعميم والتحيز فى وجهة النظر حتى وان كان فيه الكثير من الصواب والصحة • وبهذا التحفظ يمكن القول ان محاولة الاجابة هى مشروع فردى يجمع فيه المرء فكره ونفسه ــ كما تجمع الامة نفسها الآن ــ للمستقبل وللحرص عليه • وستبقى مجلة الفكر المعاصر صاحبة الفضل فى زيادة تعبئتنا لهذا الشان •

يبقى اخيرا ــ قبل ان اعدد ما اعتبره الانجازات الرئيسية الاصلية ــ ان اقرر اننى لم اقصد فى ترتيبها تقريرا لدرجات الاهمية وان كنت اعتبر ان هناك أساسا اخر للترتيب لا أريد ان أعرض له الآن •

١ ــ اجهزت الثورة فى عهد جمال عبد الناصر على مجموعة رئيسية من المؤسسات والنظم الاجتماعية التى ورثها المجتمع المصرى من عهود الاستعمار والاستغلال فقامت بذلك بمثل ما قام به عصر التنوير ونهاية القرن الثامن عشر فى اوروبا • لقد تحرر الفرد المصرى واسترد حرية عقله وارادته من الاستعمار والاقطاع ورأس المال • لقد انكشف له مدى لاعقلانية هذه المؤسسات ومدى ما تفرضه من طغيان• والكرامة ورفع الراس التى نادى بها جمال عبد الناصر لم تكن مجرد شعارات

بل تغييرا حقيقيا فى مفهوم الفـــرد وجوهر دوره .

٢ ـ اذا ما تابعنا اوروبا والحضارة الغربية منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى استطاعت ان تتوصـــل الى الاشـــتراكية كمفهـــوم تطبيقى وحتى توصلت الى تحقيقه فى الدول الاشتراكية الحديثة فاننا نســـتطيع ان نقـــدر ضخامة الدور الذى قامت به سنوات الثورة الثمانية عشر فى نقلنا خـلال هـذه المدة الى مستوى من المســـامته والتضامن مع احدث ما حققه الفـكر البشرى فى تنظيم المجتمع وتوفير امكانيات تطوره .

٣ ـ لم يـكن تبنى الاشتراكية فى حدود متحيزه وذلك على الرغـــم من الوعى الكامل بحدود التطبيق . لقد تبنى جمال عبد الناصر علمية الاشتراكية فتبنى بذلك روح العـلم والتخطيط العلمى . ووصوله الى شـعار الدولة العصرية وتحـديده لدور التكنولوجيا فيها ليس الا امتدادا طبيعيا لهـــذا الموقف الرئيسى . انه طريق قد تحدد وتحددت معـــه معايير التحقيق فيه ، وخطونا فيه مهما كان بطيئا ـ فهو متقدم .

٤ ـ كان من النتائج المباشرة لتقرير علمية الاشتراكية تبنى مفهوم الانفتاح على كل فكر وعلى كل تجربة . وسوف نحتاج الى دراسات طويلة لمعرفة اثر هذا على تطور مجتمعنا وثقافتنا وخاصة اذا ما قارناه بدول كثيره من تلك التى جعلتها امريكا فترينات لعرض حضارتها وحلولها الفكرية لمشـــــاكل المجتمع والفرد . غـير اننى لا املك ان امنع نفسى من الاشارة الى ما حدث خـلال السـنوات الثمانية عشر الماضـية من تعرض لدراسة مجموعة من اللغـــات والادب غـير الانجليزية والفرنســـية اللتان اغلق عليهمـــا تاريخنا قبـل الثورة .

٥ ـ لم يترتب على الاشـــتراكية والتخطيط العلمى فقط ضرورة رفع مستوى المعيشة لقطاعات المجتمع ولكن تقرر من خلال ذلك وبه ايمان بقدرة الجماهير على الخلق والمشاركة فى تطوير الحضارة . ولم ينحصر ذلك فى تغيير طبيعة التعليم ، وحجمه ، وتجريب التنويع فيه ، بعد الالغاء النهائى لازدواجه ، كما لم ينحصر فى توفير المناخ اللازم لدراسة أدب الشـــعب وفنه وتطويرهما ولكنه ـ وهو المهم فى نظرى من الناحية الفكرية ـ قد ادى الى امكانية زيادة المعرفة بالواقع بتسليح الاجيال الحديثـه من مختلف طبقات المجتمع بالمعرفة وبتمكينها من الانفتاح على تجارب العالم .

٦ ـ وكانت مســئولية الدولة عن الثقافة تعبيرا حاسما عن الايمان بقدرة الجماهير على زيادة المعرفة بالواقع وعلى الخلق والتطوير الحضـــارى . وتقرير اهمية هذا الانجاز لا ياتى من تقييم لما تحقق بتبنيه ، ولكنه يتاتى عن طريق النظر فيما قرره من معايير وما سوف يشير من فكر وعمل لمحاولة الوصول الى ما تقرره هذه المسئولية من قيم .

٧ ـ من ابرز ما تحقق فكريا فى ســنوات جمال عبد الناصر ما قدمه البطل بفكره وعمله من حل لمشـــكلة حضارية القتها علينا الحضارة الغربية وفرضت صعوبات حلها من خـــلال الاستعمار وهى مشكلة العـــلاقة بين الاسلام والتجديد . لقد اتخذت الثورة موقفا قاطعا محددا من الافكار السلفيه الرجعية وصححت منهج العمـــل فى حركات التجديد التى بدأها فى العصر الحديث جمال الدين الافغانى . فاذا بنا ، ومنذ ١٩٥٨ نقرر ان تغيير مناهج التعليم فى الازهرليس مشكلة دينية ونحمى الدين من ان تفـــرض عليه الرجعية فكرها ومصالحها . ان هـــذا وحده فصل ضخم فى تاريخ الانجازات الفكرية لعهد جمال عبد الناصر يحتاج الى بحث طويل .

٨ ـ واخير وليس آخر ، بل هو فى الحقيقه طريق المستقبل ، فان سنوات جمال قد حققت للقومية العربية قيمتها الحقيقه فى صناعة الحضارة فى منطقتنا. فلم تعد القومية العربية احياءا لتاريخ أو سلفية دينية بل طريقا الى التجديد والبلوغ بالمنطقة الى قمة المعاصرة للعالم الحديث . وانا ممن يؤمنون بأن طريق التطوير الذى مات من اجله شـــهيدا وكانه يقرر انه جماع ما حقق وضمان مواصلته .

بدر الديب

د . شكرى عياد

● أريد أن أتحدث عن تأثير عبد الناصر نفسه فى الفكر المصرى والفكر العربى عموما . لقد أعاد عبد الناصر الارتباط بين الكلمة والواقع ، وبين الكلمة والفعل . وكان ذلك متمما ومحققا لما أرهص به كبار المفكرين من قبله فى عصرنا ، رفاعة رافع الطهطاوى ، وجمال الدين الافغانى، وشبلى شميل، واحمد لطفى السيد . الا أن هؤلاء - ربما باستثناء الافغانى وحده - كان جهدهم منصبا على الربط بين الكلمة والواقع، دون الربط بين الكلمة والفعل . فقد كانوا مفكرين نظريين، أما عبد الناصر فكان مفكرا وثوريا ورجل حكم ، وكان يتكلم من موقع الثائر العملى والحاكم المسئول .

● وارى ان واجب المفكرين العرب بعد عبد الناصر هو السير فى الخط نفسه . فان تغيير اتجاه الفكر من الانفصام الذى عاناه قرونا طويلة ، جهد لا يمكن اتمامه فى بضعة عشر عاما ، ولكنه يحتاج الى عدة اجيال .

شكرى عياد



د . عبد الحميد يونس

● ان اهم انجاز لثورة يوليو ١٩٥٢ فى مجال الثقافة هو جعل الانسان العادى محور الاهتمام . ولقد ادت هذه الفلسفة الجديدة الى تغيير اساسى فى مفهوم الثقافة ذاتها . لم تعد محصلة التعليم النظامى او المهنى ولكنها اصبحت - كما هى فى حقيقتها - انسانية الانسان التى تتيح له ان يستكمل مقومات وجود الانسانى وان يعيش عصره ، وان يكون جديرا بالنهوض بمسئولياته الاجتماعية . لم تعد الثقافة محصورة فى المتعلمين أو فى القادرين على القراءة والكتابة فحسب ، وذلك لان وسائل جديدة فى تحصيل المعارف وادراك القيم الانسانية العليا قد زاحمت تلك الرموز التعسفية التى تنقل المسموع الى منظور ثم تعيد تمثله مسموعا بعد الاصطلاح الجماعى على معناه ، وانما أصبحت تعنى المعارف والقدرات والخبرات التى يحصلها الكائن الانسانى ايا كان محيطه الاجتماعى، باى وسيلة من وسائل التحصيل . ونتج عن هذا التعديل فى مفهومنا وما يستتبعه أن تعرف المجتمع المصرى والعربى على حلقات كبيرة فى تراثه القومى والوطنى كانت مجهولة او محقرة عند بعض الاجيال والطبقات قبل ثورة ٢٣ يوليو. وبرزت حلقات « التراث الشعبى » التى تستوعب الكلمة والحركة والاشارة والايقاع وتشكيل المادة . وكان من الطبيعى ان يضم المجلس الاعلى للفنون والآداب منذ نشأته لجنة اساسية من لجانه العاملة هى « لجنة الفنون الشعبية » ، وان تحقق فكرة العمل الميدانى فى هذا المجال بانشاء « مركز الفنون الشعبية » لجمع التراث الشعبى وتصنيفه ودراسته وتقديمه ليكون مادة يستلهمها اصحاب المواهب الفنية حفاظا على الاصالة وارتباطا بالتجربة الفينة السابقة منذ احقاب .

والتقى هذا الجهد برافد آخر فى الدراسات الانسانية ، اذ عنيت كليات الآداب بتقويم التراث الشعبى بعد تمييزه وتسجيله والحكم عليه ، وانشيء كرسى استاذية للادب الشعبى فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، كما اصبحت

المأثورات الشعبية موضوعا معترفا به فى معاهد الفنون الجميلة والتطبيقية . بل ان كلية اللغة العربية بجامعة الازهر اصبحت تعنى بالادب الشعبى . واستوعبت فى الوقت نفسه مؤسسات الانتاج الثقافى فرق الفنون الشعبية والافلام التى تسجل الحياة الشعبية والفنون الشعبية وتستلهمها والكتب التى تقدم منتخبات من هذه الفنون ودراسات لاشكالها ومضامينها .

ومن اهم الانجازات الفكرية التى اثرتها هذه الثورة البيضاء هى تأصيل فكرة « الالتزام » لم تعد العبقرية فى نظرة الهيئة الاجتماعية شخصية خارقة او عجيبة او متمزقة ، وانما اصبحت شخصية انسانية استطاعت التفوق بجهدها الايجابى والواقعى مع ادراكها الصحيح بمسئولية العبارة . لم تعد الكلمة مجموعة من المخارج والاصوات . لقد اصبح التعبير الفنى يحقق سلوكا انسانيا وموقفا اجتماعيا متلزما بكل ما يحمل الالتزام من معنى . وهكذا خرج الادباء والفنانون من العزلة التى ضربتها الرومانسية عليهم فى ابراج عاجية يعايشون ذواتهم فحسب ، ويجترون اخيلتهم ومشاعرهم فقط والتحموا بالجماهير ، واصبحوا جزءا لا يتجزا من ارادة الحياة والتقدم . وليس هذا بالامر الهين او القليل .

● اما واجب المثقفين بالمفهوم الخاص للثقافة فهو الحفاظ على هذه الفلسفة الصحيحة للحياة الانسانية والتاريخ الانسانى والتخلص من رواسب التصورات القديمة البالية والاعتصام بالتخطيط فى مجال الثقافة ، فليس من الممكن ان نخطط للانتاج والخدمات دون ان ندرك مكان الثقافة من وجوه النشاط الانسانى ، انها ليست مجرد خدمة تقدمها الهيئة الاجتماعية للافراد والجماعات ولكنها صميم الحياة الانسانية ، ولابد ان نتابع السير على الطريق بعد ان اتضحت الرؤية وظهر الهدف .. لابد من العمل الجاد بلا ضجيج على محو الامية الثقافية والهجائية معا . ولابد من ان يستمتع كل مواطن بنصيبه الكريم من ثمرات الفنون والاداب ايا كان عمله ، وايا كان موطنه وايا كانت سنه .. وليست هذه من الاهداف التى تعز على التحقيق اذا صح العزم وتكاتف الجميع على تحقيقه .. لقد سبقتنا امم اخرى فى هذا المضمار وتكاتفت على محو الامية بتصور واضح وتخطيط شامل وبرامج مدروسة على مراحل ، وحملت جميع مسئولية تحقيق هذا الهدف الكبير .

واذا كنا نجاهد فى سبيل تحرير الارض وتحرير الانسان ، فان تحقيق انسانية هذا الانسان هى التى تعينه على النهوض بتبعات هذا التحرير الذى يتجاوز الرغيف والتراب الى الفكر والوجدان والضمير ، وهذا فى رايى هو ميثاق الثورة الذى قطعناه على انفسنا لانفسنا وللاجيال وللانسانية كلها مع القائد الذى فجر هذه الثورة فينا فجر ٢٣ يوليو ، والذى اعتز بنا كما نعتز به وبذكراه .

عبد الحميد يونس

د . على الراعى



● اكبر تحول فكرى حدث فى عهد عبد الناصر هو قبولنا للاشتراكية نظريا وتطبيقيا كاجراء حتمى لامفر منه بعد أن اقتنعنا بأن الكفاح الوطنى التحررى لابد أن يواكبه فى الداخل كفاح اقتصادى واجتماعى مماثل، وقد أدى هذا الى الثورة على الظلم فى كل مكان والى مساندة قضية الشعوب المقهورة اينما وجدت والى عقد صداقات مع دول العالم الاشتراكى وأدى أيضا الى قبول النظرية العلمية غير الغيبية فى تعاملنا مع الداخل والخارج معا .

● وفى رأيى ان واجب المثقفين بعد عبد الناصر هو ان يعملوا « على شكل فريق » كل فى ميدانه بدلا من الجهد الفردى وذلك لانجاز مهام رئيسية ثلاث :

١ ـ اعادة كتابة تاريخنا القومى من وجهة نظر الاشتراكية وهو العمل الذى بدأنا فيه منذ سنوات ولم يقدر له الاستمرار .

٣ ـ احياء التراث وايجاد الصلة القوية بين حاضر مثقفينا وجماهيرنا ، واحسن منجزات الماضى ، فان هذه الصلة لا توجد الآن بشكل فعال .

٣ ـ الانفتاح على ثقافات العالم الثالث وبالاخص افريقيا قارتنا الأم ثم آسيا وامريكا اللاتينية بعد أن طالما عزلنا الاستعمار عن هذه الثقافات الصديقة والغنية والمفيدة لنا روحيا وعمليا معا ؟

على الراعى

د . فاطمة موسى

● لقد كان عبد الناصر على وعى تام بحركة التاريخ والطريق الذى كان على الأمة المصرية ان تسير فيه ان كانت تريد ان تحقق ما تهدف اليه . ولذا فقد ساعد على أن يقود التقدم الفكرى فى الاتجـــاه الصحيح وبالأحـرى فى الاتجاه المأمول .

ان ما يلفت نظر المتأمل فى الفرق بين الحياة الفكرية قبـل ثورة ١٩٥٢ والحياة الفكرية فى الثمانية عشر السنه الأخيره – هو هـذا الانفتاح الثقافى على كل التيارات العالمية . ومثل هذا الانفتاح اتاح للمفكر وللمثقف العربى ان يقدر الثقافات حق قدرها وتجريد هذه الثقافات من مثاليتها الشديدة .

لم يصبح من الســـهل على الفكر سواء الغربى أو الشرقى أن يبهر المفكر العربى بعـد ان اصـبحنا فى موقف أولئك الذين يعنون بتمحيص مختلف الثقـــافات ، قادرين على اتخاذ فكرة القرب الى الموضوعية والدقة فى تناول أفكار الغير ، وبالتالى قادرين على أن يحسنوا تقييم انفسـهم وتقييم حضـــاراتهم وثقافتهم بالمقارنة بالثقافات الأخرى .

واعتقد أن الســـفر فى بعثات الى الخارج والخبرة المباشرة بالحضـــــارة (خاصة الغربية) التى اتيحت لاعداد ضخمة لا تكاد تقارن بالاعداد الضئيلة التى كان تياح لها السفر للخارج فى فترة ما قبل الثورة – قد ساعدت على توسيع قاعدة الثقـافات والانشـــطة الفكرية على جميع المستويات .

● وانى أرى ان استمرار محـاولة التأصيل والاستمرار فى الانفتاح على الثقافات المختلفة ، والاســـتمرار فى توسيع قاعدة المثقفين – تعد من أهم الادوار التى على المفكرين الأخذ بها فى عهد ما بعد عبد الناصر .

فاطمة موسى

نجيب محفوظ



● فى عهد ما قبل عبد النــاصر كانت حياتنا الفكرية بصفة عامة تستمد ينابعها من الغرب وفلســفته ، اما الفكرية الاشتراكية أو الشرقية فكانت شبه محرمة ، أو ان ما يخرج منهـا كان فى عداد القليل ، وفى حذر وغير ترحيب .

تغير الموقف فى عهـد عبد الناصر من حيث أن نوافذنا أصبحت مفتوحة على جميع الجهـــات وان الفــكرية الاشتراكية والفلســـفة الاشتراكية انعكست فى عديد الكتب والابحـــاث العلمية والأدبية والانشـــطة الفنية كالمسرح والســـينما والاذاعـــة والتليفزيون .

● واعتقد أن التيار – أو قل – المسار الفكرى سيسير فى مجـراه ما دمنا محافظين على طريق عبد الناصر الذى عبده لنا فى السياسة الداخلية والخارجية .

بل اعتقد أيضـــا أنه بازالة آثار العدوان فان هـــذا الفكر سينشط وسيتمتع بحرية أشمل واوسع ، بل وسيزداد تعمقا وتغلغلا مما لا يمكن أن يتاح له وقت الحرب ، وسيبلور فلسفة البـلاد العربية المستقبلة على ضوء ما مر بهـا من تجـــارب ناجحة وفاشلة معا .

نجيب محفوظ

نعمان عاشور



● ان اظهر التغيرات التى صاحبت قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت تتمثل فيما نتج عنه الاطاحة بالنظام الملكى والقضاء على الاقطاع · فكلاهما لم يكن مجرد نظام للحكم او شكل للحياة وانما كان يتبع قيامهما اسلوب معين فى التفكير ، وايديولوجية لم يكن من السهل اقتلاعها من جذورها الا بعد سنوات ، وقد كشف عن ذلك التطور اللاحق الذى دفع بالثورة الى الاخذ بمبدأ التأميم ثم حتمية الحل الاشتراكى · هذه التغيرات الجذرية فى التكوين السياسى والبناء الاقتصادى والعلاقات الاجتماعية اى فيما يسمى بالقوام الاساسى لكيان الدولة الجديدة ، كان لا بد وان يصاحبه تغير فى الكيان الأعلى ، وهو الكيان المعنوى الذى يتضمن ما نسميه بالقوام الثقافى ·

ولأن التغيرات الجذرية كانت تجىء عن طريق التشريعات والقوانين الملزمة فقد كان دائما ما يبدو ان التطور الفكرى والازدهار الادبى والتعبير الفنى ياتى تابعا لهذه التغيرات فلا يؤثر فيها وانما يتاثر بها · لكن الحقيقة ان هذه التغيرات المادية لم تكن وليدة قوانين وتشريعات بقدر ما كانت حصيلة تطور فى الفكر العام لجماهير الشعب ، وهو تطور يكتسب اعليته من نضال الاجيال السابقة التى كان لعبد الناصر الفضل فى التعبير عنه وتحقيقه ·

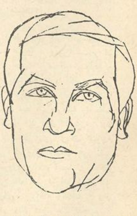
ومن اجل هذا يرتبط التطور الفكرى والثقافى والفنى بما اوجدته ثورة ٢٣ يوليو من منجزات هى فى الاصل رغائب ومطلعات شعبية عبر عنها الفكر والادب سنوات طويله قبل قيامها ، لكن كان للثورة الفضل فى الانجاز والتحقيق وبالتالى شرعية التعبير عنها ·

ولعل ابرز ما يسفر عن ذلك من آثار فكرية لثورة ٢٣ يوليو هو تعبيرها الجوهرى عن القومية العربية ، فالمناداة بالقومية العربية ، وهو عصب اساسى فى سياسة عبد الناصر الوطنية التحررية كان على مر السنين التى سبقت ثورة يوليو من اهم متطلبات الفكر العربى المعاصر ·

واعتقد ان اهم ما يناط به الفن والفكر هو العمل على ترسيخ القوائم الفكرية والفنية التى اوجدتها منجزات الثورة وهى تتمثل اساسا وجوهرا فى الاتجاه نحو الاشتراكية العلمية وبالتالى تحمل الفن والفكر رسالة بناء المستقبل ·

نعمان عاشور

يوسف ادريس



● فى رايى ان جانبا هاما من جوانب الثورة المصرية بقيادة الرئيس عبد الناصر لها ـ كانت محاولة ناجحة للعثور على الشخصية المصرية واستكمالها سياسيا واقتصاديا وفكريا ·

ونستطيع القول ان عبد الناصر نفسه كان نموذجا فريدا لهذه الشخصية ، فهو قد حاول العثور عليها وفى نفس الوقت حققها بوجوده الفعال وبحياته القصيرة وبالفترة التى امسك فيها بزمام الأمور فى بلادنا ·

اما التغيرات الفكرية التى احدثتها هذه الثورة ، فمن الصعب ادراكها الآن باعتبار اننا جد قريبين من التغير ، ولكن شعار مثل «ارفع راسك يا اخى» كان له وقع ايضا على الفكر المصرى ، فقد بدأ به تيار قوى ، غلاب ، طموح ينادى بفكر مصرى خلاق نساهم فيه مع العالم المتحضر وكذلك فن مصرى صادق نابع من بلادنا ، وحتى من ناحية الشكل ياخذ تقاليده من واقعنا ويطورها الى المفهوم العصرى العالمى ·

● وفى رايى ان دور الفكر والمفكرين بعد عبد الناصر فهو لابد ان يكون استمرار لدورهم قبله واثناءه اننا فى حاجة الى قفزات فكرية نواكب بها ثورة التفكير فى العالم الآن ، فى حاجة الى طموح اقوى ، فى حاجة الى امل اكبر ، ان كل شىء لم ينته ؛ انما فى الواقع كل شىء يكاد يبدأ ·

يوسف ادريس



د . عبد الغفار مكاوى

من أشق الامور ان يعايش المرء الأحداث ويحاول فى نفس الوقت ان ينسلخ عنها ويتجرد منها . ولذلك فمن الصعب ان نصل الى حكم موضوعى أخير عن المرحلة الثورية الماضية وقد لا يتوفر هذا الحكم الا لأبنائنا واحفادنا ، حين نصبح نحن وتصبح المرحلة التى عشناها ولازلنا نعيشها بكل انجازاتها العظيمة واخطائها العظيمة أيضا بين يدى التاريخ وفى ذمته وضميره . ومع ذلك فسوف احاول أن أسجل بعض الملاحظات التى يسمح بها وقتى المحدود وقدرتى المحدودة ، راجيا الا يجانبنى الصواب فيها جميعا .

تأكدت فى المرحلة الماضية اربع قيم كبيرة هى الاشتراكية والعلم والحرية والوحدة . والواقع انها تنطوى على قيمة واحدة تشملها جميعا، هى الانسان العربى : كرامته وتقدمه وسيادته . فالاشتراكية بدون القيم الثلاث الأخرى تصبح عاطفة طيبة تفتقر الى التنظيم والخطة والمنهج، او مساواة فى الفقر والقهر ، او طريقا مسدودا بلا هدف اكبر منه . والعلم أيضا بدونها يصبح ترفا عقليا وارستقراطيا لا نملك القدرة عليه فى بلاد تعانى من التخلف البشع ، وتحتاج كل يوم الى امثال ديوجينيس الفيلسوف البائس القديم الذى امسك بمصباحه فى وضح النهار وراح يصرخ فى شوارع أثينا بحثا عن الانسان ، بل تحتاج الى قارعى طبول وأجراس ونواقيس يسيرون فى الشوارع ويذكرون الناس بالعلم والذوق والتقدم ! وأما الحرية فهى بغير الخضوع للقانون والنظام والمشاركة فى المسئولية والتبعات نوع من الفوضى والدمار والتعسف . ولا تزداد حرية الانسان الا بقدر ما تزداد مسئوليته والتزامه

وليس هناك مسئولية ولا التزام اعظم من وضع المفكرين والباحثين والأدباء انفسهم فى خدمة الملايين الطيبة المسكينة التى خرجوا من احشائها ، وبذل كل جهودهم فى سبيل تنويرها وتغييرها واسعادها والأخذ بيدها

لم تتأكد القيم السابقة فحسب، بل اعتقد انه لم يعد فى بلادنا انسان صاحب عقل يفكر او قلب يحس الا وهو يؤمن بضرورتها وحتميتها . وقد كان الزعيم الراحل الذى ارسى هذه القيم بمثابة اللهب المقدس او الشلال الدافق الذى اشاع فيها الدفء والحرارة والحياة . ولما كان من المستحيل تعويض هذه الشخصية الفذة ، فان اجماعنا على ضرورة استمرار الثورة . واصرارنا على تقدمها والتمسك بأمانتها يحتم علينا فى المرحلة القادمة أن نسير خطوات جادة نحو تحقيق الدولة الشرعية والطبيعية ، وان ننفذ ما جاء فى بيان ثلاثين مارس كما وعد بذلك الرئيس الجديد ، وعلى هدى من الميثاق ومن تجاربنا الماضية . وهذه الدولة الشرعية والطبيعية المستقرة فى حاجة الى دستور دائم، وفى حاجة الى سيادة القانون الذى يرعى المواطنين فى ظله ويكفل لهم حق التقاضى مع السلطة ومع بعضهم ، وفى حاجة الى المزيد من الحريات العامة التى تسمح لهم بالتعبير عن الرأى والنقد والحوار المفتوح ، وهى أسس كل مشاركة فى المسئولية وتحمل للتبعة . ولا بد ان تكون الكلمة الأخيرة للعلم ، أى للتفكير المنظم الهادىء المحسوب البعيد عن العاطفية والخطابية والكلمات والشعارات المغرية . وقد وضعت الأسس الطيبة للسير على هذا الطريق الذى لم يبق لنا سواه فى هذا العصر ، وشاع الايمان بضرورة العلم والتخطيط والتخصص ، وبقى أن تشمل الروح العلمية كل ميادين حياتنا، وأن تنتدب لحل كل مشكلاتنا .

من اخطر الامور على الثورة ان تصبح « حكومة » وعلى الثائر أن يصبح « حاكما » صاحب سلطة . تقول بهذا تجارب الأمم على مر العصور . ويزداد هذا الخطر فى بلادنا التى سادت فيها البيروقراطية واصبحت مرضا قديما منذ آلاف السنين . ولما الوقت ان تحكم الثورة ويحكم الثوار، كان من الضرورى والمحتم فى نفس فمن الضرورى والمحتم أيضا أن يحافظ الثائر دائما على ثوريته ، أى على نقائه وطهره ونزاهته ونظافته ، وأن يكون فى ذلك قدوة حية للجميع . لقد نبه رئيسنا الراحل الى هذا المعنى

فى خطبه المتاخرة . وكان من اهم العوامل التى حببت فيه جماهير الفقراء احساسهم بانه عاش فقيرا ومات فقيرا. ولعل هذا هو سر المكانة العزيزة التى سيشغلها دائما فى قلوبهم . ان الشعب الفقير يريد حاكمه الفقير وليس من الضرورى أن يغزل ثوبه بنفسه كما كان يفعل غاندى . ولا أن يركب الترام أو يسير على قدميه . ولكن من الضرورى كما قلت أن يكون قدوة حية فى النزاهة والطهر والنقاء . ولن يستطيع مسئول أن يطلب من الناس تصديق كلامه الفصيح عن الاشتراكية والعدالة ، فى الوقت الذى يسمعون فيه أنه يملك العمارات والقصور ، او يحتفل بزواج ابنه او ابنته احتفالات الف ليلة وليلة ، أو يحرص على قوافل العربات الفخمة .

من الظواهر المؤلمة فى حياتنا انتشار طوفان الفهلوة والشطارة وطول اللسان. اصبح فى امكان غير المتخصص ان يفتى فى كل شىء . هناك من صار بالصدفة أو بخفة اليد من نقاد الفن والأدب . وهناك اللبق الذى يتحدث الساعات الطويلة فى الاذاعة عن أعوص مشكلات الموسيقى والغناء دون أن يفهم شيئا عن أصولها العلمية . وانتشر هذا النموذج الفهلوى الملحلح فى معظم مجالات حياتنا . وانا افهم ان يظهر حيث يكون الارتزاق والجرى وراء الكسب بأى ثمن شهوة طبيعية او ضعفا طبيعيا عند البشر . اما ان يظهر فى الميادين التى لا يصح أن تسمع فيها الا كلمة العلم والتعمق نتيجة الصبر والجهد والعرق ، فتلك هى المصيبة حقا . وضحاياها هم اولئك الذين يواجهون الاختيار العسير: فاما الجرى فى موكب الارتزاق ولو كان على حساب القيم الباقية ، او الانعزال والزهد والصمت والمرارة . لقد كدنا نصل الى حال اصبح فيها المجتهد النظيف أشبه بالناسك الوحيد. بل أصبح فى معظم الأحيان هو « الخايب » الذى يفتقد موهبة اللباقة والشطارة والبكش . وأنا أعتقد ان الطبيب البسيط الذى يخدم اهلنا فى الريف والأحياء الفقيرة ، أو المعلم المتواضع فى احدى القرى النائية، او العامل والمهندس الذى يعمل فى السد العالى ومواقع اكتشاف البترول واصلاح الأراضى ، أو الفلاح الأبدى الذى يغوص كل يوم حتى رقبته فى الطين – أعتقد ان هؤلاء أكثر ايمانا بالاشتراكية من أولئك الذين لا يكفون عن الحديث عنها كل يوم كالبرابند . ان مقياس حياتنا فى المرحلة القادمة ينبغى أن يكون العمل، والعمل القائم على العلم والمعرفة وحدهما ، هذا ان اردنا ان ينحسر هذا الطوفان المخيف الذى يوشك ان يغرقنا . ارجو أن نحكم العلم فى كل شىء . وليس العلم الذى اعنيه هو المعامل وانابيب الاختبار والتجارب والمراجع فحسب. وانما اسلوب منظم محسوب فى كل امورنا التى نحتك فيها بالواقع . لقد شغل وشغلناهم بالسياسة حتى اوشك كل مصرى ان يكون سياسيا (مع ان السياسة ايضا علم لا يصح أن يتكلم فيه كل من هب ودب) وقد آن الأوان لكى نشغلهم ونشغل أنفسنا بالعلم والحضارة والمعرفة . وآن الأوان أيضا للتفكير فى الانتقال من مرحلة النقل والأخذ عن الغير – وقد كانت ضرورية ولا زالت لها ضرورتها بالطبع – الى مرحلة صنع العلم وانشائه وخلقه من وحى واقعنا ومشكلاتنا وبيئتنا . اننى أتمنى أن يجىء اليوم الذى تنتشر فيه مراكز البحث العلمى الموزعة على بيئتنا على اختلاف احتياجاتها فى العلوم العملية والتطبيقية والنظرية ، وأن يكون انشاء هذه المراكز هو اول واجبات المحافظات والشركات والمؤسسات والمصانع الكبرى .لسنا فى حاجة الى مزيد من الشهادات بل الى مزيد من الخبرات ، فى حاجة الى معاهد ومراكز منتشرة فى ربوع بلادنا تبحث فى الثروة المائية والسمكية والبترولية والمعدنية ومقاومة الآفات وطبيعة التربة والصناعات المحلية والمشكلات النفسية والصحية والاجتماعية لمختلف الطبقات والتجمعات ودراسة اللهجات وتسجيل الأدب الشعبى .. الخ كى نواجه به مكاننا تحت الشمس ، ونعرف واجبنا اصدقاءنا وأعداءنا على السواء ، لنثبت فى هذا العصر ونؤديه .

لا شك ان الفترة الماضية قد ابتليت بصعود نجم البرجوازية الصغيرة ، او بتعبير ادق بصعود طبقة

محظوظة تعيش على سطح البرجوازية وهى الطبقة التى سميت فى الآونة الاخيرة باسم الطبقة الجديدة . تكفى نظرة الى الشارع . ان قيمها هى النجاح والوصول والشهرة وان نكون دائما « فى الصورة » . ووسيلتها هى نفاق السلطة ولعق أحذيتها والتكسب منها بأى ثمن . ولقد قرأت فى الأهرام من بضعة شهور تلخيصا لبحث توفر عليه احد علمائنا فى التربية على مدى عشرين سنة ، وأثبت فيه بالاحصاءات أن سلم القيم قد اهتز او انقلب رأسا على عقب ، اختفت فضائل الجدية والمثالية والرجولة والشهامة والتواضع والصبر وحلت محلها قيم أخرى مشوهة (ان صح أن تنطبق عليها كلمة القيم) كالشهرة والنجاح والغنى والظرف واللباقة ... الى آخر القائمة . هذا شيء مخيف . ماذا نفعل اذا ؟ هل نركب مكبرات صوت تهتف فى الشوارع وتذكر الناس بالقيم اليتيمة ؟! هل نرسل المنادين والصائحين وقارعى الأجراس فى الأسواق ؟!

لابد ان ناخذ المسالة ماخذا جادا . لابد أن نوقف زحف الانتهازية والفهلوة .. الـ..خ لابد و..كل قسوة . والطريق الوحيد فى رأيى أن تتجه الثورة فى السنين القادمة بشكل حاسم ونهائى الى الأغلبية الساحقة الطيبة المطحونة ، الاغلبية التى لا تزال تعانى من الفقر والأمية والاهمال ، وتنفس عن همومها بين الحين والحين بالنكتة المرة . صحيح ان الدولة قد قامت بانجازات عديدة ورائعة لهذه الاغلبية . فهناك التخطيط العلمى للتنمية ، والقضاء على ذل الاقطاع ، ونشر المدارس والوحدات الصحية والاجتماعية وقصور الثقافة (التى اتمنى أن تسمى بيوت الثقافة أو حتى اكشاك الثقافة !) ولكن هل تم كل شيء ؟ الا يصح أن يعاد النظر فى هذه الانشاءات لتزداد فاعليتها ؟ الا يصح مثلا أن نسأل أنفسنا ولو مرة واحدة ما الهدف الذى اقمنا من أجله بعض المؤسسات ، كالاذاعة والتليفزيون مثلا فى بلد أربعة أخماسه أو يزيد ومناقشة مشكلات الناس والاحساس بهم عن قرب . (وقد سمعت بهذه المناسبة منذ سنتين فى الفيوم أن الفلاحين كانوا فى غاية السعادة والامتنان لأن أفواج طلبة احدى كليات طب الأسنان زارتهم فى قراهم وعالجت مرضاهم وعسكرت فى الخيام بينهم ..) لن يأتى الاصلاح الحقيقى من المكاتب النظيفة الى الشارع القذر والبيت الفقير ، ولن تتحقق الاشتراكية التى نرجوها من أعلى الى أسفل ، ولا عن طريق النوايا الطيبة والعبارات الفصيحة ، بل لابد من العمل الميدانى ، نبدأ منه وننتهى اليه فى كل المجالات . اننى لن أكره أن تغلق الجامعات ابوابها سنة دراسية كاملة (كما فعلت كوبا مثلا) اذا لزم الأمر ليتحمل الجميع مسئولياتهم فى معركة التعليم والتنوير والتربية الأساسية . صحيح أن تلقين الألف باء ليس هو ... يقاسي من الفقر والجهل ؟ — اننى أتمنى أن تتميز المرحلة القادمة بعملية « تعبئة عامة » فى خدمة الشعب خدمات عاجلة وباقية وملموسة . اتمنى أن يذهب شباب الجامعات والمدارس والمصالح والمصانع افواجا لتعليم أهلهم فى الريف وردم البرك وعلاج المرضى المفتاح السحرى . وأنا أعرف تماما أن معظم من نسميهم — عن تعال وغرور — بالأميين هم فى أكثر الأحيان أعظم حكمة وانسانية من كثير من أصحاب الشهادات والدرجات العالية ، وأقل أذى لمجتمعهم ولأنفسهم . ولكن المهم ان تتم هذه المعركة أو هذه الثورة التى اعنيها ، وأن أيدينا خريطة عمل يحددها العلم (وحبذا لو اغلقنا افواهنا تماما ! وانى لاسأل نفسى لماذا لانوزع آلاف الخريجين الذين يتبعون القوى العاملة كل سنة — لماذا لانوزعهم على الأربعة آلاف وثلاث وتسعين قرية ! اذا لم نفعل هذا بالصورة الحاسمة التى أشرت اليها فستظل كل المعانى النبيلة عن الثورة والاشتراكية والعدالة زخارف لطيفة على السطح أو فى أذهان الطبقة الجديدة وجرائدها ومجلاتها وأجهزتها الاعلامية وكل سوآتها التى أشرت اليها ...

اتسمت المرحلة الماضية بكثرة الشعارات التى تظهر فجأة . وللشعارات أهميتها فى البداية ، لدفع الناس الى العمل وحفز الهمم . أما وقد اقتنع الجميع كما أعتقد بأن الاشتراكية هى الحل الوحيد لمشكلات حياتنا ومستقبلنا ، فقد أصبح من الواجب فيما أظن نتجاوز مرحلة الشعارات . ان عيبها وخطورتها فى انها تتجمد مع الزمن وتصبح أشبه برموز سحرية نطالبها بأن تفكر لنا . ان الاخلاص للواقع والتماس النظر والعلم منه هو الكفيل بالاستغناء عنها تماما . واذا كان لابد من شعار أو كلمة هادية فلتكن هذه الكلمة الوحيدة : الجدية .

اتسمت المرحلة الماضية ايضا بقدر كبير من التهالك على الانتاج الغربى وغلبة «الموضات» و «الازمات» الأدبية والفنية . واذا كان هذا أمرا ضروريا فى البداية ينبع من ايماننا « بالفكر المفتوح على كل التجارب » ، فليس معناه أن نهمل شخصيتنا وواقعنا ، بل معناه أن نقرأ وننسى ما قرأناه ، ثم نتجه الى واقعنا نفسه نستمد منه ونستوحيه باخلاص . وعيب هذه الموضات و « الازمات » أنها تعطى لنفسها سلطة ليست لها — مع انه ليست هناك سلطة فى الأدب والفن والفكر بل هناك التغير والتطور المستمر فى ظل قيم ثابتة وباقية كالحياة والصدق — وعيبها أيضا أنها تحاول ان تحجر على غيرها من الاتجاهات والتيارات وتمارس نوعا من الارهاب عن قصد او غير قصد . وقد يصل الأمر الى حد الايهام بأن من يكتب الشعر العمودى مثلا او القصة التقليدية او يبحث فى الفلسفة الوجودية او الوضعية المنطقية فهو متخلف أو جاهل او مغرض . وكل هذه صور من ذلك الارهاب الفكرى الذى ساد فى الستينات ، وأغرقنا فى طوفان من الخطابية والشعارات والكلمات الطنانة . والارهاب على اختلاف أنواعه يأتى

دائما من أولئك الذين يتصورون أنهم وحدهم يملكون الحق المطلق ويعرفون الصواب المطلق . ونظرة بسيطة الى قدراتنا المحدودة وتفكير بسيط فى الموت الذى ينتظرنا جميعا يمكن ان نقنع من لا يريد ان يقتنع بان ند المطلق بعيد عن الانسان ، واننا جميعا نحاول ونجتهد فنخطىء او نصيب فى بعض الاحيان . وليس هناك وسيلة لمنع هذا الارهاب الفكرى والادبى الا بالحوار والمناقشة الحرة والاعتراف بحق غيرنا فى التفكير و[illegible] وحقه فى الاعتراض وقول لا ، وتنمية الثقة المتبادلة بين بعضنا البعض بدلا من التراشق بالتهم (وهو الاجراء الذى يلجأ اليه من يدافعون عن انفسهم قبل أن توجه اليهم الاتهامات !) ويقينى ان ما سميته بالارهاب الفكرى كان نتيجة للتسرع وحب الظهور قبل كل شىء . فهناك نفر من الناس لم يستطيعوا لنقص عدتهم واستعدادهم — أن يدخلوا الأعمال الفكرية والفنية من ابوابها فقفزوا اليها من النوافذ . لقد حسبوا أنه يكفى أن يلجأ الانسان الى بعض العبارات والأحكام التى تتصل بالسياسة أكثر مما تتصل بالأدب لكى يسمى ناقدا أو أديبا . ونسوا أن النقد علم ، بل مجموعة من العلوم والمعارف المتشابكة ، وأن المنهج الاجتماعى فى دراسة الأدب ليس هو المنهج الوحيد ، بل ان تحليل قصيدة واحدة من الشعر يستلزم الماما لا حد له بالتراث القومى والعالمى ، ومعرفة باصول هذا الفن وقواعده لا تتيسر للمتسرعين واصحاب الأصوات الزاعقة .

تميز الانتاج الفكرى فى المرحلة الماضية بزيادة ملحوظة فى التنظير على العمل ، اعنى فى غلبة الانتاج النظرى المترجم أو الموضوع او المنقول على الدراسات الميدانية والانتاج المستمد من الواقع نفسه . وينبغى ان تكون لدينا الشجاعة الكافية للاعتراف بان الرئيس الراحل كان اسبقنا جميعا الى الاحساس بالواقع ، واشدنا التفاتا اليه وعناية به وحملا لهمومه . انه فى كل ما فكر ونظر وقال لم ينس لحظة أن يضع واقع الأغلبية الساحقة نصب عينيه . ومن هنا جاء حب الأغلبية الساحقة له وايمانها بصدقه . ولقد آن الأوان كما قلت لتجاوز مرحلة النقل والتأثر الى مرحلة الخلق والصنع والانشاء . صحيح اننا سنظل دائما فى حاجة الى معرفة أفكار الغير ونظرياته وأعماله والترجمة عنه . ولكن لابد ايضا فى كل عمل سياسى أو علمى او فنى أن يكون مرجعنا الأخير هو واقعنا الحى نفسه ، نمتحن عليه نظرياتنا وافكارنا ، ونستمد منه هذه النظريات والافكار كلما استطعنا . سيكون علينا — كما يقول الاخير الدكتور حسن حنفى فى مقاله الأخير عن دور المفكر فى البلاد النامية — ان نتجه الى صياغة نظرية علمية بدلا من تطبيقه نظرية علمية ، ان نعمد الى التحليل المباشر للواقع ، هذا التحليل الذى يوحد بين الفكر والواقع ويجعل الفكر « هو الواقع الواضح والواقع هو الفكر المتحقق » .

ولكى يكون كلامى محددا ، وبقدر ما تسعفنى الذاكرة — فلست هنا بصدد تقديم جرد عام للحياة الفكرية فى الفترة الأخيرة ولا انا فى الحقيقة من القادرين عليه ! — احب ان اشير الى بعض الدراسات والأبحاث والأعمال التى نبعت من واقعنا أو استلهمته او حملت على الأقل همومه وعبرت عنها فى شكل علمى أو فنى . هناك مثلا بعض الدراسات الهامة التى قام بها مركز البحوث الاجتماعية مثل الدراستين القيمتين اللتين أشرف عليهما بقدر ما أعلم أستاذنا وصديقنا الكبير الدكتور مصطفى سويف عن مشكلة تعاطى الحشيش ومشكلة البغاء ، الى جانب دراساته ودراسات تلاميذه عن الابداع (ونرجوان يترك ابناء البرجوازية قليلا وينزل بها الى جماعات الفلاحين والعمال وصغار الموظفين والحرفيين !) وهناك دراسات الدكتور سيد عويس والدكتور عباس عمار والدكتور جمال حمدان (الذى لا أدرى كيف نتركه فى عزلته الأليمة ولا كيف يغيب عن مكانه الجدير به فى حياتنا الجامعية او الثقافية ، عن الشخصية المصرية . وهناك هذه التحفة الرائعة « سندباد مصرى » لأستاذنا العظيم الدكتور حسين فوزى ، ودراسات أستاذنا الدكتور عبد الحميد يونس وتلامذته النابهين كالدكتورة نبيلة ابراهيم والدكتور أحمد مرسى والشاعر فوزى العنتيل عن الأدب الشعبى والفنون الشعبية التى نرجو أن تتوج بانشاء قسم خاص بها فى الجامعة . واذا كانت أمثال هذه الدراسات وغيرها من الدراسات الاكاديمية التى لم تنشر او لم أسمع بها متصلة بصورة أو اخرى بحياتنا الاجتماعية ومتجهة للواقع والنظر الى أفواه الشعب كما يقول لوثر ، فان هذا الاتجاه لايزال ضروريا حتى فى الدراسات التى اتفق على تسميتها بالدراسات المجردة اوالنظرية البحتة . ان قدرنا وحياتنا يحتمان علينا أن ننظر بعين العلم فى ذاته وبالعين الأخرى الى واقعنا . علينا ان نسأل انفسنا كلما امكن ذلك : ماذا يمكن أن نفيد من هذا الرأى أو هذه النظرية ، ومن اى ناحية تهمنا ، وماذا ناخذ منها او ندع . ويصدق هذا حتى على الفلسفة ، بل لعله يصدق عليها قبل غيرها ! لو درسنا هيجل او كانت أو ارسطو او الغزالى وابن رشد فيجب أن نسأل أنفسنا دائما : ماذا يمكن أن يفيدنا فى واقعنا وظروفنا المحددة ؟ وما الذى بقى منهم حيا لنصبه فى تيار حياتنا ونثرى به عقولنا ووجداننا وندفع به عربة التغير والتنوير والتطوير ؟ أتكون نفعية اذا ؟! سمها كما تشاء ، فهكذا ينبغى ان يكون كل تراث ، حياة من حياتنا ، جزءا من تيار شعورنا بل من دمنا ولحمنا . وهكذا تفعل كل الشعوب المتقدمة بتراثها والا لما حرصت عليه وجددته فى كل جيل بالنشر والتفسير والحوار معه . وكل ما لا يصلح لهذا فاولى به أن يلقى فى البحر او يترك لفيران المخازن ! قد تقول انني بهذا



أظلم التراث · ولكن المهم فى الواقع ان نكون جديرين به حتى لا نسقط فى الفراغ · والمهم أيضا أن نحاول قراءة التراث القومى والانسانى قراءة جديدة تسرى فى حياتنا وتخدم آمالنا·

واذا انتقلنا الى الانتاج الأدبى برزت امامنا اسماء عديدة مخلصة يصعب حصرها او الوفاء بحقها · هناك فى المقام الاول اعمال استاذنا نجيب محفوظ، الفنية عن التعريف، ومن حوله طائفة كبيرة من شباب الأدباء الذين يعمل بعضهم فى صمت وصدق. وهناك بعض المسرحيات التى حمل أصحابها هموم الواقع وحاولوا أن يكتشفوا الطريق الى تجارب (ولا أقول الى أشكال !) مصرية صميمة (كالفرافير ليوسف ادريس والناس اللى تحت لنعمان عاشور وجيفارا لميخائيل رومان وبلدى يابلدى لرشاد رشدى وغيرهم كثير) وهناك المسرحية الشعرية التى ازدهرت فى السنين الأخيرة كأعمال الشرقاوى وصلاح عبدالصبور الذى تعد مسرحيتاه عن الحلاج وليلى والمجنون من اهم الوثائق الادبية التى تعبر عن هموم جيلنا وآلامه وأشواقه الى العدل والبراءة والحرية · هناك كذلك الشعر الجديد وموكبه الزاحف المنتصر · والقصة

القصيرة التى جددت ارضها وغرست فيها تجارب عديدة ، ووفق بعضها فى التعبير عن محنتنا بعد النكسة (واخص بالذكر قصة الجلسة لعبد الرحمن فهمى وقصص سليمان فياض وجمال الغيطانى) وهناك اخيرا اعمال فاروق خورشيد الروائية التى استوحاها من ملاحمنا الشعبية .

واصل الى مشكلة الترجمة التى اتسمت فى الفترة الأخيرة بالتسرع والفوضى والاهتمام بالكم الهائل دون التوقف لنسال أنفسنا ماذا نترجم ولماذا نترجم وكيف نترجم ؟ صحيح ان هناك أعمالا رائعة فى هذا المجال كترجمة الكوميديا الالهية للدكتور حسن عثمان - وهو عمل لا تكفى الكلمات للتعبير عن سعادتنا به - ومشروعى ترجمة شيكسبير وراسين اللذين يشرف عليهما استاذنا العظيم طه حسين ومشروع الألف كتاب الذى توقف للأسف على الرغم من حاجتنا اليه (فمهما كانت عيوبه ، ومهما كانت رغبتنا فى اصلاحه بحيث يشمل الروائع الانسانية بحق ، فان هذا لم يكن يجيز بحال من الأحوال جريمة وقفه) وهناك بعض الأعمال القيمة مثل ترجمة جمهورية افلاطون للدكتور فؤاد زكريا وسقوط الامبراطورية الرومانية لجيبون ومشروع المسرحيات العالمية (الذى تكاسل فى الظهور للاسف) وانيادة فرجيل التى نرجو أن تظهر عن قريب ولكن هذه الأعمال وغيرها لا تمنع من توجيه الأسئلة السابقة . فلا بد من الانتقال الى مرحلة العمل الجماعى لترجمة الأعمال الكاملة فى التراث العالمى بمثل ما انتقلنا نقلة شجاعة الى مرحلة التصنيع الثقيل . ولابد من الاهتمام بهذا الامر حتى ولو تطلب انشاء مصلحة او هيئة بأكملها لا عمل لها الا الاشراف على الترجمة وتشجيعها بكل وسيلة حتى نتفاعل حقا مع الأمم المتحضرة !

وهذا الكلام لا ينطبق على الترجمة عن اللغات الأجنبية فحسب ، بل ينبغى ان يصدق ايضا على النقل الى اللغات الأجنبية . اعلم ان هذا الكلام سهل تنفيذه صعب . ولكن هذا لا يمنعنا من البداية ، وهناك بدايات طيبة بالفعل قام بها مجلس الفنون والمجلس الأعلى للشئون الاسلامية . لابد اذن - اذا اردنا ان يفهم العالم قضايانا ويسمع عنا ويتخلص من سموم الأكاذيب الصهيونية التى لا يكاد يعرف غيرها - أن نعنى بمشروع انشاء هيئة او دار نسميها « دار نشر الكتب العربية باللغات الأجنبية » وأن تكون هذه الدار أو الهيئة على المستوى العربى كله ، ويتولاها مجلس من العلماء العرب المرموقين . واحب ان منذ البداية ان انفى عن هذا المشروع كل فكرة تتصل بالدعاية . ورأيى فى هذا ان خير دعاية نقوم بها فى عصر العلم هى الا نلجأ الى الدعاية ، بل نخاطب العالم بلغة العلم . أعنى أن تهتم هذه الدار المقترحة بنشر المختار من تراثنا القديم والحديث ، فى الادب والعلوم الانسانية وتاريخ العلم والحضارة على السواء . اعلم ان العبء ثقيل على اساتذة اللغات فى بلادنا ، ولكن من الممكن اشراك العلماء والمستشرقين والمستعربين والمفكرين والكتاب الأصدقاء فى هذا المشروع . بل يمكن أن نرصد منحا سنوية لشباب المستعربين فى أوروبا وآسيا وافريقيا للدراسة فى بلادنا مقابل ترجمة كتاب واحد من تراثنا القديم او الحديث والمعاصر ، ويساعدهم فى ذلك أحد أبنائنا الملمين بلغتهم . كما يمكن رصد جوائز سنوية تمنح لأفضل كتاب يظهر فى الخارج فى الدراسات المصرية أو الاسلامية والعربية . ولابد من وصول هذه الكتب الى يد رجل الشارع الأجنبى الذى تضلله دعايات الأعداء . ولا بد أن ننفتح على العالم وينفتح العالم علينا لنحارب سوء الفهم والجهل المطبق - وهو ما يحدثنا به معظم القادمين من الخارج . وكل مجهود علمى صحيح لا يمكن أن يضيع علينا بل الأولى بنا أن ننفق أضعاف أضعاف ما نعطيه للعلم والعلماء والفكر والمفكرين ، ونوفر فى أشياء اخرى كثيرة محدودة الفائدة أو لا فائدة منها على الاطلاق .

واخيرا تسألنى عن دور المفكر فى المرحلة القادمة وجوابى بسيط : واجب المفكر أن يكون مفكرا ، صدقنى ان هذا ليس من قبيل تحصيل الحاصل فان كلمة المفكر نفسها تنطوى على معانى الريادة وسعة الأفق وتسامح القلب وشمول النظر ونزاهة الرأى والأمانة والاخلاص والجهد والتعب الذى لا يعرف راحة الا ان تكون راحة الموت ! المفكر الحقيقى يحنو حنو الام او الأب على واقعه ويحتوى صدره آلام شعبه ومتاعبه وآماله . وهو فى النهاية شاهد على عصره . ولابد ايضا ان يكون مستعدا - اذا اقتضت الظروف - أن يكون شهيده ؟

عبد الغفار مكاوى

الفكر المعاصر :

اذ تقدم عددا خاصا عن الراحل العظيم جمال عبد الناصر فكرا ونضالا ، فانها لا تزعم أن هذا العدد قد غطى جوانب فكر هذا الانسان ونضاله كافة ـ تترك المجال مفتوحا فى أعداد قادمة لمساهمات أخرى فى هذا الموضوع ، عرفانا لحق ، ووفاء لذكرى ، وخلودا لعظيم .

التصوير الفوتوغرافى : محمد النجعاوى